مُقَدِّمَة

الإنسان مخلوق اجتماعي ودود

هذا هو الأصل

ربما توجد لهذا الأصل بعض الاستثناءات لكن في الغالب لا يخلو إنسان من مودة أو ألفة تجمع بينه وبين إنسان آخر أو مجموعة من البشر ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف كما صحَّ الخبر عن رسول الله ﷺ

وتتنوع العلاقات الإنسانية تنوعًا كبيرًا وتتباين التفاعلات بين البشر تباينًا واسعًا ولا يكاد يخلو امرؤٌ من العديد من تلك العلاقات والمعاملات المختلفة

فما بين معرفةٍ سطحيةٍ وعلاقاتٍ عابرةٍ قصيرةٍ وزمالاتٍ عمليةٍ وبين صداقاتٍ حميمةٍ وترابطاتٍ وثيقةٍ تجمع بين المرء ومن حوله، يظهر ذلك التباين والتعدد بشكلٍ واضحٍ

وقد يُزامل المرء في حياته أُناسًا كُثرًا

وقد يتعارف علىٰ أُناسٍ أكثر

وقد تتسع دائرة معارفه لدرجة لا تمكنه من تذكر أسماء كثير منهم حين يقابلهم

لكن قليلًا منهم من يستحق أن يقول عنه المرء: صاحبًا

صاحبك هو هذا الشخص القريب من قلبك

هو ذلك الإنسان الذي تعرفه جيدًا . .

تعرف صفاته ومميزاته . .

تدرك خصائصه وطباعه . .

تجمع بينكما ذكريات وأحداث وتشتركان في هموم وشجون ولحظات سعيدة وأحزان . .

صاحبك هو ذلك الذي تكِن له مشاعر وتحمل له في قلبك مودة صادقة وامتنان . .

إذا ذُكِر أمامك سرعان ما تعتمل في صدرك هذه المشاعر وتتأتىٰ إلىٰ ذهنك تلك الخصائص وتقفز إلىٰ مخيلتك بعض من تيك الذكريات . .

إن غاب عنك استوحشت، وإن طال فراقكما إليه اشتقت، وإن جاء موعد اللقاء به سر قلبك وفرحت . .

تلك هي الصحبة وذاك هو الصاحب الحقيقي . .

فَكِّر لوهلة وسَلْ نفسك:

كم من معارفك تستطيع أن تصفه بذلك الوصف وأن تنطبق عليه معاني تلك الكلمة؟

كلمة صاحب

. .

الكلمة التي أراد النبي ﷺ أن تكون عنوانًا ووصفًا لعلاقتك بما أنزل عليه من ربه . .

القرآن

(اقْرَؤوا القرآنَ . فإنه يأتي يومَ القيامةِ شفيعًا «لأصحابه»). رواه مسلم

(اقرَؤوا الزَّهرَاوَين: البقرةَ وسورةَ آل عمرانَ. فإنهما تأتِيان يومَ القيامةِ كأنهما غَمامتانِ. أو كأنهما غَيايتانِ. أو كأنهما فِرْقانِ من طيرٍ صوافَّ . تُحاجّان عن «أصحابهما»). رواه مسلم

(يجيءُ «صاحبُ» القرآنِ يومَ القيامةِ فيقولُ القرآنُ يا ربِّ حَلِّه فيلبسُ تاجَ الكرامةِ ثمَّ يقولُ يا ربِّ زِدْه فيلبسُ حُلَّةَ الكرامةِ ثمَّ يقولُ يا ربِّ ارضَ عنه فيرضَىٰ عنه فيُقالُ له اقرأْ وارقَ ويزدادُ بكلِّ آيةٍ حسنة).

رواه المنذري في الترغيب والترهيب وصححه الألباني

(إنَّ القرآنَ يَلْقَىٰ «صاحبَهُ» يومَ القيامةِ حينَ يَنْشَقُّ عنهُ قَبْرُهُ كَالرجلِ الشَّاحِبِ يقولُ: هل تَعْرِفُنِي؟ فيقولُ لهُ: ما أَعْرِفُكَ، فيقولُ: أنا «صاحِبُكَ» القرآنُ، الذي أَظْمَأْتُكَ في الهَوَاجِرِ، وأَسْهَرْتُ لَيْلكَ، وإنَّ كلَّ تَاجِرٍ من وراءِ تِجَارَتِه، وإنَّكَ اليومَ من ورَاءِ كلِّ تجارةٍ، قال: فَيُعْطَىٰ المُلْكَ بِيَمِينِهِ، والخُلْدَ بِشِمالِهِ، ويُوضَعُ علىٰ رأسِهِ تَاجُ الوَقَار، ويُكْسَىٰ والِدَاهُ حُلَّتَيْنِ، لا يَقُومُ لهُما أهلُ الدنيا، فَيَقُولانِ: بِمَ كُسِينا هذا؟ فيقالُ: يأخذُ ولَدُكُما القرآنَ، ثُمَّ يقالُ: اقرأْ واصْعَدْ في درجِ الجنةِ وغُرَفِها، فهوَ في صُعُودٍ ما دَامَ يقرأُ حدرا كان أَوْ تَرْتِيلًا). حسنه الإمام ابن حجر العسقلاني وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة

(إنما مَثَلُ «صاحبِ» القرآنِ كمثلِ الإبلِ المعَقَّلَةِ إن عاهد عليها أمسكَها وإن أطلقها ذهبَت وفي رواية: وإذا قام صاحبُ القرآنِ فقرأه بالليلِ والنهارِ ذكرَه وإذا لم يَقُمْ به نسِيَه). صحيح مسلم

(يقالُ «لِصاحِبِ» القرآنِ: اقرأْ وارْتَقِ، ورَتِّلْ كما كُنْتَ تُرَتِّلُ في الدنيا، فإنَّ مَنْزِلَتَكَ عندَ آخِرِ آيَةٍ كُنْتَ تَقْرَأُ بِها). السلسلة الصحيحة

تأمل . .

يُقال لصاحب القرآن:

«شفيعا لأصحابه»

«تحاجان عن صاحبهما»

«أنا صاحبك القرآن»

كلمات ذات أصل مشترك تكررت في تلك الأحاديث التي ذكرتها في السطور السابقة

صاحب، أصحابه، صاحبهما، صاحبك

إنها الصحبة إذن!!

لقد اختار النبي ﷺ تلك الكلمة تحديدًا -وهو الذي أوتي جوامع الكلم- ليصف بها ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بينك وبين القرآن

علاقة صحبة!

صحبة بكل ما تشمله الكلمة من معانٍ وخصائص وأركان

صحبة كلية للقرآن بأكمله فلا يكاد يفارقك ولا ترتاح ولا تأنس إلا معه وتسعىٰ جاهدًا لاقتناص كل وقت تمضيه برفقته

وصحبة جزئية ومعرفة موضوعية لسوره المختلفة

حينَ ولَّىٰ بعض الصحابة مدبرينَ يوم حنين أمر النبي ﷺ عمه العبَّاسَ فَناداهم: يا أصحابَ الشَّجرةِ -يعني أَهْلَ بيعةِ الرِّضوانِ- وفي روايةٍ: ناداهم

يا «أصحابَ» سورة البقرةِ ينشِّطَهُم بذلِكَ فجعلوا يُقبِلونَ من كلِّ وجهٍ) صححه العلامة أحمد شاكر في مقدمة عمدة التفاسير

تأمل قوله يا أصحاب سورة البقرة

لقد شرفهم بهذا النسب بعد نسب لتلك البيعة العظيمة -بيعة الرضوان- وياله من شرف

أن ينسب المرء لسورة من سور القرآن وأن يلقب بأنه من أصحابها

أي درجة من المعرفة والقرب تلك التي بلغها ليصل إلىٰ هذا المقام . . مقام الصحبة

الصحبة الشاملة والنظرة الموضوعية العامة التي تربط بينه وبين كل سورة من سور القرآن والتي تعد توطئةً وتمهيدًا للمعرفة العميقة التفصيلية بمعاني آياتها وإدراك أحكامها وتوجيهاتها

فهذه السورة لها في قلبه وقع مألوف محبب وتلك السورة يجد لها في نفسه حنينًا واشتياقًا، أما السورة الثالثة فيخفق قلبه رهبة عند تدبر آياتها، وعن تلك السورة الرابعة التي يسارع لقراءتها حين تدلهم به الخطوب ويبتغي تثبيتًا لفؤاده ومواساةً لجنانه فحدث ولا حرج، أما هذه الآية فعلىٰ قصرها إلا أن روحه تسمو وتهفو رجاءً كلما تُليت عليه.

وهكذا يتنقل الصاحب مع صاحبه، يقف مع آية من آياته أو قصة من قصصه أو مثل من أمثاله الجامعة المانعة، يستطرد حول المعانىٰ ويطوف في ظلال المشاعر ويرفل في نعيم المبادئ التي تبث من خلال مجاورة هذا الصاحب العظيم

يعيش مع أبطال قصصه وتتوطد علاقته بهم فيحزن لحزنهم وتتهلل

أساريره لفرحهم ويواجه معهم الظالمين والطغاة ويصدع معهم بكلمات الحق التي قذفوها في صدر الباطل

يبحر مع نوح ويسمو بروحه في ملكوت السماء متدبرًا مع إبراهيم

يصبر مع أيوب ويسبح مع داود ويصمد مع الغلام في وجه صاحب الأخدود

يتزلزل فؤاده مع المؤمنين في مواجهة الأحزاب يوم الزلزال الشديد، ثم ينشرح صدره وهو يطالع نبأ النصر المجيد والرعب الذي تصدَّعت به نفوس المشركين

يتنقل من مشهد إلىٰ آخر ومن قصة إلىٰ أخرىٰ ويدور مع المعانىٰ والأمثال حيث دارت

كذلك يجد صاحب القرآن العارف بآياته المحب لكلماته وقعًا ومشاعرًا وآثارًا كلما تفاعل مع سُوَرِه ومرَّ بأجزائه وأحزابه

ويكأنه يسمع قعقات المعركة وصليل السيوف مختلطًا بصهيل الخيل وهو يصحب سورة الأنفال، ثم يرتجف قلبه غضبًا لربه وهو يطالع جرائم المنافقين في سورة التوبة

يوجل قلبه تعظيمًا وإجلالًا لربه إذا رتل سورة الأنعام، ويذوب فؤاده شوقًا لمولاه المنَّان وهو يتلو سورة الرحمن مجيبًا لسؤالها المتكرر وصائحًا من أعماق قلبه وإن لم يسمع الخلق بلسانه: لا بأي من آلائك نكذب ربنا ولك الحمد

يزداد حمده وشكره وامتنانه وهو يطالع نعم الله وآلائه في سورة النحل، ثم ترتعد نفسه خوفًا وطمعًا وهو يتلو سورة الرعد

ينبهر بعدل الشريعة وإحكام إنصافها وهو يقرأ سورة النساء، ثم يُعاهد الله علىٰ الوفاء بعقود سورة المائدة ومواثيقها، وتعلو همته ويزداد يقينه وهو يتأمل تلك المفاصلة الخالدة بين أئمة الحق وسدنة الباطل في سورة إبراهيم، ويعجب لذلك اللطف الجميل في سورة يوسف، ويزداد انبهارًا بفتوحات الله تفرج الكروب عن موسىٰ في سورة القصص، ثم يلين قلبه حين يغمره ضياء سورة النور، ويذرف الدمعات الخاشعات وهو يتأمل شكوىٰ حبيبه في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِی ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورࣰا﴾

هل وجدنا مثل ذلك في علاقتنا بكتاب ربنا؟

هل هي علاقة وثيقة تستحق بالفعل أن يطلق عليها وصف الصحبة الراسخة والأنس الجميل؟

هل صاحبنا القرآن؟

هل صاحبنا سُوره أو حتىٰ بعض سُوره؟

بل هل صاحبنا سُورة واحدة منه؟

هل نستحق أن يُقال لنا يوم نرجع إلىٰ الله هلموا يا أصحاب القرآن؟

ما أريد بتلك السؤالات السابقة ومن قبلها ذلكم العرض الموجز لنماذج من الأُنس بالقرآن والتعرف المجمل علىٰ سُوره أن أضع تصورًا مثاليًّا يصعب الوصول إليه أو يغرس الإحباط في نفسٍ من لم يجد في نفسه تلك الأصداء والتفاعلات، ولكنه مجرد لفت لانتباهك عزيزي القارئ

لفت لانتباهك أن هناك آفاقًا أخرىٰ للتعامل مع كتاب الله ليس علىٰ أنه فقط مصدر لجلب الحسنات وجمع المثوبات -وأكرم بها من قيمة- ولكنه روح

نعم . .

الله جل وعلا ذكر أن الوحىٰ المنزل هو روح من أمره

ما أعظم الاسم! وما أعجب الوصف!

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ . .

لقد وصف القرآن بأوصاف كثيرة، ونعوت بليغة؛ فهو النور المبين، وهو البيان والتبيان، وهو الشفاء والرحمة للمؤمنين، وهو الهدىٰ والفرقان بين الحق والباطل، وهو أحسن الحديث والموعظة والبلاغ، وغيرها من الأسماء والأوصاف التي وصف الله بها كتابه العزيز وسمَّاه بها.

لكن تسميته بالروح لها قيمة مختلفة بلا شك . .

لها دلالة تحتاج إلىٰ وقفات ووقفات،

الروح هي أصل وسر تلك الحياة التي تنبض في العروق، والبريق الذي يلتمع في العيون، والحركة التي يختلج بها القلب، والحرارة والحيوية التي تسرىٰ في جسد الحي ومتىٰ ما نزعت خبا كل ذلك وصار جسدًا يابسًا باردًا لا حياة فيه.

ولا روح . .

لقد اختار الله لوحيه المنزل أن يطلق عليه نفس الاسم الذي يطلق علىٰ سر الحياة

ويكأن القلوب من دون القرآن ميتة، والنفوس من دون القرآن يابسة

متجمدة، والفكر من دون القرآن بارد ساكن.

باختصار .. مؤمن من دون قرآن عبارة عن جثة متحركة وجسدٍ خاوٍ ..

خاوٍ من الروح ..

هل نظرت من قبل للقرآن هذه النظرة؟

هل تفاعلت معه من هذا المنطلق؟

هل تعاملت مع كتاب الله علىٰ أنه روح تحتاج إلىٰ أن تبث في قلبك وأن تسمو بها نفسك وتسري حيويتها في أوصالك فتمشي بها بين الناس لتكون ممن قال الله فيهم: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾

نحتاج أيما احتياج لأن ننظر إلىٰ القرآن هذه النظرات، وأن نتعامل معه من منطلق مختلف عن منطلق كثير من الناس الذين لا يتعاملون معه إلا كترانيم لا يفقهونها أو كوسيلة لتحصيل الثواب هي -مع حسن مقصدها- تظل هدية وكم من أُناس شغلتهم الهدايا عن الوصايا والفروع عن الأصول وتحصيل الثواب عن استيعاب المنهج والتوجيه الذي تحتويه كلمات الله

إن القرآن في الأصل كتاب تغييرىٰ، أنزله الله ليخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور، وهو كتاب ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾ ولشهدته متصدعًا فيفترض أن يترك أيضًا أثرًا جذريًا في حياة المرء إذا سرت فيها، وتسربت إلىٰ أركانها آياته وتسربل بنورها واقعه.

وقد قال الله عن كتابه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تقدير الكلام لكان هذا القرآن هو الذي يحدث تلك

التغيرات الكونية العظيمة من تحريك جبال وتقطيع أرض وتكليم موتىٰ، فإن كانت تلك قدرته التغييرية علىٰ تلك الكائنات والأفعال الكونية الجسيمة، بل وما هو أعظم منها فما بالك بقدرته التغييرية علىٰ قلبك ونفسك إذا صاحبته

كم من قلوب كانت متشحة بالسواد ونفوس كانت ميتة قد أحياها الله بهذا الكتاب

كم من بعيد عن الله مسرف علىٰ نفسه متبع لهواه هداه الله بتلك الروح من أمره

تلك هي الفرصة الكبرىٰ للتغيير من خلال القرآن بدايته تصحيح النظرة لهذا الكتاب المنزل من عند الله، ومن ثم تصحيح العلاقة وتحويلها إلىٰ مصاحبة حقيقية ومعرفة تتعمق تدريجيًّا

هناك نماذج لا تُحصىٰ تمثَّل فيها رد الفعل الطبيعىٰ من أهل الفضل الذين أدركوا ما يدركه العقلاء حين يُنَادَون أو يوجه إليهم الكلام فيجيبون ويستجيبون ويتفاعلون ويتغيرون

هذا ما فعله ويفعله من يدركون قيمة النداء الربانىٰ ويعون حقيقته ويستشعرون من الذي يخاطبهم من خلال القرآن

إنه الله يكلمهم ويناديهم ويأمرهم ويربيهم

وذلك هو الفارق الرئيس بيننا وبينهم

الفارق الرئيس بيننا وبين سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه عند مسارعته بالإجابة والعفو عن مسطح حين سمع ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾ فسارع قائلًا: بلىٰ واللّه إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا

والفارق الرئيس بيننا وبين سيدنا أبي الدحداح الذي تخلىٰ عن ثروته المتمثلة في حديقته الغناء امتثالًا لآية من كتاب الله

والفارق الرئيس بيننا وبين الفضيل بين عياض الذي تغيَّرت حياته بالكامل بعد أن سمع النداء وأجاب واستجاب

إنه الفارق الرئيس بيننا أو بين كثير منا وبين هؤلاء الذي عطرت السطور السابقة بذكرهم وغيرهم ممن لم يتسع لي المقام لأتشرف بذكرهم وقد أجابوا واستجابوا

الفارق أنهم تعاملوا مع القرآن علىٰ أنه كلام الله لهم.

أنهم تفاعلوا مع القرآن ونظروا إليه نظرةً سديدةً دقيقةً ظهر أثرها جليًّا في ردود أفعالهم التي ذكرت في السطور السابقة طرفًا يسيرًا منها

نظرة مفادها وخلاصة أثرها: أن الله يكلمنا

هذه الآيات كلام الله لنا

ملك الملوك يخاطبنا نحن

هذه النداءات والسؤالات والأوامر والنواهي والتوجيهات موجهة لنا

لك ولي ...

كيف إذًا لا أرد؟

كيف إذًا لا أتفاعل؟

وكيف قبل كل ذلك لا أَعِي وأفهم وأتدبر وأتأمل

وهل يسعني أن أعرض وألا أجيب ولا أستجيب؟

هذا هو الفارق المحوري بيننا وبينهم

أن كثيرًا منَّا يتغافل عن تلك الحقيقة العظمىٰ

حقيقة أنه كلام الله

أنه حبله الممدود طرفه بأيدينا كما وصفه رسوله ﷺ

أن ربنا يتكلم . .

لقد انصرف كثير من الناس عن الاستمتاع بالتعبد لله ومعاملته بهذه الصفة والإحساس بآثارها وتدبر تجلياتها من خلال كتابه المنزل، فكانوا كمن ظل يثبت عظمة وجلال كتاب وينفق الأوقات علىٰ إثبات نسبته لصاحبه، ثم لم يجد الوقت لفتحه أو قراءته

أو كمن دُعي إلىٰ وليمة فظل يتحدث عن جمالها وفخامتها دون أن يمد يده ليطعم منها ويتلذذ بطيباتها.

ولله المثل الأعلىٰ

إن صفة الكلام من أجمل الصفات التي تتعرف بها علىٰ الله جل وعلا وتتقرب إليه بمعاملته بها واستشعار آثارها

ورغم أن حل كثير من مشكلاتك ومفاتح نفسك وتذكرة أوبتك قد تكمن في آية واحدة

في كلمة أو كلمات ربانية تقرأها أو تسمعها فتشعر أنها موجهة لك أنت

تنتشلك معانيها . .

تشفيك موعظتها . .

وتضيء توجيهاتها طريقك . .

ورغم أنه كثيرًا ما يكون الحل في التذكير بالقرآن -وحسب- دون وسيط

أو إضافة أو تكلف أو كثير من كلام البلغاء ونظم الفصحاء الذي ربما يكون له مواطن أخرىٰ

رغم كل ذلك إلا أن قليلًا من ينتبه وقليلًا من يدرك هذه الحقيقة البسيطة النقية . .

حقيقة كونك في لحظة ما تحتاج إلىٰ أن يُخلَّىٰ بينك وبين كلام ربك مباشرة . .

يخاطب قلبك ويمس فؤادك وتهفو إليه روحك

وقليل من المربين والموجهين من يعنون بتوجيه قلوب وعقول الناس لتلك القيمة والحقيقة ويجعل كلام الله هو الأصل الذي تدور حوله عظاته وتذكراته ونصائحه وتوجيهاته

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾

حين تترسخ تلك القيم ويدرك المسلمون أن الأمر ليس فقط بكثرة تلاوة لا ينبني عليها تغيير وعمل؛ بل هو بالمعايشة والتدبر والرغبة الصادقة في الفهم والتطبيق من خلال التعرف التدريجي علىٰ سور القرآن لتبدأ خصائص كل سورة في الظهور ثم يتبعها انطباعات وتفاعلات ومشاعر مع كل سورة، ثم في مرحلة متقدمة مع كل آية من آيات القرآن وكل كلمة من كلماته، هنا فقط يقترب المرء من منزلة المصاحبة لهذا الكتاب والتغير والتغيير به ومن خلاله

وهذا ما أحاول من خلال هذا الكتاب أن أطرق علىٰ بابه بعض الطرقات اليسيرة لعله يثير شغفًا كامنًا في قلب من يقرأه ليستمر في طرق هذا الباب لعله يومًا يُفتح له ويلج إلىٰ تلك الرياض الوارفة ويحيا بين ربوع

الآيات ويتنسم عبير المعاني والقيم القرآنية الجليلة

حاولت أن أطرق أبواب التدبر لكل سورة من سور القرآن العظيم منذ بدايته وحتىٰ نهايته، لعل بابها ينفتح وتقبل قيمها ومعانيها مصاحبتنا في حياتنا

ولقد وفقني الله جل وعلا لطرق أبواب تدبر الأجزاء الست وعشرين الأول لأتوقف عند سورة الفتح علىٰ مشارف الجزء السابع والعشرين مؤملًا في مولاي أن يوفق لطرق أبواب تدبرها في جزء ثان لهذا الكتاب يَصدر عن قريب بإذن الله

ستجد بين يديك عزيزي القارئ في هذا المصنف تأملات في آيات بعينها وقصص قرآنية اخترتها وقيم إسلامية أبرزتها تكثر في بعض السور وتقل في أخرىٰ حسب فتح الله وتيسيره في كل سورة أولًا وحسب طول السورة وقصرها، ثانيًا

جُل تلك الطرقات بلغةٍ عربيةٍ وأسلوبٍ يغلب عليه الطابع الأدبي الذي أميل إليه وبعضها طرقات بلغة بسيطة قد تبلغ العامية في مواضع يسيرة وددت بها تقريب الصورة بشكل معين ومقصود

أردت من خلال كل ذلك إلقاء الضوء علىٰ توجيهات جامعة ولفتات ماتعة، والأهم أن أحاول ترسيخ علاقة مبدئية بينك عزيزي القارئ وبين آيات القرآن وسوره لعلك تتبعها بمزيد بحث وتمحيص ومدارسة وأن يكون التدبر صفة مميزة لقراءتك القرآن وسلوكًا ثابتًا في تلاوتك له

إنها إذًا دعوة لتغيير النظرة النمطية للقرآن وعدم الانشغال بالهدية عن الوصية والانتباه إلىٰ طبيعة العلاقة التي تجمع بين المسلم وبين آيات ربه

تلك العلاقة التي يطرق المسلم بابها ثم يصعد درجاتها عبر سلم المدارسة والتدبر والتعرف ليستحق في النهاية ذلك اللقب الشريف العظيم لقب صاحب القرآن . .

سورة الفاتحة

سورة الفاتحة ببساطة شديدة عبارة عن دعاء يسبقه ثناء

لكنه ليس أي دعاء وليس أي ثناء

إنه دعاء بالهداية.

الهداية التي من دونها الضلال عياذًا بالله

ولكىٰ تعلم خطورة هذا الدعاء وأهميته لا بد أن تعلم خطورة الشيء الذي تحتاج أن تهدي خلاله

إنه الصراط.

الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة

هذا الطريق الصعب المحفوف بالمخاطر في الدارين

ففي الدنيا حُفَّ هذا الصراط بالمكاره والشهوات والشبهات وامتلأ بالمزلات والفخاخ والأبواب التي يتربص بك فيها الأعداء من كل جانب

فطريق محفوف بالمهالك ممتلىٰء بالأعداء من شياطين الإنس والجن ومن قبلهم النفس الأمارة بالسوء حري بالمرء أن يتأهب فيه ويهاب سلوكه بغير معين، لذا تأتي الدعوة من قلب مفتقر وعقل يعي خطورة الأمر فيجأر بها كل لحظة لمن يستطيع إعانته علىٰ وعورته ويقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾

وفىٰ الآخرة فالأمر أخطر والصعوبة أشد

فصراط الآخرة كما وصفه النبي دحض مزلة أدق من الشعر وأحد من السيف فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يُقال لها السعدان فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس علىٰ وجهه في النار

فيمره المؤمن كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب وفي حتىٰ يمر آخرهم يسحب سحبًا

ولا يوفق المرء للمرور عليه بسرعة وسلام وهو بهذه الحدة والخطورة إلا أن ينجيه الله فيتذكر المؤمن ذلك فيدعو بحرقة أشد وبافتقار أكبر ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾

لذلك نستطيع أن نقول أن هذا أهم دعاء يحتاج المسلم أن يدعو به في الدنيا لينجو في الدنيا والآخرة

فاللهم اهدنا الصراط المستقيم

❀ ❀ ❀

وللصراط الذي تطلب الهداية إليه خصائص وصفات وهو طريق يعرف بسالكيه وليس قفرًا أنت أول عابريه، فقد سلكه من قبلك أناس زكاهم مولاك وتركوا لك آثارًا عليك أن تقصها وتلتمس الصراط المستقيم بها

وهم الذين أنعم الله عليهم.

ولك أن تسأل مَن هؤلاء الذين لشرفهم ميَّز الله الصراط بهم وطلب منك أن تقتفي آثارهم؟

يجيبك مولاك في سورة النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ

أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾

فهم القدوات والأسوات والقادة الذين ينبغي تسير علىٰ نهجهم وأن تتبع سبيلهم وعليك أن تتذكرهم كلما قرأت الفاتحة ودعوت مولاك بهذا الدعاء

تتذكر أنك لست وحدك تسير إلىٰ الله بل هم من قبلك سبقوك وتقدموك في قافلة طويلة من السائرين إلىٰ مراد الله وكانوا لك خير سلف وعليك أن تكون لهم خير خلف

وهنا تشعر أنك لست نبتًا مجتثًا لا أصل له، ولكن لك جذور وقواعد راسخة عليك أن تعتز بها وتهفو روحك إلىٰ التمسك بهديها.

❁ ❁ ❁

وكما عرفت الطريق بمن سلكوه قبلك من المُزَكين فلا بُد أن تعرف السبل الأخرىٰ لتتقيها وبضدها تتمايز الأشياء ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

فشتان شتان بين طريق العلم والهدىٰ والنور وبين طريق الجهل والظلمات والغرور

تتعلم من الفاتحة أن تتعوذ من طريق المغضوب عليهم الذين علموا ولم يعملوا أو طريق الضالين الذين عملوا بجهل وضلال وأبوا أن يتعلموا

ومن ثم يتعود قلبك ولسانك أن يتبرأ من سبيلهم التي سلكها وسيسلكها كثيرون كما أخبر الصادق المصدوق (تتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم)

❁ ❁ ❁

وقبل دعاء الفاتحة تجد التأدب مع المولىٰ جل وعلا فتبدأ الفاتحة بالثناء علىٰ الله والتذلل إليه والتعبد بأسمائه وصفاته

تثنىٰ عليه وتحمده وتقر له بربوبيته فتقول ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

والحمد هو الثناء لكنه ثناء ممزوج بحب ومودة

ثم تستمر في الثناء بذكر أحب أسمائه وصفاته إليه فتقول ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

وهي الصفة التي بدأ بها خلقه وكتبها يوم خلقهم علىٰ عرشه «**إن رحمتي سبقت غضبي**»

ثم بعد أن بدأت بصفات الجمال تثني وتمجد بصفات الجلال وأعظمها أن تقر أنه الملك المالك فهو يملكك ويملك الكون كله وهو الملك الحاكم له صاحب السلطان عليه ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾

تقر بهذا الملك المستحق لملك الملوك سبحانه فتقول ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

ثم بعد أن أقررت له بكل الثناء والمجد تكون النتيجة أنه وحده المستحق لعبادتك ولا شريك له في ذلك فتقترب أكثر وتعاهده قائلًا : ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾

ثم تتذكر ضعفك وتقصيرك وتخشىٰ من تبعات هذا التقصير علىٰ ذلك العهد الذي قطعته للتو فتتبرأ من حولك وقوتك وتطلب المعونة منه وحده قائلًا : ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾

إن قلت ذلك وأنت تعنيه وتقصده ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله تتوطد العلاقة أكثر فأكثر إلىٰ مرحلة غير مسبوقة

إلىٰ مرحلة وجود أسرار بينك وبينه وهذا لا يكون إلا بين المقربين وليس بين أرباب العلاقات السطحية

هذا السر يتضح في قوله ردًّا علىٰ ما عاهدته به من إخلاص العبودية حين يقول المولىٰ ﷻ: «**هذا بيني وبين عبدي**».

فياله من شرف وياله من مقام ذلك الذي وصلت إليه بفضله وعلمك كيف تصل إليه بمنه فله الحمد والمنة

بعد هذا الأدب وبعد هذا التمجيد لك الآن أن تسأل وتطلب وكلك رجاء في الإجابة بعد أن وعدك قائلًا: «**ولعبدي ما سأل**».

سورة البقرة

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾

﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾

هاهنا مربط الفرس،

ومكمن المشكلة، وموطن الداء،

إن الخلل الحقيقي إنما هو في مدىٰ إسلامهم لله جل وعلا،

في مستوىٰ استسلامهم لأمره

في درجة امتثالهم لمراده،

﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾

هي جملة جامعة مانعة، تُعبر عن مجمل خصالهم، ومختصر نعوتهم،

الحقيقة الجلية أنهم يرفضون حكم الله عليهم، ويجدون حرجًا في صدورهم من سلطانه، وضعفًا في اليقين بموعوده، فهم للأسف قوم متمردون،

عن أمر ربهم ناشزون،

شعارهم سمعنا وعصينا،

الفسق ديدنهم، والجدال والمراء والشبهة دأبهم،

فماذا تنتظر منهم؟!

❁ ❁ ❁

وفي أول نداء للمؤمنين بين دفتي المصحف تجد نهيًا لهم عن قول ﴿رَٰعِنَا﴾ للنبي ﷺ واتباع فعل اليهود في لَي أعناق الكلام وإساءة الأدب مع الأنبياء وتجد توجيهًا بحسن الأدب والدقة في اختيار اللفظ غير الموهم الذي لا يُساء فهمه أو تبطل دلالته وهذا أدب عظيم جاء مقترنًا بأول نداء للمؤمنين في كتاب رب العالمين

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

فتأمل يرحمك الله قيمة التأدب مع رسول الله ﷺ وأهمية توقيره وتدبر خطورة لَي عنق الكلام والتلاعب بالألفاظ وإرادة باطن مختلف عن ظاهرها

❁ ❁ ❁

وربما يتوارىٰ الإيمان شيئًا ما في قلب المسلم فتحجبه طبقات الران وتؤخره سحائب الغفلة والنسيان فيكون بحاجة ماسة إلىٰ هزة زلزالية تنقشع علىٰ إثرها سحائب الغفلة وتتصدع بها طبقات الران ليعلو الإيمان مجددًا وليغشىٰ بريق نوره جنبات القلب مرة أخرىٰ وتلك الهزة الزلزالية قد تكون بابتلاء يحسبه المرء شرًّا له وهو في الحقيقة خير وسبب يقظة تكون بعد ذلك سبيلًا إلىٰ جنة ورضوان ونصر من الرحمن

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ

ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ﴾

❀ ❀ ❀

والتواب والمتطهر يتشابهان، وفي خصائصهما يجتمعان

فكلاهما متخلص من الدرن متنزه عن الدنس مستبرئ من النجس؛ أما الأول فهو بتوبته يتخلص من درن الذنوب وينزه نفسه من دنس المعاصي ويستبرئ من نجس الخطايا كما يغسل المتطهر بدنه ويطهر جسمه من النجس الحسي ويظهر ذلك جليًّا في قول الغامدية «أصبت حدا فطهرني»

من هنا تفهم الاقتران بين محبة للتوابين ومحبته للمتطهرين

فحقيقة فعلهم الطهارة وأصل خصالهم النظافة حسيَّة كانت أو معنويَّة

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾

❀ ❀ ❀

وبين الآيات التي يُكلمنا الله فيها عن أحكام الطلاق وآدابه تبرز آية قد تبدو لأول وهلة عجيبة في هذا الموضع الفقهي الذي يتعامل معه الناس بنوع من الجفاء إلا من رحم الله

تجد بين آيات أحكام الطلاق قوله تعالىٰ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾

ثم الكلام عن الصلاة أثناء الحرب واشتداد الخوف والكلام عن ذكر الله حين عودة الأمن

بعدها يعود الحديث عن الأحكام وتفاصيل المعاملات الشرعية من جديد

والحقيقة أن العجب يزول حين تدرك أن الصلاة ليست انفصالًا حسيًّا عن واقع المرء بل يفترض أن تمتد آثارها لتسيطر برحيقها علىٰ سلوك المرء ومعاملاته الحياتية فتضبط ذلك السلوك وتكون دافعًا للمرء أن يتَّقي الله في تلك المعاملات

وكذلك ينبغي أن يَعي وهو في خضم تلك المعاملات الحاسمة واللحظات الفاصلة ومن أخطرها الطلاق وبلا شك الحرب أن الصلاة عليه كتابٌ موقوتٌ ينبغي أن يحافظ عليه مهما كانت الضغوط

وأنها الصلة التي تربطه بالله وتعينه علىٰ الثبات في مواجهة تلك الضغوط والتعامل فيها بما يرضيه

❁ ❁ ❁

ومن أخطر خصال المنافقين أنهم يكذبون ويخادعون حتىٰ تتشرب قلوبهم الكذب في نهاية الأمر حتىٰ يكادوا أن يصدقوه فلا يشعروا بمصيبتهم ولا يدركوا حقيقة خديعتهم

تأمل وصف ربك لهم

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾

وهذا الوصف يجعلك تجتهد أكثر في أن تتعوذ من النفاق وتدعو ربك

أن يجنبك إيَّاه فقد يصيب المرء شيئًا منه وهو لا يعلم

وقد يخدع نفسه وهو لا يشعر

انتبه

وهو لا يشعر

عافانا الله وإياكم من النفاق وخصاله

❁ ❁ ❁

ولقد علَّمنا الله في مفتتح كتابه أن نطلب منه الهداية وفرض علينا أن ندعوه سبعة عشر مرة في اليوم والليلة أن يهدينا الصراط المستقيم كلما صلَّينا وقرأنا الفاتحة أم الكتاب

ثم دلَّنا مباشرة علىٰ أعظم أسباب تلك الهداية في أول السورة الثانية بين دفتي المصحف -سورة البقرة- فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾

فهاهنا إجابة دعوتكم أيها المؤمنون وبين دفتيه مصدر هدايتكم التي تطلبون ﴿فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾

فتذكر دومًا وأنت تدعو يوميًّا في صلاتك بهداية التوفيق إلىٰ الصراط المستقيم أن الله قد أجابك في الصفحة المقابلة ودلك علىٰ مصدر معرفة الطريق ومحل هداية الإرشاد والتوجيه فإن ضللت بعد ذلك فأنت من أعرض عن مصدر تلك الهداية ولا تلومن إلا نفسك فلقد علمت ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾

❁ ❁ ❁

وإن أردت أن تعلم متىٰ يذكرك ربك فتلمس أوقات ذكرك له فهو حينئذ يذكرك كما وعد ومن أوفىٰ بعهده من الله أليس هو القائل: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾

❁ ❁ ❁

وقد تكرر في سورة البقرة ذكر أسئلة سألوها للنبي ﷺ وجاءت دائمًا الإجابة دائمًا مبتدأة بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾

﴿قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ﴾

﴿قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾

﴿قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾

وهكذا . . .

إلا في موضعٍ واحدٍ حين سألوه عن الله جل وعلا فجاءت الإجابة بغير وسيط حتىٰ لو كان النبي ﷺ نفسه

فكان الموضع الذي ليس فيه ﴿قُلۡ﴾ بل أجاب الله عنه مباشرة بنفسه قائلًا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾

فهاهنا مقام قرب ومودة ومشهد إجابة ومحبة وفي مثل هذا المقام تكون الإجابة بهذا القرب والتودد مباشرة من الرب القريب المجيب لعبده السائل المنيب الذي يرفع يديه سائلًا متضرعًا مبتهلًا منيبًا

❁ ❁ ❁

ومن طبائع البشر أن يغضبوا لأنفسهم وكثير منهم تأخذهم العزة بالإثم ويدفعهم النيل منهم لمزيد من العناد فتتحول السجالات إلىٰ انتصار للنفس يتبعه بغي متبادل نتيجة تلك الآفة التي تتسرب إلىٰ جل القلوب إلا من رحم الله

آفة حظ النفس

ولا يكاد أحد ينجو من تلك الآفة إلا من انتبه إليها وتتبع بواعثها وتذكر أن قدوته ما انتقم لنفسه قط ولكن أن تنتهك حرمة من حرمات الله فينتصر النبي ﷺ لله

وبذلك التتبع والحرص علىٰ تجريد المشاعر وردود الأفعال لتكون خالصة لله وحده وليس لنفسه فيها نصيب، يكون تنزل العون من الله ويعصم المرء من شرور نفسه وحظوظها وتصبح غضبته لله لا لها

هذا ما علىٰ المرء أما ما علىٰ خصومه فهو ألا يضغطوا علىٰ بواعث تلك الحظوظ وألا يعينوا المرء علىٰ نفسه أو يعينوا شيطانه عليه

ولقد روي أن بعض السلف كانوا ينهون عن الإكثار من قول المرء لأخيه: اتق الله؛ كي لا تأخذه العزة بالإثم ويهون عنده مدلول النصيحة أو تأتي بنتيجة عكسية

أسأل الله أن يقينًا من العزة بالإثم

ومن حظ النفس

ومن رؤية النفس

ومن الغضب إلا له وحده

سورة آل عمران

وهل هناك تجارة بالدين؟

نعم بلا شك هناك تجارة بالدين

هذا ليس أمرًا حديثًا وليس قاصرًا علىٰ دين بعينه ولقد ذكره ربنا في كتابه ولا ينكر وجود تلك المتاجرة إلا جاهل أو جاحد

يقول الله جل وعلا في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾

إنها حالة تجارة واضحة واستفادة من الدين وعهده وأيمانه مقابل ثمن قليل رصدها كتاب الله وجعل عليها وعيدًا في الآخرة

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

أيضًا في نفس السورة قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾

تأمل . .

اشتروا به ثمنًا قليلًا

هذه حالة أخرىٰ اختار أصحابها أن يتاجروا بما معهم من كتاب مقابل الثمن القليل

وهو وإن ظهر للناس أنه لا يُعد ولا يحصىٰ فإن يظل قليلًا إذا قورن بما عند الله ينتظرهم إن لم يفرطوا فيما معهم من الخير

ولقد اقترن بتلك المتاجرة إلقاء لما معهم من العلم خلف الظهور وكتمان العلم وترك البيان فبئس ما يشترون

إذن فتلك التجارة الخاسرة آخرًا وإن ربحت ثمنًا قليلًا عاجلًا موجودة ومرصودة ولا يمكن إنكارها

ولا شك أنه دائمًا يوجد وسيوجد من يتخذ الدين مهنة والقربات مصدرًا للمنفعة والاستغلال

وفي الحديث الصحيح: (بَشِّرْ هذه الأُمةَ بِالسَّناءِ والدِّينِ والرِّفعةِ والنَّصرِ والتَّمكينِ في الأرضِ فمَنْ عَمِلَ مِنهمْ عَمَلَ الآخرةِ للدُّنْيا لَمْ يَكُنْ له في الآخرةِ من نَصيبٍ). صحيح الجامع

لكن هل هذا هو الأصل؟

هل مطلوب منا أن نسيٰء الظن في كل من عمل عملًا ظاهره الصلاح ونقول أنه إنما يتاجر به وأن له أغراضًا خبيثةً من ورائه أو يبتغي به أهدافًا عاجلة ومآرب دنيوية قاصرة؟!

الحقيقة أن هذا من أبشع الظلم وأشنعه، ويُعد من الرجم بالغيب إن أطلق هكذا بغير دليل ثابت وقرائن واضحة

والله جل وعلا يقول في آل عمران أيضا: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا

قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾

هذا هو العدل الرباني والقسطاس القرآني المستقيم

كما أن هناك من هم بالدين متاجرين فهناك من لا يقبل ذلك ولا يشتري بآيات الله ثمنًا قليلًا

هم أيضًا يتجارون لكن تجارتهم مختلفة تمامًا

إنها تجارة مع الله

تجارة لن تبور

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرۡجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾

هؤلاء موجودون وكذلك الآخرون المنتفعون المستغلون

لا ينفي وجود هؤلاء ولا يُساء الظن دومًا بأولئك

فقط يتبين المرء ويحذر من تجارة الدين والمتاجرين بالدين ولا يتساق في الوقت نفسه خلف تلك الفوبيا

فوبيا التجارة بالدين

❀ ❀ ❀

والقاعدة الثابتة أن العلم إن صح استقراره في النفس فأصلح الروح وهُدِي به القلب واستقامت به الجوارح فإن صاحبه لا يعلق الناس به ولكن بمصدر هذا العلم وأصله

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ

﴿عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

هؤلاء رغم أنهم بلغوا أعلىٰ درجات العلم والصلاح وهي النبوة ومعها الكتاب والحكم فإنهم ما وجهوا أنظار الناس إليهم ولا علقوا قلوب الخلق بهم

﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾

لقد دعوا الناس للربانية المتجردة وعلقوهم بالله وحده لا بذواتهم

فما بال أقوام لم يؤتوا نبوة ولم يتنزل عليهم الوحي بكتاب أو حكمة قد فتنتهم الأضواء وغرتهم بعض المعلومات لا تبلغ معشار معشار ما لدىٰ الأنبياء، ورغم ذلك أصروا علىٰ صرف وجوه الأتباع إليهم غرسوا فيها اتباعًا أعمىٰ لشخوصهم وراياتهم وحكموا عليهم بما يشبه العبادة التي لا يكاد ينقصها إلا ركوع وسجود

ما بالهم لم يتعلموا من مورثيهم شيئًا من أهم خصالهم

التواضع

والتجرد

❀ ❀ ❀

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾

الخطاب رغم أنه هاهنا لأهل الكتاب إلا أن هناك قاعدة عامة محكمة يمكن استخلاصها منه وما أحوجنا جميعًا إليها

﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾

لماذا يجترئ إنسان علىٰ الخوض فيما لا يعلم والتورط فيما لا يُحسن

وليس هذا فحسب ولكنه ينافح ويجادل ويحاجج فيه

إنه دأب الحمقىٰ في كل زمان ومنهج المتشبع بما لم يعطه في كل وقت ومكان

يتصدر للحديث فيما لا يعلم والجدال فيما لا يدرك، فإن أَبَىٰ أن يفعل دفعه الخلق دفعًا لذلك ويكأنه علامة الزمان وفقيه الوقت والأوان الذي لا يصح إذا لم يعلم أن يسكت

فقط يسكت

ويقول لا أعلم

يقولها في الدنيا أفضل كثيرًا من قولها في الآخرة إذا سُئل نفس السؤال

﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾

❀ ❀ ❀

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

القرآن يعلمنا من خلال هذه الآية قليلة الكلمات عميقة المعنىٰ منهجًا بديعًا، يظن البعض أن غير مطروح عند الجدال والمناظرة

إنه المنطق العقلاني البسيط والواضح المحكم في الوقت نفسه

خطاب منطقي بديهي يطرق أبواب العقل بشكل هادئ وحازم سائلًا إيَّاه من خلال ضرب المثل العقلي الذي يلمس مشتركات معلومة لدىٰ الجميع

آدم عليه السلام الذي تعترفون مثلنا أنه قد جاء بغير أب ولا أم

فقط بكلمة كن

فكان

ما الفارق بينه وبين المسيح عليه السلام الذي جاء إلىٰ الدنيا بغير أب؟

لماذا أُلِّه الأخير ولم يؤله الأول؟

لا يشترط طبعًا أن ينحصر الجدال في نفس الحجة العقلية لا غير ولكن الإشارة واضحة

إنه خطاب المنطق وتحديث الناس بما يعرفون ويفهمون وضرب المثل لطرق أبواب العقل بكل سبيل لا يحمل تنازلًا أو مداهنةً

❀ ❀ ❀

وفي آل عمران جملتان جامعتان توضحان منهاجًا مهمًّا في حياة طالب الإنصاف

أما الأولىٰ فهي:

﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾

وأما الثانية فهي:

﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾

منهج التفصيل وعدم الانسياق خلف شهوة التعميم المطلق الذي يضع كل المخالفين في سلة واحدة والنظر إليهم جميعًا بنظرة أحادية البعد لا تستطيع أن تميز في معاملة أو سلوك

ولا شك أن الدمج والخلط أيسر لكنه ليس بسبيل المنصفين

أولئك الذين الذين يحرصون دومًا علىٰ التفصيل بمنهج ﴿وَمِنۡهُمۡ﴾ و﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾

❀ ❀ ❀

ورفض النصح من خلال التحجج بعدم الاحتياج والإعراض عن الناصحين والداعين إلىٰ الخير عن طريق الادعاء بأن المدعو ليس مفتقرًا إلىٰ التذكير ولا محتاجًا إلىٰ التواصي والنصح هي ليست مسألة جديدة ولا سلوك مبتكر لأهل الباطل

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾

فحقيقة توليهم هو الإعراض ورفض الحق وإن غلفوا ذلك بصيحات رفض المزايدة وادعاء الاكتفاء الذاتي والذي هو في حقيقته أيضًا نوع من تزكية النفس والتقول علىٰ الله

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ﴾

ومن أدراكم

؟!

وأي عهد ذلك الذي اتخذتموه عند ربكم جعلكم أغنياء النصح مستعلين علىٰ الذكرىٰ التي تنفع المؤمنين

إنه الغرور والاغترار

بل هو الافتراء والتألي

﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

هو ذاته في كل زمان ومكان

❁ ❁ ❁

وحب الشهوات وتزينها في أعين الناس مسألة تكاد تكون عامة لا يخلو منها إنسان طبيعي

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾

والشرع لم يأت مُصادمًا لها من جذورها أو مانعًا لوجودها بشكل مطلق ولكن جاء ضابطًا لها ومُعينًا للإنسان علىٰ التحكم فيها وأداء حقها

والأهم أن يضبط توصيفها وأن ينظر لها نظرة صحيحة ويعطيها قيمتها الحقيقية

إن كل ذلك مجرد زينة

ومتاع

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

والمتاع هو ما يستعمله المرء لفترة مؤقتة ثم يزول الاستمتاع به بعد انقضاء هذه الفترة طالت أو قصرت

هكذا ينبغي أن تكون النظرة لكل ذلك النعيم الدنيوي الزائل حتىٰ لا ينجرف الإنسان إلىٰ أن تكون تلك الشهوات غاية رجائه ومنتهىٰ أمله وهدف حياته

إنه مجرد متاع مؤقت

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾

أما الخير الحقيقي والمتعة الخالصة التي ينبغي أن يعلق قلبه بها

﴿۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾

بذلك الميزان تنضبط النظرة ويصح التصور وتستقيم مسيرة الإنسان في ظلال تلك الزينة المبهرة من الشهوات . .

والمتاع

❁ ❁ ❁

ومن ذاق نعمة الهداية وتشرب قلبه حلاوة الإيمان وانتشت روحه بروعة القرب من الله فسمت نفسه برحمات الاصطفاء والصلة بالسماء لم يعدل بتلك النعم شيئًا وكانت أسمىٰ أمانيه ألا تفارقه تلك الرحمات وألا يزيغ قلبه عن تلك المشاعر والقربات فدعا من أعماق نفسه قائلًا : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾

❁ ❁ ❁

ولقد بيَّن ربنا في سورة آل عمران أن أحد أهم أسباب الخلاف وأخطرها هو البغي

ورغم ما أُوتيَ الأحبار من علم إلا أن الخلاف قد وقع بينهم بسبب هذا البغي في الأساس

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾

حتىٰ مع وجود العلم حدث الخلاف

ذلك لأن العلم وحده لا يكفي لإصلاح واقع المرء بل ينبغي أن تعضده الخشية ويؤازره الصلاح وترسخ مآلاته الأخلاق الحسنة من تجرد وإنصاف وعدل

من هنا ينبغي أن يتنبه المختلفون دومًا ويراجعوا نياتهم باستمرار وليسألوا أنفسهم من آنٍ إلىٰ آخر:

لماذا نختلف؟

وهل تسرب البغي وتسللت الآثام والأحقاد إلىٰ قلوبنا؟

هل هو اختلاف حقيقي أم شابته حظوظ النفس والانتصار للذات والاستعلاء بها؟

أم أنه التناصح والرغبة في الوصول إلىٰ الحق بتجرد وإقساط وصدف؟

فإن كانت الأخيرة وكان الاختلاف طلبًا للحق وتناصحًا لله، وصدعًا بالحق الذي يدين به المرء وصحت النوايا واجتنب البغي والظلم، فالظن بالله أن يهدي المختلفين إلىٰ ذلك الحق وأن يجتمعوا يومًا علىٰ كلمة سواء

لكن إياكم والبغي

❁ ❁ ❁

ومن أظهر الأدلة علىٰ قيمة الآمرين بالعدل والناصحين بالقسط والصادعين بالحق من الناس ومن أوضح الإشارات لخطورتهم علىٰ أهل

الباطل هو ذلك الاقتران بينهم وبين النبيين عليهم السلام في قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

لم يتحمل الظالمون سماع أصواتهم ولم يطيقوا أمرهم بالعدل ونهيهم عن البغي فكتموا أفواههم وألحقوهم بمورثيهم وقدواتهم وذلك دأبهم مع هذا الصنف في كل زمان ومكان فبشرهم بعذاب أليم

❁ ❁ ❁

حين أراد الله أن يذكر عباده المؤمنين بنعمة ومنة امتنَّ عليهم بها اختار أن يذكرهم بنعمة تآلف القلوب والأخوة الإيمانية فقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾

فتأمل كيف تكرر لفظ النعمة مرتين في الآية، وتدبر ما فيه من دلالة علىٰ تلك القيمة التي زهد فيها الزاهدون وتولىٰ عنها المسلمون إلا من رحمهم الله وألف بين قلوبهم وأذاقهم تلك النعمة

نعمة الأخوة الإيمانية

❁ ❁ ❁

وفي إطار التحذير من الافتتان في الدين والوقوع في الشبهات بيَّن اللهُ في سورة آل عمران الوسائل المثلىٰ للنجاة من تلك الفتن وسبل الثبات علىٰ العقيدة السليمة.

❁ فالقرآن والسنة أهم أسلحة المسلم أمام هذه الحرب الفكرية: ﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ﴾.

* وتقوىٰ الله حق التقوىٰ هي جهاز المناعة للمسلم، وببركة هذه التقوىٰ يقيه الله شر الفتن ويحجبها عنه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

* والاعتصام بالله ولزوم الجماعة المسلمة والأخوة الإيمانية من الوسائل الناجعة التي تعين علىٰ الثبات في وجه أمواج الإضلال:

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾.

وقوله: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

* والدعوة إلىٰ الخير ووجود الدعاة والمصلحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر من أهم خطوط الدفاع أمام حرب الشبهات التي دار حولها ذلك الجزء من سورة آل عمران،

ويظهر ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

وبعد المصائب أو الهزائم يتفاوت رد الفعل علىٰ قدر الدين وصلابته في نفوس الناس

فتجد رد فعل أهل التقوىٰ والإيمان يختلف عن رد فعل رقيقي الديانة ممن لا يحملون رسالة ولا ينشغلون بهموم أمتهم

وإن كثيرًا من الناس قد يصيبهم شك بعد المصائب الكبرىٰ والهزائم

الثقيلة ويكون أول ما يتبادر إلىٰ أذهانهم سؤال رئيسىٰ: ماذا حدث ولماذا؟

أما أهل التقوىٰ والدين وحملة رسالته ممن يحملون همَّه علىٰ عواتقهم فتصيبهم مشاعر مختلفة وتطرأ عليهم ردود فعل مغايرة

تجد شعورًا بالحزن والأسىٰ النابع عن هموم الأمة التي تنوء بها عواتقهم وتجيش بها صدورهم

وشعور بالرغبة في التغيير ومعرفة الخلل لإصلاحه

فنجد في آل عمران تلك الآية الجامعة التي تخاطب تلك الانعكاسات الناتجة عن المصيبة التي نزلت بالمسلمين يوم أحد

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾

فتأمل هنا:

١- البيان: وهو هنا للناس بعمومهم ويشمل ذلك الجميع ممن لم يفهموا ما حدث ويحتاجون لوضوح في الرؤية ومعرفة الحكمة كي لا يُفتنوا عن دينهم.

بينما خُصَّ المتقون بأمرين مختلفين وهما:

٢- الهدىٰ: أىٰ التوجيه والإرشاد لهؤلاء الإيجابيين الذين يريدون الإصلاح والتغيير.

٣- الموعظة: وفيها الرفق والمواساة لأولئك المحزونين الذين تتفطر قلوبهم كمدًا لما لحق بأمتهم.

لاحظ مرة أخرىٰ أن النوعين الأخيرين جعلهما الله للصنف الذي ميَّزه عن عموم الناس بلفظ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾

وتنتظم جل الآيات التي تتعلق بغزوة أحد في السورة تحت نوع من هذه الثلاثة

إما بيان للناس

وإما هدىٰ وإما موعظة للمتقين

❁ ❁ ❁

والقلب الذي تشرب العلم بالله ومعرفة أسمائه وصفاته ونعمه وآلائه لا يحتمل أن يمكث طويلًا تحت وطأة المعاصي أو يطول عليه الأمد في رجس الخطيئة فما أن يُذَكَّر بمولاه حتىٰ يسارع للاستغفار والتوبة والأوبة إلىٰ رحابه؛ لأنه يعلم جيدًا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾، وأنه لا يغفر الذنوب إلا هو

فيكون ممن قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

إذا أخطأت أو أسأت أو عصيت فهذا مفهوم بحكم كونك بشرًا لست بمعصومٍ ومن ثَم فالخطأ وارد والمعصية محتملة لكن الفارق بين الفاجر والمؤمن العاصىٰ يكمُن في إصرار الأول ومجاهرته ودفاعه عن معصيته وبحثه عن المعاذير المسوغة لها واستكباره علىٰ الناصحين ورفضه لنصحهم بعد أن تأخذه العزة بالإثم

بينما يظهر التواضع والصدق في ندم الثاني واعترافه بذنبه وتوبته عن

تفريطه في حق الله وحق العباد وعدم مكابرته إذا أخطأ وعدم اتهامه للناصحين بالترصد والجفاء وأحسن القول قول ربىٰ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾

❁ ❁ ❁

دماء طاهرة زكية تلك التي سالت علىٰ وجهه

سالت من تلك الرباعية المكسورة في فم طالما كان يلهج بذكر مولاه والدعوة إلىٰ سبيل رضاه

اختلطت تلك الدماء بدماء ذلك الجرح الغائر الذي غرست فيه حلقات المغفر المعدني الذي يرتديه

بيده الشريفة مسح الدماء عن وجهه

لم يرجف قلبه لمنظر الدماء ولا ارتعدت نفسه خوفًا علىٰ مصيره ولم يشغله مآل تلك الجروح النازفة

شيء آخر ذاك الذي كان يشغله في تلك اللحظة

شيء يُعد فرعًا لمشاعر الحرص التي بلغت درجة كادت تذبحه وفيها وجهه ربه قائلًا : ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾

ولعل تلك المشاعر اختلطت بحزن أسيف وهو يشهد مقابلة دعوته بذلك البغي ومجازاة حرصه بهذا النكران العنيف

- كيفَ يُفلِحُ قومٌ خضَّبوا وجهَ نبيِّهِم بالدَّمِ وَهوَ يَدعوهم إلىٰ اللَّهِ؟!

- كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وأدموا وجهه وهو

يدعوهم إلىٰ ربهم؟!

هكذا تساءل في عجب

هل يفلح أُناس واجهوا الإحسان بالجحود والنكران وقابلوا دعوة الرحمن بالسيف والسنان؟؟!

سؤال منطقي وطبيعي في مواجهة تلك الجرائم الشنيعة التي اقترفوها في حقه بأبي هو وأمي

لكن الإجابة كانت درسًا لا يُنسىٰ

درسًا لكل صاحب رسالة ولكل من تحمل تكاليف البلاغ وواجهته المصاعب والأهوال في ذلك السبيل

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾

هكذا قضىٰ الملك

وهكذا بيَّن وحكم

ليس لك من الأمر شيء

لست أنت من ستقضي في مصيرهم أو تعلم مآلهم

نعم هم ظالمون معتدون

هم مجرمون لدماء نبيهم سفاكون

لكن ما يدريك لعل الله يتوب عليهم

يا إلهي!!

مع كل هذا الجرم الذي اقترفوه وتأتي تلك الكلمة

يتوب عليهم؟!!

بعد أن قتلوا سبعين من صناديد الصحابة وأدموا وجه سيد ولد آدم وآذوه

نعم إذا شاء الله

ولعله يعذبهم

هذا في علمه ومن شأنه

لست أنت -علىٰ قدرك ومنزلتك- من ستحكم في أمرهم أو تفصل في مآل مصيرهم

حقك في الدنيا محفوظ وإن لصاحب الحق مقالًا

وظلمهم متقرر معلوم وقد بيَّنه الله في غير موضع

لكن يبقىٰ المصير بيده لا بيدك

ويظل في النهاية البلاغ مهمتك والهداية بغيتك والقاعدة ماثلة أمام عينيك لا تتغير ولا تتبدل

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾

❀ ❀ ❀

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾

فمداولة الأيام بين الناس سُنَّةً كونيَّةً لا تتبدل ودوام الحال من المحال وقد ذكرت حكم كثيرة لتلك المداولة في آل عمران منها التمحيص واختبار الصدق واتخاذ الشهداء لكن مع كل تلك الحكم ومع التداول الذي تنتقل به الأحداث من النقيض إلىٰ النقيض ويعلو فيه أحيانًا أهل الجور والبغي والإفساد تظل القاعدة التي لا تتبدل ولا تتغير وينبغي أن تظل ماثلة أمام عين

الموحدين راسخةً في صدورهم

قاعدة ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

❁ ❁ ❁

ورغم عظم البلاء وفداحة المصاب؛ إلا أن المتبقين من الربيين ثبتوا وتجلدوا ولم يهتزوا أو ينقلبوا كما حذَّر الله في سورة آل عمران: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ﴾ . .

لم يتدرج الربيون في مهاوي العجز، ولم يتردوا في هاوية الاستكانة

هاوية أول دركاتها الوهن

و ما أدراك ما الوهن

الوهن هو بداية ضعف القلب وتصدع بنيان الثوابت واختلال المبادئ والقيم،

الوهن هو حب الدنيا والتعلق بأهدابها جنبًا إلىٰ جنب مع كراهة الموت

لقد أدرك الربيون خطورة تلك الدركة علىٰ سلم الفشل فلم يطئوها كما وطئها للأسف كثير من الخلق ممن استدرجوا، الوهن: الإحباط والتأثر بأذىٰ متوقع؛ قال عنه مولاهم في نفس السورة: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ .

لم يهن الربيون وبالتالي لم ينحدروا لما بعد الوهن وهو الضعف الظاهر وبداية العجز الذي يؤدي آخر المطاف إلىٰ الشلل الكامل، وهو ما سمَّاه الله بالاستكانة وهي الاستسلام والخضوع والذلة أمام ضربات العدو المتوالية:

﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

لقد استعاضوا عن دركات سلم الفشل والاستسلام بأجنحة الصبر، وتمسكوا بحبال الأمل رغم كل الصعاب والمصائب التي ألمت بهم وبأنبيائهم، ولم يخفهم في ذاك الوقت إلا أمر واحد؛

ذنوبهم!!

أَلِهؤلاء الربيون ذنوب؟!!

بالطبع؛

أوليسوا بشرًا يخطئون ويصيبون؟!

بلىٰ،

لكن الفارق بين الربيين وبين الغافلين أن الأولين قد علموا أن ذنوبهم خطر يتهددهم ويتهدد أمتهم، بينما نظر الآخرون إلىٰ ذنوبهم كأنما هي بعوض حط علىٰ وجوههم أشاحوا بأيديهم فأزاحوه!

لم تشغلهم قعقات المعركة ولا صليل السيوف عن الدعاء والاستغفار؛ لأنهم يعلمون أن وقع الذنوب والمعاصي علىٰ جيوشهم وجماعاتهم المؤمنة قد يكون أشد وأنكىٰ وأفتك مما تفعله أعتىٰ الأسلحة!

لم يتجاهلوا ذلك المبدأ الإسلامي ولم يفعلوا كمن أهمله ولم يرفع به رأسًا، وذهب يبحث عن نصره -فقط- بين ظلال الأسباب المادية، غير مُبالٍ بذنب يقترف ولا مكترثٍ بخطيئة ترتكب، ولا ملتفتٍ إلىٰ معاصٍ تُجتَرح.

لقد فهم الربيون ذلك المعنىٰ وعلموا خطورة الذنب فجعلوا يدعون

ويبتهلون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

فلما جمعوا ما بين الثبات والصمود والأخذ بأسباب القوة والعزيمة وبين خشية الله والتضرع إليه والاعتراف بين يديه بالذنب والإسراف واستغفروا وأنابوا، ثم استنصروا واستفتحوا؛ حل النصر من الإله وجاءت البشرىٰ:

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾،

فثواب الدنيا النصر والعزة، وحسن ثواب الآخرة في الجنان، فضلًا من الله ونعمة، وميز ثواب الآخرة بالحسن لما فيه من تفاوت عظيم في الدرجات لا يدانيه تفاوت درجات الدنيا

قال الله تعالي: ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ . .

جاء النصر وهلت البشارة لما وجدت هذه الطائفة الربانية،

لما وجد في الأمة من لديه هذا المزيج الفريد من الثبات والصمود والإخبات والخشية،

إنه مزيج الربيين الذين استحقوا تنزل النصر المبين

❁ ❁ ❁

ولماذا محمد؟!

لماذا كان هذا الارتباط وترسخت تلك الصلة وتغلغلت في النفوس تلك المشاعر تجاهه

ما الشيٰء الذي رآه زيد وجعله يختار محمدًا علىٰ أبيه وأهله

ما الذي جعل الصديق يفتديه بنفسه وخبيب لا يقبل أن يُشاك حبيبه بشوكة وهو آمن في بيته

ما الذي دفع المرأة أن تقدم السؤال عنه علىٰ سؤالها عن ولدها وأبيها وأخيها وزوجها

ما الذي رآه هؤلاء وأولئك وغيرهم؟!

ما الذي جمعهم حوله بهذه الصورة البديعة والارتباط الراسخ

يجيبك المولىٰ جل وعلا ويبين لك السر الذي أدَّىٰ لهذا الاجتماع المذهل والارتباط الوثيق

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾

تأمل مرة أخرىٰ

أربع صفات أخلاقية سلوكية حوتهم هذه الآية

صفتان منهما ليس النبي من أهلهما وصفتان بعث بهما

لقد بعث بالرحمة وأرسل باللين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

ولقد تنزَّه عن الفظاظة والغلظة

ولو اتصف بتلكما الصفتين الأخيرتين فبنص الآية المحكمة الواضحة لانفضَّ الناس من حوله

لنقض هذا الاجتماع الوثيق

لانهار ذلك الرباط القوي المتين

ولتفرَّق الناس وانفضوا من حوله

لقد عاشوا معه ورأوا من صفاته وسلوكه ومكارم أخلاق بعث ليتممها ما غرس محبته في قلوبهم ومكن لتوقيره في نفوسهم.

سورة النساء

العدل المطلق . .

تلك القيمة العظيمة التي تؤصل لها سورة النساء وترسخها في الوجدان المسلم.

العدل مع الجميع وبين الجميع وعلىٰ الجميع.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾

الملاحظ في الآية أن الأمر بالعدل قد جُعل بين الناس عامة ولم يخص المولىٰ ﷻ بهذا العدل المؤمنين أو المتقين ولم يجعله حكرًا علىٰ طائفة أو عرق أو لون

ولكن بين الناس . .

كل الناس . .

لقد عمم العدل علىٰ الجميع في تلك الآية وعلىٰ هذا مدار السورة في جل مواضعها . .

وقد أصَّلت سورة النساء لمبدأ العدل المطلق مع الكل حتىٰ مع أبعد من يتصور العقل القاصر أن يعدل معهم ضرب الله في السورة مثالًا من أروع الأمثلة للعدل معهم وهو العدل مع الأعداء . .

بل حتىٰ مع أشد الناس عداوة للذين آمنوا وهم اليهود . .

فتجد في السورة مشهدًا مبهرًا مهيبًا من العدل الكامل معهم والإقساط إليهم كما سيأتي إن شاء الله . .

❁ ❁ ❁

وما دام أمر السرقة سيفتضح لا محالة فلنجعل الدرع المسروق في بيت ذلك اليهودي وليدفع هو ثمن جريمة ملفقة لم يرتكبها

ولم لا؟

وماذا في هذا؟!

وفيها إيه يعني؟!

وهل لليهودي ديَّة في المجتمع المسلم وقد ثبتت خيانات بني ملته مرارًا وتكرارًا؟

فليقيد الحادث إذًا ضد يهودي وليخرج الأنصاري سليمًا معافىٰ

ويا دار ما دخلك شر!

هكذا ظن بشير بن أبيرق

ذلك الرجل شريف النسب عريق الحسب

هكذا ظن . .

وهكذا يظن البعض ويحسبون أنه لا دية ولا كرامة ولا حقوق تستحقها الطائفة التي تُعادىٰ أو تُبغض، لكن الله لم يرض بهذا

ولم يترك بريئًا يحاسب بذنب لم يرتكبه حتىٰ لو كان هذا البريء يهوديًّا

رغم كل خيانات اليهود للنبي ﷺ ولأصحابه ورغم تآمرهم علىٰ الدولة الوليدة في المدينة النبوية؛ إلا الله جل وعلا لم يرضَ بأن ينزع عنهم ذلك الحق فلا يعاملون بتلك القيمة.

قيمة العدل والإنصاف.

إن المرء ليقف مشدوهًا ذاهلًا أمام ذلك الموقف القرآني العجيب الذي كان أحد أطرافه رجلًا من يهود وآخر من كبرىٰ عائلات الأنصار

لقد وقع ذلك الأنصاري النسب «بشير بن أبيرق» في خطيئة السرقة واستولىٰ علىٰ درع أحد الصحابة ولما كاد أمره أن يفتضح ألقىٰ بالدرع في دار يهودي يقال له «زيد بن السمين»

وليقيد الحادث ضد يهودي!

فأنزل قرآنًا يبرئ به ساحة اليهودي ويدين «الأوسي» الذي خان وذلك في آيات كريمات من سورة النساء خُتمت بتلك القاعدة القرآنية الخالدة: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

قاعدة تقطع بأن دين الله لا يُقبل فيه تعميم عقاب أو نزع حقوق المرء بسبب كراهية أو اختلاف أو حتىٰ عداوة

بل إن أشد الناس عداوة لا يحاسب إلا علىٰ ما اقترفته يداه وأنه مهما كان البغض والشنآن فإن ذلك ليس أبدًا مبررًا للظلم والبهتان وسهولة رمي الخلق لمجرد العداوة بكل عيب ونقصان

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾.

العجيب أن الله اختار أن يكون بيان البراءة بنص قرآني وقد كان من

الممكن ان يتم الأمر بتوجيه للنبي ﷺ وينتهي الأمر، لكن الله أبىٰ إلا أن تكون قاعدة عامة وأصلًا ثابتًا ما أحوجنا إليه خاصة في هذه الأيام

ورغم أن الجرم يتضاعف والإساءة تعظم حين يكون البهتان والظلم الذي افتراه الإنسان في حق غيره بشيء هو من فعله وجرم قد اقترفه وذنب هو من جناه فيرميه بما فيه ويتهمه بما اقترفته يداه فلا هو اكتفىٰ بمعصيته ولا هو قصر أذاه عن غيره ولكنه أضاف إلىٰ اعتدائه بهتانًا وظلمًا أصاب به بريئًا.

إلا أن الأمر لم يكن مجرد تبرأة بريء ولكنه كان إقامة لميزان حق وعدل لا يميل مع الحب والبغض ولا يتأرجح مع الهوىٰ أو العصبية.

ميزان مستقيم لا تميله آفات وعوامل الضعف الإنساني . .

ميزان مقسط لا تطففه مصالح شخصية أو انتماءات حزبية أو أهواء قبلية . .

ميزان متجرد لا تفسده أحقاد أو ضغائن أو عداوات حتىٰ لو كانت بمثل هذه الطبيعة العقدية بين المسلمين واليهود . .

وحتىٰ لو كان الذي عليه الحق من أقرب الناس فلا بد من العدل معه . .

نعم حتىٰ لو كان أقرب الناس نسبًا أو مودة . .

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾.

ولقد وعىٰ النبي ﷺ هذا المعنىٰ القرآني جيدًا وعلمه للأمة جليًّا بيِّنًا في قوله: (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها).

نعم والله وتالله وبالله . .

بمثل هذا تستقيم الدنيا وبمن يصدعون بذلك وينهون عن ضده تعلو الأمم وترتقي

. .

بميزان الحق والعدل والإنصاف مع الجميع وليس بالشنآن والبهتان والرمي المطلق بكل عيب ونقصان واستسهال أن يقيد الحادث دائمًا ضد فلان الذي أكره أو علان الذي أعادي، وأنسىٰ أن فلانًا وعلانًا هذا في النهاية هو إنسان . .

ولو كان يهوديًّا . .

❁ ❁ ❁

ولقد تحرك نبيٌ وعبد صالح وقيل نبيان -بحسب القول بأن الخضر نبي- وقيل ثلاثة أنبياء بحسب القول بأن فتىٰ موسىٰ هو يوشع بن نون

تحركوا جميعًا لبناء جدار يكاد أن يتهدم يمتلكه يتيمان لم يبلغا أشدهما ولم يتمكنا بعد من استخراج كنزهما المدخر

لماذا تحرك هذا الجمع الكريم وقام معلمهم بهذا الفعل وهم يشهدون دون أجر دنيوي؟!

الجواب: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا﴾

فتأمل يرحمك الله قيمة الصلاح وكيف يجعل للمرء كرامة ومنزلة عند ربه تجعله يوجه بعضا من خلقه -بل هاهنا بعضًا من خير خلقه- لحفظ ونفع من يحب

تأمل قيمة موسىٰ والخضر عند الله لتعلم قيمة هذا العبد الصالح الذي تحرك موسىٰ والخضر عليهما السلام لحفظ حق أبنائه ودون أجر أو مثوبة من البشر فقط كان أبوهما صالحًا . .

تأمل وتذكر قول ربك في سورة النساء:

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾

❀ ❀ ❀

وليس الإيمان بمجرد الزعم أو الادعاء، فلقد جعل الله في سورة النساء علامات تعرف بها صدق الزعم من عدمه منها إصرار أولئك الزاعمين الكذابين علىٰ أن يتحاكموا إلىٰ الطاغوت رافضين شرع الله معرضين عنه رغم ادعائهم أنهم مؤمنون

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾

وجعل الله من خصائصهم التي تفضح حقيقة نفاقهم وكذب ادعائهم أنهم إذا دعوا إلىٰ ما أنزل الله نفروا عنه بل ونفَّروا الخلق وصدوهم عنه

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾

ثم يأتون عند الحاجة وبعد الكرب الذي أصابهم بما قدمت أيديهم محملين بمزاعمهم وادعاءاتهم من جديد مكللين إياها بالحلف الكاذب أنهم

ما كانوا يريدون إلا خيرًا بصدهم عما أنزل الله

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾

وفي هؤلاء الكذابين يقول الحق جل شأنه:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾

❁ ❁ ❁

وينكر البعض بكل حماس وجود طائفة تريد للأمة أن تتبع الشهوات وأن تميل ميلًا عظيمًا وأن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ويسفهون بكل قسوة ممن يحذر الخلق من تلك الطائفة وكأنه يدعي شيئًا أسطوريًّا غير موجود

ولو أنهم تدبروا كتاب ربهم لوجدوا بيانه القطعي عن تلك الطائفة المضلة التي تريد للمؤمنين الميل معها وتسعىٰ بقوة لتمرغهم إلىٰ جوارها في أوحال الفساد ومن أصدق من الله حديثًا وهو القائل: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾

❁ ❁ ❁

وهدفهم ليس فقط أن تميل وتزل

وغايتهم ليست مجرد الوقوع في أمر يحتمل خلافًا

هدفهم الذي أخبرك به الله -ومن أصدق من الله حديثًا- هو الميل العظيم

مرادهم وغايتهم الحقيقية أن تميل ﴿مَيۡلًا عَظِيمًا﴾

دعهم ينكرون كما يشاءون ودعهم يتجملون ويكذبون ويدلسون ويزعمون أنهم وسطيون وعلىٰ مصلحتك حريصون

مهما قالوا ومهما ادعوا فإن القول الفصل قول ربك ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾

هذا هو الاقتران وتلك هي المزاوجة التي لا تنفصل عند أولئك المفسدين

اتباع شهوات

ورغبة في إمالة الخلق

وتذكر ليس مجرد ميل

بل ﴿مَيۡلًا عَظِيمًا﴾

❁ ❁ ❁

وإن من النفوس ما هو هش أقل شيء يكسره وأهون ابتلاء يزلزل أركانه وأي معصية أو غلطة تدمره وكأنه يتأرجح علىٰ حافة السقوط منتظرًا دفعة يسيرة ليقع بعدها ويتهشم ثم يتردىٰ مهزومًا أمام تلك المؤثرات بضعف منقطع النظير يليه تبرير شهير مفاده الشيطان شاطر وشرير

والحقيقة أن هذا غير صحيح علىٰ الإطلاق ويفترض بمسلم يقرأ القرآن أن تطيش مثل تلك الشبهة ويتلاشىٰ ذلك التعظيم الخفي تمامًا من قلبه خصوصًا حين يتلو قول ربه في سورة النساء ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾

تلك هي الحقيقة التي يعلنها الشيطان نفسه في خطبته بجهنم عافانا الله

وإياكم من سماعها ويقول فيها مبينا مدىٰ ما يستطيعه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾

مجرد دعوة

وسوسة لا تجاوز الصدور

فحين تتعوذ بالله من الشيطان ممتثلا أمر ربك تعوذ وكُلُّك يقين في أنك قادر بفضل الله علىٰ دحره والنجاة من كيده الذي بين له ربك أنه في حقيقته ومنتهاه ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾

❀ ❀ ❀

ولكن كما أن كيد الشيطان كان ضعيفًا كما بينا في الخاطرة التدبرية السابقة فإن الله قد بين أيضًا في نفس السورة أن الإنسان خُلق ضعيفًا كما يظهر في قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾

فضعف الإنسان الجبلي في مواجهة كيد الشيطان -الضعيف أيضًا- قد يورث تسلط الأخير

إلا أن من رحمة الله بالإنسان أن جعل له ركنًا شديدًا يأوي إليه وملاذًا عظيمًا يتحصن به وهو ملاذ الذكر والتعوذ بالقوي العزيز

ومن دون ذلك التحصن والالتجاء إلىٰ جنب الله قد يصير أقوىٰ الأقوياء فريسة سهلة لعدوه الخفي

لذا قيل للعاصي قديمًا: لا تقل العدو تسلط ولكن قل الحافظ أعرض

ألا فتقوَّ بالله والجأ إلىٰ حماه تنجو بإذنه وتنال البأس والجلد الذي يعينك علىٰ اتقاء كيد عدوك ..

الضعيف

❁ ❁ ❁

﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾

منكم؟!

هل هذا الصنف موجود بيننا؟!!

بين المسلمين دون أن يشعروا؟!

نعم

هناك بيننا من يبطئ

ويبطئ هنا علىٰ قولين لأهل التفسير؛ يبطئ نفسه، ويبطئ غيره، والأرجح أن المعنيين تحتملهما الآية الكريمة.

وصاحبنا هذا نموذج للتراخيٰ والتثاقل في نفسه، والتعويق والإثقال لغيره،

كلمنا الله عن تثاقله مرارًا فقال في سورة التوبة محذرًا من فعله: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾،

وكلمنا عن تعويقه لغيره في سورة الأحزاب فقال: ﴿۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾،

إنه نمط بطيء معوَّق في نفسه معوِّق لغيره خطورته علىٰ الأمة تكون أحيانًا أشد من خطورة أعدائها!

لذا قال الله عن أمثاله: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾.

ويا ليت هذا الصنف العاجز المتخاذل اكتفىٰ بعجزه وتكاسله وتخذيل غيره وتعويقهم وغرُب عن عاملىٰ الأمة بوجهه المتراخىٰ ونفسه المثبطة

لكنه للأسف لم يفعل

بل مد عينيه وبدأ يراقب بخسة عجيبة ما سيؤول إليه واقع لم يشارك في صنعه ولم يسهم في بنائه،

فإذا ما وقعت مصيبة كما حدث يوم أحد مثلًا فرح بمقعده خلف المؤمنين، وسرته نجاته وأعجبه تخاذله

وإذا جاء النصر وحان وقت الغنائم سارع إليه متلهفًا وقد سال لعابه علىٰ عرض من الدنيا قليل

وأشد ما يثير التقزز في فرحته أنه نسب ذلك لله جل وعلا، واعتبرها نعمة من عنده فقال: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾!

نكست فطرته وتشوهت نفسيته السلحفائية حتىٰ اعتبر الحرمان من الشهادة في سبيل الله نعمة من الله!!

وتزداد دناءة الرجل السلحفاة ويتجلىٰ قبح نذالته وخسته حينما يتحول الواقع إلىٰ نصر مؤزر بفضل الله فيشهد الغنيمة، وتستشرف نفسه لها، ويسيل لعابه لتحصيلها، فيعد الفوز العظيم فقط في إحراز ثواب الدنيا فيقول: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾!

ألم تكن تقول من قبل أيها السلحفاة أن البعد عنهم غنيمة والنجاة مما أصابهم نعمة وفضل؟!

لماذا صارت الأمنية الآن أن تكون معهم فعددت ذلك فوزًا عظيمًا؟؟

الجواب واضح؛

إنها الدنيا التي لا يشغل بالك إلا هي، ولا تشتهىٰ نفسك إلا متاعها

هذا هو نموذج المتكاسل الذي لا يبتغىٰ إلا الغنيمة السهلة: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ . .

صنف لا يكون معك إلا بعد بدر ينهل من الأنفال أو في فتح مكة لينال من المغانم، ولا يقربك بل يؤذيك ويعوقك في يوم مثل يوم أحد!

هذه النفسية البطيئة والشخصية المتخاذلة من أبشع الآفات التي تهدد الأمة وتفت عضدها

نفسية السلحفاة

❀ ❀ ❀

وأشد الجهالة هي الجهالة بمقام الله والتي إن وُجدت وُجد معها العصيان والاجتراء علىٰ الحرمات

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾

والجهالة هنا ليست مجرد الجهالة بمطلق الأحكام فقد يعذر المسلم بجهله لحكم خفي عنه أو نقص علمه بحرمة حرام أو نكارة منكر منهىٰ عنه

لكن الجهل الأخطر هاهنا هو الجهل بالمقام الإلهىٰ وهو كما قلت سبب الاجتراء والتعدي علىٰ الحرمات مع علم الشخص بحرمتها وعن ذلك شرعت التوبة كما في الآية

وتمام تلك التوبة يكون بإصلاح ذلك الجهل بالله وذلك بالتعلم عنه

وحسن التعرف عليه وتعظيم مقامه في القلب

❁ ❁ ❁

ويتضاعف الجرم وتعظم الإساءة حين يكون البهتان والظلم الذي افتراه الإنسان في حق غيره بشيْء هو من فعله وجرم قد اقترفه وذنب هو من جناه

فيرميه بما فيه ويتهمه بما اقترفته يداه فلا هو اكتفىٰ بمعصيته ولا هو قصر أذاه عن غيره ولكنه أضاف إلىٰ اعتدائه بهتانًا وظلمًا أصاب به بريئًا وفي هذا يقول الله: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾

❁ ❁ ❁

ولأن سورة النساء عنيت في المقام الأول بحقوق المستضعفين والعدل معهم ونصرتهم نجد فيها تلك الآية التي زيد فيها مقصد آخر للجهاد إلىٰ جوار المقصد الأصيل الذي تعودنا عليه في أغلب مواضع القرآن وهو الجهاد لنصرة دين الله

هذا المقصد الآخر الذي برز في تلك السورة هو نصرة المستضعفين الذين لا يستطيعون جلب حقوقهم ولا يملكون الدفع عن أنفسهم

تلك الآية هي:

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾

سورة المائدة

وكلما أحكمت الحجة كان التفلُّت بعدها وجحودها أعظم جرمًا وأشد وطأةً

وإن عِظَم العطية يتبعه تعاظم المسئولية

يظهر ذلك بوضوح في واقعة المائدة التي طلبها الحواريون من المسيح عليه السلام

لقد كان الطلب جريئًا ولقد تحرَّج منه المسيح في أول الأمر فهم قد رأوا معه الآيات البينات والمعجزات الباهرات ثم يطلبون مائدة مباشرة من السماء بعد كل ما رأوه!!

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

لكنهم أصرُّوا

﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

فليكن إذن

ستأتيكم الآية التي تطلبون

وستُقام عليكم الحجة التي عنها تبحثون

ستتنزل عليكم مائدة من السماء

ولتكن لكم آية بنزولها عليكم من السماء ولتطمئن بها قلوبكم ولترونها رأي العين.

ثم ليأتي الميثاق وليرفق معه الشرط الجزائي

لكن مسئولية العلم مختلفة

وعقوبة من انتهكه بعد اليقين مغايرة

فليس من رأىٰ كمن سمع

وليس الخبر كالمعاينة

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

❀ ❀ ❀

ومعيار الحكم علىٰ الأشياء لم يكن أبدًا في القرآن مرتبطًا بالكم أو الكثرة

ولقد جرت العادة أن الكثرة تبهر الأعين وتعجب بعض السطحيين من الخلق الذين يقيمون الأمور بظاهرها وحسب

لكن يبقىٰ المعيار الأصيل الذي يرسخه القرآن بشكل مطرد ثابت هو معيار الحق والباطل والطيب والخبيث

﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾

هذا هو معيار الحكم علىٰ الأشياء

فلا يستوي الحق والباطل ولا يذوب الفارق بين الخبيث والطيب فقط؛ لأن الباطل كثير أو الخبيث منتشر بل يظل القبيح قبيحًا وإن كَثُر ويبقىٰ الخبيث خبيثًا وإن عمَّت به البلوىٰ

لكن من يدرك ذلك هم أولو الألباب ولذا تختم الآية بتوجيه الخطاب لهم وتذكيرهم بتلك المسئولية التي عليه مناط الفلاح

مسئولية التفريق بين الخبيث والطيب

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾

❀ ❀ ❀

ومن معاني البلاء الاختبار بدنو المعصية وسهولة اقترافها وقدرة الإنسان علىٰ انتهاك حرمتها

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾

فحين ترىٰ اقتراب سبل المعصية ويسر ارتكاب الخطايا فلا تنسينك متعتها حقيقتها ولا تغفلنك شهوتها عن عاقبتها وتذكر دومًا أنها ما قربت وسهلت إلا ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

❀ ❀ ❀

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾

إنه التقليد والاتباع الأعمىٰ،

تقليد الأباء والأجداد،

تقليد المجتمع واتباع البيئة المحيطة، دون فهم ولا وعي ولا إدراك، لما عليه هذا المجتمع وتلك البيئة، من جهل وضلال،

هذا التقليد والاتباع الأعمىٰ الذي كان من أكبر الأسباب في صد جموع غفيرة من الناس عن طريق الحق حين لا يتصورون أن يرد جديد عليهم، ولو كان ذاك الجديد هو الحق الذي لا مرية فيه،

لا يتصورون فوات الحق علي ما يتوهمونه نبوغًا لآبائهم وسادتهم وكبرائهم!

نفس لسان حال كثير من الإمعات اليوم، حين يتحججون علىٰ اتباعهم الأعمىٰ بقولهم العامىٰ الشهير: (اللى زي الناس ما يتعبش).

إنه التقليد المقيت الذي هو ضد الإدراك الصحيح المسئول لطبيعة الحق

فالحق حق بذاته لا يحتاج لمن يزكيه أو يزيده بهاءً وسطوعًا وهو ليس بمن يدعونه وليس بمن يزعمون أنهم عليه أو تظن بهم ذلك

الحق يعرف بذاته وليس بالرجال ولا بالآباء والأجداد

لذا جاء الرد الصادم بعد تلك الدعوىٰ التقليدية المقيتة

جاء الرد الصادم ليهدم هذا الوثن من أوثان النفس ولتنجلي الحقيقة نقية دون رتوش

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾،

وقد يسمع الإنسان الكذب دون أن يعلم أنه كذب

وقد يحدث ذلك مرة أو مرات معدودات وهذا لا يكون عليه مذمة لعدم قصده وتحريه لذلك

لكن أن يصر المرء علىٰ سماع الكذب وتصديقه مرة بعد مرة رغم علمه أو علىٰ الأقل غلبة ظنه أنه كذب فيتغافل عن كل شواهد الكذب وسوابق الكذوب الذي يسمع إليه وسالف عهده بالكذب فيصير «سمَّاعا» للكذب - بتشديد الميم- فهاهنا تكون المذمة

حيث شابه حاله بذلك حال اليهود الذين أدمنوا سماع الكذب حتىٰ كرر الله وصفهم بذلك في سورة المائدة مرتين متتاليتين لبيان ما وصلوا إليه من حال الإمعان والإغراق والمبالغة في سماع الباطل

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾

وإذا كان هذا حال المستمع فقط فما بالك بحال الكاذب الذي يستمعون إليه ويصرون علىٰ تصديقه؟!

❀ ❀ ❀

ومعيار النعمة عند الناس يقصر كثيرًا عن معيار النعمة في القرآن حيث لا يرىٰ كثير منهم إلا النعيم المادي الذي تلمسه أيديهم وتحسه جوارحهم بينما يوجه القرآن قلوب الناس إلىٰ آفاق أوسع وأرحب لنعم ذات طبيعة معنوية مختلفة كنعمة الألفة والأخوة في قوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ ونعمة العلم التي ما أمر النبي ﷺ أن يدعو بزيادة إلا منها ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ وغيرها من النعم التي

أعظمها علىٰ الإطلاق نعمة الدين وهي التي نزلت بها الآية الخاتمة المتممة له يوم عرفة من حجة الوداع وفيها بين الله أن هذه هي النعمة وأنها قد تمت باكتمال الوحي فقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾

فالحمد لله علىٰ نعمه كلها حمدًا كثيرًا طيبًا كما يحب ويرضىٰ

❁ ❁ ❁

ورغم وجود نبيين أثناء تلك اللحظات الحاسمة التي أمر الله فيها بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة ومواجهة القوم الجبارين وقعود بني إسرائيل عن ذلك

ورغم أن كثيرًا من الناس سيعلقون هنا مسئولية النصح والبلاغ علىٰ النبيين؛ موسىٰ وهارون عليهما السلام إلا أن رجلين من عوام الناس -علىٰ قول جمهور المفسرين- لم يفعلا

رجلان أنعم الله عليهما بالتقوىٰ والإيمان والفهم الصحيح والعقل الراجح قد استشعرا مسئولية وعلمًا أن عليهما واجبًا تجاه أمتهما رغم وجود موسىٰ وهارون عليهما السلام

لم يحقرا نفسيهما كحال كثير من الناس بل تكلما ونصحا وقالا: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

صحيح أن بني إسرائيل لم يستجيبوا لهما لكن يكفيهما أن ربهم قد ذكرهما وأنعم عليهما وخلد سيرتهما كما فعل مع مؤمن آل فرعون ومع مؤمن

سورة «يس» ومع الناهين عن سوء أصحاب السبت وغيرهم من أهل الإيجابية والصدع بالحق

❁ ❁ ❁

ومما يعجب له المرء حال أولئك الذين يرون الفقر والعَيلة والضيم والاستضعاف في إقامة وحي الله المنزل إليهم وفي تحكيم كتابه المرسل لهم بينما يقول ربهم عن قوم من قبلهم ظنوا مثل ظنهم أنهم لو أقاموا كتبهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ﴾

فما أسوأ ظنهم بالله وما أبعدهم عن فهم آياته وما أضل مسعاهم بحثًا عن رغد وخير هو في الحقيقة بين أيديهم

فقط لو أقاموه

❁ ❁ ❁

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾

إنه التقليد والاتباع الأعمىٰ

تقليد الأباء والأجداد،

تقليد المجتمع واتباع البيئة المحيطة، دون فهم ولا وعىٰ ولا إدراك،

لما عليه هذا المجتمع وتلك البيئة، من جهل وضلال،

هذا التقليد والاتباع الأعمىٰ الذي كان من أكبر الأسباب في صد جموع غفيرة من الناس عن طريق الحق حين لا يتصورون أن يرد جديد عليهم، ولو كان ذاك الجديد هو الحق الذي لا مريَّة فيه،

لا يتصورون فوات الحق علي ما يتوهمونه نبوغًا لآبائهم وسادتهم وكبرائهم!

نفس لسان حال كثير من إمعات اليوم، حين يتحججون علىٰ اتباعهم الأعمىٰ بقولهم العامىٰ الشهير: «اللي زىٰ الناس ما يتعبش».

إنه التقليد المقيت الذي هو ضد الإدراك الصحيح المسئول لطبيعة الحق

فالحق حق بذاته لا يحتاج لمن يزكيه أو يزيده بهاءً وسطوعًا وهو ليس بمن يدعونه وليس بمن يزعمون أنهم عليه أو تظن بهم ذلك

الحق يعرف بذاته وليس بالرجال ولا بالآباء والأجداد

لذا جاء الرد الصادم بعد تلك الدعوىٰ التقليدية المقيتة

جاء الرد الصادم ليهدم هذا الوثن من أوثان النفس ولتنجلي الحقيقة نقية دون رتوش

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾،

❁ ❁ ❁

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

مبدأ حاسم ينبغي أن يفهمه كل مسلم

آية من كتاب ربنا تشرح لنا لماذا ثبت الثابتون رغم وعورة الطريق وقلة السالكين

آية تبين كيف أن القضية ليست في كثرة الموافقين والمؤيدين، ولا في وفرة الداعمين المنافحين،

القضية هي في الحق نفسه

لا يضر المرء إن ضل كثير ممن حوله، ما دام موقنًا أنه علىٰ الحق الذي أمره به ربه:

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾

حتىٰ لو كثر من ضلوا وأعجب الخلق بكثرتهم

يقول الله في نفس السورة ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾

إنه بناء متفرد للشخصية الإسلامية التي لا يقبل صاحبها أن يكون إمعة، مهما كانت الظروف ومهما تزايدت عليه الضغوط.

وكم من أناس حرصوا علىٰ التمسك بالحق، وإظهاره، والسير في طريقه، رغم قلة السالكين، وربما انعدامهم في بعض الأحيان

كم من أناس خاضوا غمار الصعاب وثبتوا عند حلول النوازل، رغم الصعاب التي واجهتهم، ورغم كثرة المخالفين، لكنهم كما قال رسول الله ﷺ عن أمثالهم: «**لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم**».

لذا كانت العبادة في الهرج كالهجرة إلىٰ رسول الله ﷺ،

ذلك لأنه لا يتفرغ لها في هذا الوقت إلا أفراد،

فلما تمايزوا تميزوا.

القضية ليست إذا بالعدد، ولا بالصخب، ولا بمطلق ما عليه الناس من حال،

القضية بالحق، فإذا كان معك؛ تبينته، وتشربه قلبك من معينه، فأنت الجماعة، ولو كنت وحدك!

❁ ❁ ❁

والمفاصلة مآل ومصير لا بد منه ولا محالة من الوصول إليه وفي لحظة البأس ينبغي أن يُنقَّىٰ الصف ويطهر من الفجرة المثبطين المعوقين الذين ما كان لهم من أثر عند لقاء العدو إلا الإثقال والحث علىٰ القعود والإخلاد إلىٰ الأرض فوجبت مفارقتهم وتعينت مجافاتهم ولذا دعا موسىٰ عليه السلام ربه جل وعلا أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين وذلك بعد أن رأىٰ الضرر الرهيب الذي لحق بأمته جراء وجودهم في الصف حتىٰ لو لم يتبق إلا هو وأخوه وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

سورة الأنعام

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾

هكذا ينبغي أن يتواضع الداعي إلىٰ الله فلا يدعي لنفسه ما ليس له ولا يعد الخلق بما لا يملك بل يبين بوضوح أنه لا يأتي بشيء من عنده ولا يدعو إلا إلىٰ الله وحده وليس له من سبيل إلا وحي الله المنزل ولا يتبع إلا منهاجه وطريقه

عندئذ تستقيم النظرة وتتعلق القلوب بمن عنده الخزائن ومن يملك مفاتح الغيب وتتوجه النفوس إلىٰ من بيده وحده نفعها وضرها

❁ ❁ ❁

وأعجل عقوبات الغفلة والنسيان مزيد من الغفلة والنسيان

فتفتح أبواب الملهيات وتتوالىٰ سكرات المنسيات ويظن الغافل أنه قد قدر علىٰ الدنيا وقهر أسبابها فيفرح بها ويتمادىٰ في غيه ويتقلب في سكرته ظنًّا منه أنه في نعيم مقيم ولا يدرك المسكين أنها عقوبة إعراضه وتغافله ونسيانه

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ

أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾

❁ ❁ ❁

ومن أعاجيب الغافلين أن تأتيهم البأساء وتصيبهم الضراء ويمسهم السوء ثم لا يجأرون إلىٰ ربهم ولا يضَّرعون إليه جنبًا إلىٰ جنب مع أخذهم بأسباب الأرض لدفع ذلك الضر

﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾

ويكأن التضرع إلىٰ الله وصدق الالتجاء إليه النتيجة الأولية لذلك الاختبار بالضراء

لكن القسوة وتزيين الشيطان تقفان كحواجز منيعة بين المبتلين وبين ذلك الفهم فيغفلوا عن التضرع ويزهدوا في الدعاء وهم أحوج ما يكونون إليه

﴿وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

❁ ❁ ❁

﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾

هل نظرت إلىٰ القرآن من قبل هذه النظرة؟!

هل تأملت بينما تقرأ أن ما تتلوه من آيات وما تتدبره من معانٍ هي بصائر؟!

هي أنوار كاشفة تضيء لك عتمة الطريق وتبين لك سبيل الهدىٰ الرشاد

هي منبع البصر ومحل الرؤية الصحيحة الواضحة التي تنتشل المؤمن من ظلمات العمىٰ

والخيار لك

﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾

❁ ❁ ❁

والعادة المطردة التي لا تتبدل أن أكابر مجرمي كل قرية يمكرون فيها ويدبرون ما يؤذيها أو يؤذي مؤمنيها

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ﴾

والمؤمن الحق يوقن بأن عاقبة هذا المكر ليست فقط إلىٰ زوال ولكن إلىٰ نتيجة عكسية تصيب أولئك المجرمين فيصير مكرهم بأنفسهم ويرتد تدبيرهم إلىٰ نحورهم

﴿وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾

وتأمل المقابلة بين إجرامهم الكبير والصغار الذي يؤول إليه حالهم فبعد أن وصفوا في إجرامهم بأنهم أكابر يتحول كبرهم عند الله إلىٰ صغار عذاب أليم بما كانوا يمكرون

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾

❁ ❁ ❁

﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

إنها بحق نقلة فكرية وروحية هائلة، من عقيدة شاذة، وتصور للدين شائه مقزم منقوص، إلي عقيدة راقية، وتصور للدين واضح كامل متكامل جليل؛ علي حين جرت العادة بين الخلائق قرونًا قبل بعث النبي ﷺ، بهذه

العقيدة الشاملة الكاملة؛ أن يوجه الناس ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، وأن ينعزل الدين عن الحياة، ويظل حبيسًا بين جدران دور العبادة، فلا يعود يُذكر إلا حين الحاجة إليه،

وعلىٰ حين جرت العادة أن يُنظر دائمًا إلىٰ الدين علىٰ أنه فقط شعائر تعبدية، لا علاقة لها بمعايش الناس ولا بمعاملاتهم، وأن تقتصر علىٰ صلاة وذكر ودعاء ونسك -أي ذبح- وما كان علىٰ ذلك النسق، من ملامح العبودية وأمثلتها؛

جاء الإسلام بدين يعبر حدود الجدران والصدور، منتظمًا كامل الحياة، ومهيمنًا علىٰ جميع ملامحها ومجالاتها وأنشطتها علىٰ السواء؛ تصور لم يعرفه العرب قبل البعثة،

ولا تصورته الأمم في سالف الأديان . .

هذه الآية العظيمة تفاجئ أصحاب تلك الأفكار الإقصائية -للدين- بمعنىٰ مباين تمامًا لما يظنونه ويهوونه، بل وتستريح إليه نفوسهم الأمارة بالسوء، المحجوبة عن شهود حقيقة العبودية الجامعة؛

إنها تفاجئهم بأن الدين منظومة حياة كاملة شاملة،

وأن الحالة التي أشار إليها الجنيد، عن العبد الذي يتكلم وينطق ويتحرك لله وبالله، ليست خيالًا نظريًّا، ولا دروشة أو تكلف، بل هي حقيقة شرعية واقعية علي أرض العبودية المشروعة والربانية!

أن يكون المحيا لله، والممات لله، وليس فقط النسك والصلاة . .

والحياة في سبيل الله شأن آخر

أن يصبغ المرء توجهه بمرضاة الله؛ أن يكون هدفه إرضاء ربه، في كل

سكناته، وحركاته، ومعاملاته وصمته، وكلماته، هذه هي الحياة لله!

ولقد تحمل من يعيشون لله ما لا يتحمله غيرهم ممن لا يستقر في قلوبهم هذا المعنىٰ السامىٰ الأصيل،

وهل كان نوح ليطيق سخرية واستضعافًا، ويصبر علىٰ لأواء الدعوة وتكاليفها ألف سنة إلا خمسين عامًا، لولا أنه عاش هذه الأعوام الألف مع الله وبالله ولله؟

وهل كان يوسف ليصبر علىٰ السجن، بل ويصرح أنه أحب إليه من لذيذ عيش فيه عصيان لمولاه، لولا أنه رجل يحيا بالله ولله ومع الله؟

وهل كان إبراهيم ليواجه قومه ويصبر علىٰ أذاهم وبطشهم، لولا ذلك؟

وهل كان أيوب ليتحمل أعوامًا من الضر والمرض والآلام، لولا أنه عاشها في أنس بمولاه؟

وغيرهم ممن أدركوا أنه كما أن الأمر كله لله، والفضل كله بيد الله، فإنما تكون الحياة كلها لله ومع الله وبالله،

إنه المعين الروحي والزاد الإيماني الذي سهل علىٰ أمثال هؤلاء ممن عاشوا لله، أن يكون موتهم في سبيله ولأجله، كخيار أوحد، ودون أدنىٰ تردد.

ثم يختم المعنىٰ القرآني الأخاذ بقوله:

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

ففارق كبير بين من تمزقت حياته بين شركاء متشاكسين؛ من درهم ودينار وشهوة وشبهة، وبين من وجد وجهته، وعرف طريقه، فسارع إليه،

ولم يكتف بمجرد المعرفة والمسارعة، وإنما آثر السبق واختار أن يكون بين السابقين الأولين المكرمين إلىٰ تلك الملة الكاملة المتكاملة، والمنظومة الجامعة الشاملة فتنعم بالحياة لله وبالله ومع الله

❀ ❀ ❀

وفعل الأمر «قل» تبدأ به كثير من آيات سورة الأنعام ومن خلال تكراره تترسخ فكرة ضرورة ظهور تعظيم الله -الذي تحتشد به آيات السورة- علىٰ لسان وجوارح كل من وقر في قلبه هذا التعظيم

فالقلب المعظم لله لا يطيق أن يحبس هذا التعظيم بين أضلعه ولا مناص من أن يفيض ذلك التعظيم إلىٰ لسانه فما ينفك عن الكلام عن مولاه والأخذ بقلوب الناس إليه وتحذيرهم من عاقبة مخالفته والاستهانة بقدره بل ويجفل ويفزع إذا تعدىٰ أحد علىٰ مقام من يعظمه قلبه

وأضرب لذلك مثالًا واقعيًّا وإن كان مؤسفًا

انظر إلىٰ فعل بعض البسطاء ممن يعظمون الجن ويعتقدون بأنهم ينفعون ويضرون فتجدهم إذا ذكر «الأسياد» كما يدعونهم يجفلون فزعًا ويرددون تعاويذهم واستغاثاتهم ويحذرون الذي استهان بهم من عاقبة تلك الاستهانة ويطالبون بجعل الكلام: «خفيفًا عليهم»

هذا رد فعل تلقائي لدىٰ هؤلاء لما استقر في قلوبهم من تعظيم للجن وما شابه من تعظيم للمقبورين وأصحاب الأضرحة

وإن كانن تلك أمثلة مؤسفة لصور من الخلل العقدي إلا إنها توضح ذلك

الانفعال التلقائي الذي يطرأ علىٰ جوارح من عظم شيئًا إذا تعدىٰ علىٰ مقام المعظم عنده

لكن الأمر المؤسف حقًّا أنك لا تجد رد فعل مشابه لرد فعل هؤلاء المساكين عند كثير ممن يدعون تعظيم الله

فتراهم يرضون بالتعدىٰ علىٰ مقام الله بين أيديهم وفىٰ حضورهم بل وتجدهم أحيانًا يدافعون عن من تعدىٰ بحجج واهية ومبادىٰء تغريبية مفجعة ثم يدعون أنهم يعظمون مولاهم ويرجون له وقارًا

أي تعظيم هذا الذي استقر في نفس لم تترجم تعظيمها وتوقيرها بالقول والمنافحة والرد والذب عن حمىٰ مولاها فاستجابت للأمر المتكرر في تلك السورة التعظيمية المبهرة

الأمر: قل

وأىٰ توقير هذا وأىٰ محبة استقرت في قلب لم يختلج لإهانة مقدساته وأو يرتجف غيرة علىٰ حرمات وسلطان إلهه الذي يدعىٰ أنه يعظمه وهو لم يدرك أضعف مراتب الإيمان به وهو إنكار القلب إن لم يملك إنكار اللسان

❁ ❁ ❁

وإن المحب الحق والمعظم الصادق لا يملك نفسه ولا لسانه الذي يتكلم عن محبوبه بغير تكلف ولكن من منطلق رد الفعل التلقائي لمحبته وتعظيمه

رد الفعل الذي يورث رغبة عارمة في مشاركة كل من حوله تسبيح وتعظيم مولاه لينتظموا معه في سلسلة التعظيم الكونية التي تشمل كل ذرة في

الكون ولا يطيق أبدًا السكوت عن جحود الجاحدين واستهانة المغرضين فلسان حاله ومقاله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٤ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾

وإن الإنسان مجبول كذلك علىٰ الإعجاب والانبهار بكل شيء عظيم أو معجز له ولا يكون بطريق التكلف والاصطناع

إنك حين ترىٰ دقة صنعة لصانع أو لوحة محكمة لفنان صور بها مشهدًا طبيعيًّا بديعًا لا تملك ساعتها إلا الثناء وتتسارع نظرات الإعجاب والإنبهار إلىٰ عينيك وربما يسارع إلىٰ لسانك لفظ الجلالة دون تكلف لتصيح بإعجاب: الله

ولله المثل الأعلىٰ

إن المؤمن الذي يرىٰ آثار قدرة الله وبديع صنعه في كل ذرة في الكون الفسيح لا يتكلف كلمة سبحان الله، بل يجدها تتسرب من قلبه إلىٰ لسانه ليصيح بها من أعماقه مستشعرًا معناها منبهرًا بمدلولها موجها وجهه شطر سبيلها

كان هذا ما فعله الخليل عليه السلام بعد جولة في بديع صنع الرحمن فكان أول ما تكلم به بعدها: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

وعادة أهل الباطل زخرفة باطلهم فلا يظنن أحد أن مجرمًا سيأتي غليظ الحاجبين كما يحلو للدراما الرخيصة تصويره فيتكلم بصوت أجش معلنا

باطله مجاهرًا بعداوته للحق وأهله

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾

تأمل . .

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًاۚ﴾

يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، فيزخرفون العبارات ويجملون الكلمات ويزينون الدعوات حتىٰ يجعلوها في أحسن صورة فيغتر بها البسطاء، وينقاد لها الجهلة والأغبياء ممن تعجبهم الألفاظ المزخرفة، ويغترون بالعبارات المبهرجة متغافلين عن حقيقتها متناسين قبح باطنها ومصرين علىٰ تصديق هؤلاء الشياطين المفترين

والحقيقة أن المستمع المصدق الراضي ليس بمنأىٰ عن المذمة لمجرد انخداعه فهو من سلم أذنيه وعقله وأعطىٰ فؤاده لأولئك الشياطين وهذا ما بينه الله في الآية التي تليها

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾

❀ ❀ ❀

ولقد وصف الإيمان والقرآن بصفات كثيرة لعل من أعظمها وصفهما بأنهما سر الحياة

فمن دون إيمان بالله وطاعة له يكون المرء كالميت سواء بسواء

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾

فالحياة الحقيقية إنما هي بطاعة الله والإيمان به والقرآن هو سر تلك الحياة الطيبة فهو الروح التي من دونها يصير الإنسان أشبه بجثة تمشي علىٰ قدمين ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾

ثم يأتي بعد ذلك الوصف الآخر المتكرر لذلك المنهج بأنه نور يضيٰء للإنسان دربه ويوضح له طريقه

﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾

﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾

فالوحي نور والإيمان بالله ضياء من دونهما يتخبط المرء في ظلمات الشرك والكفر

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾

يا لها من مقابلة بين حي يسير في الضياء ويمضي بنور من الله وآخر ميت خاوي النفس منزوع الروح حبيس بين جدران ظلام دامس

والعجيب أن من الخلق من يصر علىٰ اختيار الثانية

والسبب هو التزيين أيضًا

لقد نجح أوليائهم في تزيين الظلمات وتجميل الموت البارد حتىٰ اختاروه قاصدين

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

❀ ❀ ❀

السبل كثيرة

والطرائق متعددة

والمسالك متنوعة متشعبة

لكن ليست كلها مستقيمة

لقد جاء وصف الاستقامة ملازمًا لصراط الله وسبيله ومنهجه بعد ثلة من أرقىٰ التوجيهات القرآنية بالعدل في القول والقسط والوفاء والإحسان ومجافاة الفواحش والبعد عنها

وهذا هو الطريق

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾

جاء بصيغة الإفراد وقرن بالاستقامة بينما جاءت السبل جمعا وبغير اقتران باستقامة أو وضوح

بل هي الفرقة والشتات والعوج والتغيرات

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾

وهكذا سبل الباطل

معوجة متفرقة لا يثبت سالكها علىٰ حال ولا يستقيم إلىٰ وجهة محددة ومآل تتجاذبه الأهواء وتقذف به الظنون والأنواء فلا يثبت في وجه ريح ولا يصل إلىٰ وجهة فيستريح

فليفارق المسلم تلك السبل وليوجه وجهه شطر الصراط الواحد المستقيم

﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾

❁ ❁ ❁

سورة الأعراف

والانسلاخ كلمة تلخص الكثير من الأشياء التي تعتري المنتكس

إنها كلمة يعبر بها عادة عن مفارقة الجلد للحم

لكنها وردت في سورة الأعراف في معرض الحديث عن مفارقة العبد لآيات ربه

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾

وكأن في ذلك إشارة لطيفة لما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين المرء وآيات ربه التي أوتيها

علاقة قرب واتصال وثيق وتماسك شديد كما يكون الاتصال بين الجلد واللحم ومن ذلك يتبين معنىٰ قولهم: (دينك دينك لحمك دمك)

ويعبر بكلمة السلخ كذلك عن استلال الليل من النهار ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ وهي حركة بطيئة تدريجية كما أن انسلاخ الجلد عن اللحم يكون تدريجيًّا بطيئًا

وكذلك انتكاس المرء عن آيات ربه لا يحدث فجأة ولكنه ينسلخ عنها رويدًا رويدًا دون أن يشعر فيتساهل تارةً ويتميع تارةً أخرىٰ ويقصر مرة ثم يتبعها مرات حتىٰ يستمرئ الاجتراء ويتهاون في شأن الحرمات ولئن لم يستنقذ نفسه ويمن عليه ربه بيقظة تنبهه أو موعظة يستفيق بها فقد يتم الانسلاخ

ويكتمل الانتكاس وحينئذ يجد عدوه في انتظاره ليجهز عليه ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾

❁ ❁ ❁

وتأمل قوله تعالىٰ ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ وتدبر بناء الفعل (أُلقي) للمجهول

ويكأن قوة ما قد دفعت السحرة للسجود مضطرين

قوة تسربت بشاشتها إلىٰ قلوبهم ثم لم تلبث إلا ونضحت علىٰ جوارحهم فلم يتمالكوا أنفسهم ولم تحتملهم أقدامهم فخروا للأذقان سُجَّدًا خاشعين

تلك القوة التي اضطرت جوارحهم للسجود هي النابعة عن رؤيتهم آية معجزة من آيات الله جل وعلا حين تحولت عروق الخشب في عصا موسىٰ إلىٰ عروق تنبض في جسد ثعبان مبين يلقف حبالهم وعصيهم

لم يتمالكوا حينئذ أنفسهم وأُلقوا سُجَّدًا بينما يرىٰ الواحد منا مثل تلك الآيات يوميًا وربما لا يكون رد فعله قريبًا أو مُشابهًا لرد فعل السحرة ولو حتىٰ بسجود القلب مُسبحًا ومُعظمًا هذا الخالق الذي أبدع ذلك الذي يعاينه

يعاين مثل ذلك في نطفة تتحول إلىٰ مخلوق يسمع ويبصر ويملأ الدنيا صخبًا ويراه أيضًا في تحول حبة في ظلمات الأرض إلىٰ نبتة مخضرة يأكل منها الناس والأنعام وغير ذلك من آيات الخلق وبديع التصوير الذي لا يقل عن آية العصا

ولولا إلف العادة ونقصان التأمل والتدبر في خلق الله لما وسع الناظر

إلىٰ تلك الآيات الكونية إلا ما وسع السحرة فيُلقىٰ ساجدًا ومسبحًا ومعظمًا إلها أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين

❁ ❁ ❁

ولو التفت أصحاب الرسالة لتثبيط المثبطين وتخذيل المعوِّقين لما صنعوا شيئًا ولكان مآل حالهم القعود ولما ائتُمر بمعروف أو نُهي عن منكر ولما صُدع بحق أو أُبطل باطل

لكن صاحب الرسالة يمضي في طريقه ولا يلتفت ولا يُسلم أذنيه لأهل الإبطاء والكسل وهو حين يمضي يضع نصب عينيه أمرين أولهما الإعذار إلىٰ ربه والسعي لإرضائه وثانيهما الأمل في التغيير الذي لا ينقطع وإن انقطعت الأسباب ويظهر ذلك جليًّا في رد الناهين عن السوء في قصة أصحاب السبت حين جاء المثبطون ليعوِّقوهم وليكسروا عزائمهم زعمًا منهم أنه لا فائدة تُرجىٰ من صنيعهم فكان الرد حاسمًا ساطعًا براقًا: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

❁ ❁ ❁

﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾

يا له من وصف شريف وتزكية ربانية لا تدانيها تزكية مخلوق أو مدح فانٍ

لكن ثمة كلمات قرآنية معدودة كانت تحول بين هذا الوصف الشريف وتلك التزكية العظيمة وبين نقيضها تمامًا

فبعد أن كان الوصف شريفًا والتزكية ظاهرة تحوَّل ذلك الذي شهد له الله بالعلم وبأنه أوتي آياته إلىٰ وصف آخر وضيع وصار مثله كمثل كلب

يتطاير اللعاب النجس من بين شدقيه

وبعد أن كان كريمًا عالي الدرجات بعلمه صارت الغواية نعته والسوء حاله والانسلاخ مآله

ذلك لأنه بدَّل وغيَّر ولم يرع للنعمة حقها ولم يعرف للعلم مقامه ولا للآيات التي في صدره قدرها ففرط فيها واختار أن يخلد إلىٰ الأرض ويتقلب في ترابها الحقير ويلهث خلف شهواتها الدنية

وليصبح أنموذجًا لكل من آتاه الله علمًا وأكرمه بآياته فنأىٰ عنها وأعرض واستبدلها بعرضٍ زائلٍ

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾

يا رب سلِّم

❀ ❀ ❀

ومن نعيم أهل الجنة أن صدورهم مطهرة منزوعة الغل يرفلون في ثياب المحبة ويتقلبون بين واحات سلامة الصدر ونقاء الطوية ويستظلون بوارف ظلال الأخوة الإيمانية وفي ذلك يقول المولىٰ ﷻ:

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾

والغل والحقد والكراهية حين يستعر القلب بلهيبهم فإن ذلك بلا شك من عذاب الدنيا وضيق عيشها الذي يحجب عن أهل الجنة وينقذون منه وهذا النوع من النعيم يستطيع المؤمن المسدد تذوق شيء من لذته في الدنيا وذلك بأمر بسيط يسير فقط علىٰ من يسره الله له وصدق في طلبه بأن يطهر قلبه ويصفي سريرته تجاه إخوانه المؤمنين ويحاول أن يبيت وليس في صدره غلًّا لإخوانه

يعينه علىٰ ذلك أن يعود لسانه علىٰ دعاء الصالحين: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

* * *

وفارق كبير بين أن تنسب القول لنفسك الخطاءة التي يعتريها النقص ويلحق بها الزلل والضعف وبين أن تنسبه لملك الملوك جل وعلا بأن تلحق أفعالك وخياراتك بشرعه فتكون ممن تقول علىٰ الله ما لم ينزل به سلطانًا

وسواءً كان الترتيب يقتضي التصاعد من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ أو لا يقتضيه فكفىٰ بالقول علىٰ الله بغير علم شرًّا أن يقترن بالشرك والبغي والفواحش

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

فما بال أقوام تحرزوا من الفواحش والآثام والشركيات لكنهم ما انفكوا يتقولون علىٰ الله ويجترئون علىٰ ذلك الحمىٰ ويرتقون ذلك المرتقىٰ الصعب الذي لا قبل لبشر به والذي قيل لمن هو خير من ملء الأرض من أمثالهم في

شأن ذلك: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾

ولو أن مخلوقًا مثلهم قد تقوَّل عليهم قولًا لم ينطقوه ونسب إليهم شيئًا لم يخرج منهم لأقاموا الدنيا سخطًا عليه ولاتهموه بالافتراء عليهم ولانتصروا منه بكل ما يستطيعون . .

بينما يَرضَوْن علىٰ رَبِّ العَالمِين وأَحسنَ الخَالِقين ما لا يَرضَونَهُ لأنفسهم ويَنسِبُون لِشَرعِته ما لَيس مِنها ويُلِحقُون بِمِلَّتِه ما لَيس فِيها ويُلبِسُون أَقوالَهم وأَفعالَهم ثِيابَ الدِين والعِلم ويَا لَيتَهُم اِكتفوا بذلك بل وَصَمُوا مُخالِفِيهِم بالجَهل وبَغوْا علىٰ نَاصيحهم بالفِعل والقَول

أَلا سَاءَ ما يَحكمُون ولَبِئسَ ما يَفترُون.

❁ ❁ ❁

وفي كل عصر تجد من يسوغ الباطل ويزينه لأهله إما بنسبة ذلك إلىٰ العادة والعرف وما درج عليه آباؤهم الأولون وإما بالسبيل الأخطر والطريقة الأبشع وذلك بأن ينسبوا الباطل إلىٰ الله تعالىٰ شأنه وتبارك اسمه وتنزه عما يقولون وعلا علوًّا كبيرًا

فتجد من يجرؤ علىٰ التبجح بفاحشته وانتهاكاته بحجة أن الله أمره بها فيفتري علىٰ الله الكذب ويقول علىٰ الله ما لا يعلم: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾

فيكون الرد المختصر علىٰ أمثال هؤلاء الأفاكين بقاعدة هي علىٰ

بساطتها واختصارها محكمة تطيش في مواجهتها دعواهم الباطلة وافتراءاتهم السفيهة

﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾

❀ ❀ ❀

الطريق من كون الفاحشة فاحشة إلىٰ كونها أمر طبيعي وعادي بل ومستحب ليس طريقًا قصيرًا أو سريعًا لكنه يمر بدرب التوارث والتطبيع التدريجي مع تلك الفاحشة وقد ظهر ذلك جليًّا في آية الأعراف حيث سبق وصفهم للفاحشة بأنها أمر من الله قولهم ﴿وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾

لقد حدث التطبيع التدريجي مع الخطأ وربما تطلب الأمر عقودًا وراء عقود وأجيالًا تلو أجيال حتىٰ صار في النهاية دينًا يتدين به هؤلاء لدرجة أن قالوا عن الفاحشة بلا استحياء: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ فكان لا بد من البيان القاطع ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾

التطبيع مع الخطأ وتوارثه الأعمىٰ قد يؤدي في النهاية لتلك المصيبة . .

أن تتحول الفاحشة إلىٰ طاعة وأصل وأن تنطمس حقيقة كونها في النهاية . .

فاحشة . .

❀ ❀ ❀

وإن من الناس من يعيش حياته مذبذبًا لا هو إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ أولئك

إنه نمط يحقر نفسه ولا يحدد وجهة أو يحسم أمرًا أو يفصل في اختيار

فيسلك سبيله إلىٰ نهايته

نمط يعيش علىٰ الأعراف في الدنيا بين الحق والباطل ويخشىٰ عليه أن يكون من أهل أعراف الآخرة بين الجنة والنار الذين لم يعرفوا إلىٰ أين يذهبون في الآخرة كما تذبذبوا ولم يعرفوا طريقهم في الدنيا

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾

وهم يعرفون الصنفين الآخرين بسيماهم؛ لأنهم كانوا يختلطون مع كل صنف في الدنيا ويرون خياراتهم وأعمالهم بيد أنهم لم يصاحبوا أيًّا منهم مصاحبة كاملة

﴿وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾

ما أجمعها من كلمة

. .

يطمعون . .

كلمة يظهر منها استشرافهم للدخول ورغبتهم في التنعم بنعيمها لكنه يومئذ يكون مجرد طمع لا يترجم لعمل فقد انقضىٰ وقت العمل وقد زهدوا فيه والآن يعلمون أنهم ليسوا أهلًا لها بعد تميعهم في الدنيا وتثاقلهم عن سلوك سبيلها

﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

يخافون من هذا المكان الموحش القاسي ويدركون أنهم ليسوا بمعزل عنه بسبب تقصيرهم وبعدهم عن طاعة الله

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾

عرفوهم كما عرفوهم في الدنيا حيث كانوا يرددون في الدنيا أنهم أصحاب المال والمنصب والجاه ويتعالون علىٰ المنعمين الآن: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾

ولقد تركت الآيات مصير أهل الأعراف معلقًا كما كان قرارهم في الدنيا معلقًا . .

وقوفهم يوم القيامة في المنتصف علىٰ الأعراف؛ لأنهم في الدنيا كانوا في المنتصف أيضًا،

كانوا بين بين

. .

يعرفون أهل الحق الذين كانوا يدعونهم إلىٰ الهدىٰ

﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ﴾

لكنهم مع معرفتهم لم يختاروا أن يكونوا معهم

ويعرفون أيضًا أهل الباطل لكنهم لم يختاروا الانحياز الكامل إلىٰ صفهم

هكذا كانوا في حيرة في الدنيا

وهكذا تستمر الحيرة هناك خارج الجنة

نعم ربما يدخلونها بعد حين لكن متىٰ؟!

بعد كم عام من الانتظار؟!

وأي عذاب نفسي هذا الذي يتعرضون إليه وهم ينظرون إلىٰ البشر من حولهم يساقون إلىٰ الجنة وإلىٰ النار وهم باقون منتظرون خائفون ويطمعون

صحيح أنه عذاب نفسي لم يرد الخبر فيما نعلم أن عذابًا ماديًّا يصاحبه

لكن في النهاية هو أمر صعب استحقوه بتميعهم وتذبذبهم البارد وحرجهم من سلوك طريق الحق

فما أشد خوفهم وما أعمق حزنهم حين ينظرون إليها ولم يدخلوها وهم يطمعون

تمامًا كما كانوا يرقبون السبيل في الدنيا ولم يلجوه

❀ ❀ ❀

ومن أهم التوجيهات في سورة الأعراف التوجيه بالحسم والاختيار والفصل

توجيه يظهر في تلك الآية من مطلع السورة

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

إنها دعوة للاختيار الحازم الفاصل دون حرج أو تردد ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾

دعوة لاتباع السبيل الحق وترك ما دونه ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

دعوة لاختيار سبيل المتقين الصالحين المصلحين: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾،

التقوىٰ والإصلاح

وليس فقط الصلاح

بل الإصلاح

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾

تأمل . .

المُصلحين وليس فقط الصالحين

❁ ❁ ❁

ويظن البعض أن الإصلاح في الأرض والنفع المتعدي يغنيهم عن الصلاح الشخصي والتعبد القاصر

وما أشد وهمهم وأبعد ظنهم

فأي مصلح ذلك الذي ليس لديه رصيد داخلي من الصلاح

وأي مُغَيِّر هذا الذي لا يستطيع أن يغير نفسه أولًا

وأي برٍّ هذا الذي يأمر به الناس وينسىٰ نفسه

إن التلازم بين الصلاح والإصلاح أمر مطرد في كتاب الله ويكفيك أن تتدبر في تلك الآية من سورة الأعراف والتي بدأ الله فيها بذكر الصلاح من تمسك بكتاب الله وإقامة للصلاة ثم ختمها بوعد ألا يضيع أجر المصلحين

فكان في ذلك إشارة إلىٰ أن أولئك المصلحين لم ينسوا أنفسهم ولم يغفلوا عن طاعة ربهم بل تلازم صلاحهم مع إصلاحهم وارتبط نفعهم القاصر بنفعهم المعتدي فتأمل

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾

❁ ❁ ❁

ونلاحظ فارقًا ظاهرًا بين رد فعل السحرة علىٰ وعيد فرعون ورد فعل موسىٰ عليه السلام حين التقىٰ الجمعان وقال أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾

فمع اعتبار فارق مقام النبوة إلا أن موسىٰ عليه السلام كان لديه وعد قطعي محدد فيه جزم بأن الله تعالىٰ معه هو تحديدًا .. ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾،

وأنه لا محالة غالب عدوه

﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾

لذلك كان رد فعله يقينًا قاطعًا في وعد محدد له هو بعينه وفي حياته

هنا قال للمشككين والمهتزين والمرجفين بجزم قاطع: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾

قضية منتهية لا يوجد لديه ذرة شك فيها

أما السحرة فلم يكن لديهم مثل ذلك الوعد القطعىٰ المحدد لأعيانهم والذي يقطع لهم من الله بالنجاة الدنيوية من قبضة الطاغية

لكن مع ذلك كان رد فعلهم الصدع بالحق والثبات عليه ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾ جنبا إلىٰ جنب مع التسليم الكامل لقضاء الله في عزة واستعلاء علىٰ الباطل بلا أدنىٰ ذلة أو استكانة أو وهن ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾

بل تراهم ثبتوا وأقدموا وأمَّلوا خيرًا عند من هم إليه راجعون معلنين:

﴿لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾

ثم أعلنوا الرغبة فيما عند الله والاستبشار بجزائه الذي هو خير وأبقىٰ ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾

الخلاصة أنهم لم يجزموا بنجاتهم في الدنيا لكنهم التزموا حدودهم البشرية ولم يتألوا علىٰ رب البرية بأن ينسبوا إلىٰ أنفسهم ما لم ينسب لها، أو يخصوها بخصوصية زائدة، أو يقيدوا وعدا أطلقه الله سبحانه

سورة الأنفال

ويتحير البعض في تمييز الطريق وتحبطهم تلك الحيرة ويثقلهم ذلك التشوش فيكثرون الشكوىٰ ويدمنون التحجج باختلاط الرؤية وعدم وضوح السبيل بينما يتجاهلون الوسيلة الربانية التي بينها الله لهم في جواب شرط واحد فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾

بالتقوىٰ والحرص علىٰ إرضاء المولىٰ يجعل الله لعبده فرقانًا يميز به بين الحق والباطل ونورًا يمشي به في الناس ويضيء له به السبيل

❁ ❁ ❁

ولا يستطيع المنافقون وعبيد المادة أن يفقهوا سبب يقين المؤمنين وثقتهم برب العالمين فلا يملكون إلا التسفيه والتحقير واتهام الموقنين بالسذاجة والاغترار وهذا ليس بجديد واقرأوا إن شئتم

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾

لكن يأتي الرد الشاهق من جديد ليطيش تسفيههم وتحقيرهم

﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾

❁ ❁ ❁

والألفة بين المؤمنين رزق ونعمة من الله

وهي كنز لا تساويه أموال الدنيا

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

ومن رزق الألفة عليه أن يحافظ عليها ويستمسك بها ويصبر علىٰ إخوانه قدر وسعه

فبديلها نزع الخير وقد حسن الخبر عن رسول الله ﷺ: «**لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**».

وضياع الألفة بداية لضياع الأمة وسلوكها طريق أوله التنازع وآخره الفشل وذهاب الريح

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

نسأل الله أن يؤلف بين قلوبنا

❁ ❁ ❁

وعندما نتأمل آيات سورة الأنفال نجد أن جل الأحداث والوقائع التي حدثت في غزوة بدر نُسِبت إلىٰ الله ﷻ ونفيت عن غيره إلا فعل واحد فعله المسلمون وذكر في السير أن النبي ﷺ ظل يفعله طوال الليلة السابقة لنهار الغزوة

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾

المسلمون حاربوا وقاتلوا وأخذوا بما بين أيديهم من الأسباب وأبلوا بلاءً حسنًا لكن ما ذكره الله ﷻ من قتالهم وتسديد رميهم نسبه لنفسه

﴿تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾

وهم من حدد مكان وموعد الغزوة ومن سيقاتلون عيرًا أم نفيرًا وهو الذي أنزل المدد وسدد الرمي أنزل النعاس أمنة منه عليهم وربط علىٰ القلوب وثبت الأقدام

فقد تكون الحسابات المادية ممتازة وليس فيها أي خلل ومع ذلك تحدث الهزيمة

لكن حين يأتي التسديد من عند الله ﷻ فمن هنا يأتي النصر.

بشرط الاستحقاق والإعداد جنبا إلىٰ جنب مع ما خلد القرآن ذكره من فعلهم

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾

يد تعمل وقلب معلق ولسان يلهج ويستغيث بالمولىٰ

❁ ❁ ❁

وترسخ آيات سورة الأنفال قاعدتين وأصلين في غاية الأهمية يظن بعض الناس أنهما متعارضان أو متناقضان

والحقيقة أنهما يتكاملان ويتآزران.

بعض الناس يظن أن الأخذ بالأسباب ينافي التوكل علىٰ الله ﷻ، وسورة الأنفال تبين من خلال آياتها أن هذا غير صحيح فتضعنا السورة أمام حقيقتين في غاية الأهمية

الحقيقة الأولىٰ: أن النصر من عند الله وحده فلا تعلّقوا قلوبكم إلا به

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾

الحقيقة الثانية وجوب الأخذ بأسباب النصر وضرورة نبذ التواكل

وهذا لا ينافي ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فهناك أسباب للنصر لا بد من الأخذ بها،

هناك وسائل للنصر، وسُبُل للفتح،

هناك إعداد ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾

هذان المعنيان يترسخان في آيات السورة كلها

أنتم لستم عبيدًا للأسباب بل عباد لله ﷻ

لكن عليكم أيضًا أن تأخذوا بالأسباب وأن تعِدّوا

فإن فعلتم ذلك كنتم بإذن الله مستحقين للنصر الذي هو من عنده وحده

❀ ❀ ❀

إن اختيار مصطلح الأنفال لتسمية السورة التي تتحدث عن النصر له إشارات عميقة ومدلولات

فالأنفال هي الغنائم

والغنائم هو المصطلح الأشهر والأكثر استعمالًا وهي كلمة عربية فصيحة ووردت في القرآن وفي السنة

لكن اختيار اسم الأنفال للسورة له مدلول مهم

فالأنفال من النفل والنفل من الزيادة، كما يقال لغير الفريضة نافلة

فالذي يأتي من العمل للدين من فتوح دنيوية لا بد أن يُنظر إليه علىٰ أنه نفل،

زيادة.

ليس الأصل وليس غاية أو مراد

والعمل لدين الله ليس لهذه الزيادة والنفل، كل ما يأتي بعد النصر من متاع الدنيا إنما هي أنفال، ليست هي الهدف وليست هي الأصل ولا ينبغي لطالب مرضاة الله وجناته أن يلتفت إليها أو ينشغل بها

❀ ❀ ❀

المؤمنون حقًّا

ما نفسكش تبقىٰ منهم؟؟؟!!

مؤمنين حقًّا إزاىٰ يعني؟؟؟

أقول لك

نفهم بالراحة

ناس كتير فاهمة إن الإيمان هو مجرد التصديق بوجود الله وخلاص علىٰ كدة

وده ممكن يكون معنىٰ الإيمان لغة لكن الحقيقة أنه لو ده بس معنىٰ الإيمان يبقىٰ علىٰ كدة إبليس مؤمن -وهو طبعًا ليس كذلك- فالله يقول أنه: ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

تأمل . . . من الكافرين

رغم أنه يعرف بوجود الله؟؟

نعم .. رغم إنه يعرف بوجود الله

هل سمع أحدكم أن إبليس ينكر وجود الله؟؟

الجواب معروف

طبعا لا

هو يعلم وجود الله بل ويقسم به وبعزته أحيانًا

لكن مع ذلك هو رأس الكفر ومنبعه

لماذا؟؟

لأن تصديقه لم يتبعه قبول وانقياد ..

لأن معرفته لم تمنعه عن الجحود والنكران ..

علم أن الله ربه وخالقه لكنه رفض أن يطيعه ويعبده ..

جحد واستكبر عياذًا بالله ..

مثلما فعل قوم فرعون الذين قال عنهم ربنا ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾

يبقىٰ الموضوع مش مجرد كلمة وخلاص ولا خانة في البطاقة

المؤمن حقًّا له خصائص ومقومات ربك ذكرها في آيات كتير في كتابه العزيز

من ضمنها آيات من أروع آيات سورة الأنفال

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾

وفي نفس السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾

ركز كدة في الآيات دي

تأمل في أولها؟؟

بدأت بـ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

هما دول اللي صفاتهم كدة

واخد بالك انتهت بإيه؟؟

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾

وبينهما صفات

هي دي صفات المؤمنين حقًّا

ذكر وخشية ووجل وتلاوة قرآن تزيد منسوب الإيمان في القلب وتوكل وصلاة وإنفاق

ما شاء الله . .

ما أجملها من حياة التي تتوجها تلك الصفات

❁ ❁ ❁

ولا ينبغي للمرء أن يصرف ذهنه فقط لتقصير الآخرين وبغيهم عليه واعتدائهم علىٰ حقه بل عليه أيضًا أن ينظر إلىٰ تقصيره وما جنته يداه باحثًا عمَّا غيره وبدله وأدىٰ إلىٰ زوال النعمة وفجاءة النقمة راغبًا في إصلاح أخطائه

طالبًا التوبة عن تقصيره وتبديله وزلاته فهو لا ينسىٰ أبدًا تلك القاعدة الربانية المحكمة

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾

❀ ❀ ❀

ولقد جرت العادة بين الناس بعد الانتصارات الكبرىٰ أن تتصدر ما يليها من تعليقات وبيانات عبارات الثناء وديباجات التبجيل وأناشيد المديح لأصحاب تلك الانتصارات والأمجاد لكن العجيب أن أول ما نزل من آيات بعد نصر بدر كانت تحمل توجيها بالتقوىٰ وإصلاح ذات البين والتحذير من التفرق والتنازع علىٰ الغنائم وعرض الدنيا الزائل ولم تعن آيات الأنفال كثيرًا بذكر البطولات العظيمة علىٰ وجودها وكثرتها

وكأن في ذلك إشارة لطيفة إلىٰ أن النصر في جولة ليس نهاية المطاف وأن الحفاظ علىٰ القمة أصعب وأهم من مجرد ارتقائها لذا كان التحذير من أهم أسباب الهزيمة وبيان عوامل الثبات علىٰ النصر بعد السورة التي تحدثت عنه

وبالفعل حين حدث الخلل في تلك العوامل أو بعضها كانت المصيبة في الغزوة التي تليها مباشرة فتأمل

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

❀ ❀ ❀

والخيانة كما أنها فعل ظاهر له علامات وشروط -كما بينت في المقال السابق- فإنها كذلك لفظ واصطلاح شرعي ذكر في كتاب الله جل وعلا أكثر من مرة

منها ما ورد في سورة الأنفال

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾

والمعنىٰ إذا خفت يا محمد ﷺ خيانة من قوم عاهدتهم وبينك وبينهم ميثاق فلن تتم إليهم عهدهم إلىٰ مدتهم فأعلمهم وأظهر لهم ذلك ولا تباغتهم بإنهاء الأمد أو نقض عهد

كذلك وردت في نفس السورة في قول الله: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

وفيها إشارة واضحة إلىٰ أن الخيانة ليست في حق البشر وحدهم ولكنها أيضًا في حق الله جل وعلا

ووردت الخيانة كذلك في شأن امرأة نوح وامرأة لوط ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾

وليس المراد بقوله تعالىٰ: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أنهما وقعتا في فاحشة بل الخيانة هنا في الدين فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء

ولقد كان ابن عباس يقول في هذه الآية: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ ما زنتا أما خيانة أمرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها علىٰ أضيافه

وقال العوفي عن ابن عباس قال: كانت خيانتهما أنهما كانتا علىٰ غير

دينهما فكانت امرأة نوح تطلع علىٰ سر نوح فإذا آمن مع نوح أحدًا أخبرت الجبابرة من قوم نوح به وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحد أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء.

وقال الضحاك عن ابن عباس ما بغت امرأة نبيٍّ قط (أي ما زنت) إنما كانت خيانتهما في الدين، وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم.

وورد ذكر الخيانة أيضًا في سورة يوسف في قول الله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾

وسواء كانت هذه العبارة من كلام امرأة العزيز أو من كلام يوسف عليه السلام فإن المقصد والمعنىٰ أنه لم تقع خيانة الزوج وأن الفاحشة لم تحدث فلم يخن يوسف من ربَّاه وأحسن إليه ولم يتم لامرأة العزيز مرادها

ولقد وصف الله اليهود بالخيانة الدائمة والمستمرة فقال

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ﴾

وقوله: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك وقال مجاهد وغيره: يعني بذلك تمالئوهم علىٰ الفتك برسول الله

ولقد وصف الله نفسه بأنه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾

فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾، هو الرجل يدخل علىٰ أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها فإذا فطنوا غض بصره عنها فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غض،

وقال الضحاك: ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ هو الغمز وقول الرجل رأيت ولم ير. أو لم أر وقد رأىٰ

وقال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما يعلم الله تعالىٰ من العين في نظرها هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد وقتادة.

ولقد صح عن النبي ﷺ قوله: **(ما كان لنبيٍّ أن تكون له خائنة أعين)**

أي إشارة خفية دون أن يلحظها محدثه

من كل تلك المواضع في القرآن وفي السنة وغيرها بالمعنىٰ كثير يتبين أن المسألة ليست لعبة ولكنه اصطلاح وحكم شرعي له ضوابطه وأحكامه

فما بال أقوام يسارعون بنفيه عن بعض الأفعال كأنَّما هو مرادف للعمالة (وقد بينت آنفًا أنه ليس كذلك) وأقوام آخرين يتساهلون بوصف كل فعل مخالف أو شخص مخالف بأنه كذلك.

وما بين إفراط في الوصف وتفريط فيه قد تضيع الحقيقة

فانتبه بارك الله فيك وأعلم أنها أحكام عظيمة ومرتقىٰ غير هين فلا تتساهل في نفيها أو إثباتها إلا بعلم وبينة وبرهان

❁ ❁ ❁

سورة التوبة

ويظن البعض أن النصح وبيان مواطن الخلل والتحذير من الأنماط السلبية يعد انشغالًا بعيوب الناس أو نظرة سوداوية تبرز فيها فقط النماذج المؤسفة.

والحقيقة أن الأمر ليس كذلك وإن كان فيه إظهار لبعض مواطن الخلل إلا أن إبرازها بشكل صريح وبشيء من التفصيل ربما يساعد علىٰ اجتنابها وينبه البعض ممن ينطبق عليهم شيء من تلك الخصال والأنماط المؤسفة ويلفت انتباههم إلىٰ أن هناك مشكلة ربما لا يلحظوها في خضم الصخب الحالي ولكن عند النظر إليها بمنظور عين الطائر فإن ذلك أدعىٰ لوقفة مع النفس ومراجعتها وتصحيح مسارها

وإن ذلك منهج قرآني معلوم.

ولو أننا تدبرنا آيات سورة التوبة لوجدنا أن لفظة ﴿وَمِنْهُمْ﴾ قد تكررت كثيرًا جدًّا والناظر لما بعدها كل مرة يجد صفة من صفات المنافقين ونمط متكرر من أنماطهم

وسورة التوبة هي السورة الفاضحة الكاشفة التي يستطيع كل منا أن يكتشف حقيقته من خلال آياتها بعرض هذه الآفات علىٰ نفسه وتلمس حالها والمسارعة إلىٰ التوبة التي هي الحل المطروح في السورة في مواجهة تلك

الفضائح والخلاص من أسر تلك الأنماط بدلًا من تركها والتستر عليها حتىٰ تنمو وتستفحل ويصعب اجتثاثها بعد حين

فقط بأن يسأل نفسه ويجيب بصراحة كلما مر بالكلمة المتكررة ﴿وَمِنۡهُمۡ﴾: هل أنا منهم؟!

❁ ❁ ❁

وكل صفات المنافقين تقريبًا ذكرت في سورة التوبة ولم يكن متبقيًا إلا أن تُذكر أسماؤهم وكناهم وفي عدم ذكرهم بالاسم خير كبير

ذلك لأنهم لو عينوا بأسمائهم لكان الأمر قاصرًا عليهم لدىٰ البعض ولصار يقرأ عنهم بنظرة تحمل بعض الشخصنة لكن بعدم ورود أسمائهم وترك الأمر مرتبطًا بخصالهم العامة فإن ذلك أدعىٰ لأن يحاسب المرء نفسه ويسقط تلك الخصائص والخصال علىٰ واقعه

وعندما نتأمل تلك الآيات التي تتحدث عن صفات المنافقين في السورة لا ينبغي لنا أن نتغافل عن إسقاطها وقياس حالنا عليها ولا يجب التعامل معها علىٰ أنها تتحدث عن فئة خيالية لا علاقة لها بالواقع المحيط بنا بل بواقع نفوسنا وأفعالنا

لقد كان الفاروق عمر رضي الله عنه حريصًا علىٰ تبين حاله وكان يسأل حذيفة رضي الله عنه -وهو من ائتمنه الرسول ﷺ علىٰ أسماء المنافقين- فكان يتحرىٰ أن يتبيَّن منه قائلًا: أوسماني لك رسول الله؟

فهذا عمر الفاروق وزير رسول الله وصاحبه يسأل خائفًا علىٰ نفسه من النفاق بينما يأمن كثير من الناس اليوم تمام الأمن من تلك الآفة ويظنون أنهم

بمعزل عنها ويكأن بينهم وبينها حجرًا محجورًا وحجابًا مستورًا

يقول ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخشىٰ علىٰ نفسه النفاق!

هكذا كانوا وهكذا ينبغي أن نكون

ولقد ذكر لنا النبي ﷺ بعض خصال وصفات المنافقين وبين أنه إذا حدّث كذب وإذا اؤتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر ثم أوضح أنه كانت فيه خصلة منهم كان فيه خصلة من خصال النفاق حتىٰ يدعها ومن اجتمعت فيه فهو منافق خالص عياذًا بالله!

فلا ينبغي أن نقرأ الفاضحة دون وضع احتمال ولو يسير أن آياتها تفضح شيئًا من خصالنا

علىٰ الأقل أمام أنفسنا لعلنا نراجعها

ونتوب

❀ ❀ ❀

وقد يكون بعض ما يظنه الخلق نعيمًا مقيمًا وتفضيلًا عظيمًا يتطلعون لنيله ويمدون أعينهم إلىٰ زهرته هو في الحقيقة وبال علىٰ صاحبه وعذاب له في الدنيا قبل الآخرة وإن ظهر للناس غير ذلك وهذا إن كان محاربًا لله كافرًا به عاصيًا إيَّاه بتلك النعم مستعملًا إيَّاها في مبارزته بالآثام والخطايا وذلك مصداق قول الحق جل وعلا: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾

❀ ❀ ❀

أقبلوا علىٰ الحبيب مشفقين وجلين وقد سمعوا أنه لن يخرج إلا من كان له دابة يركبها وظهر يسافر عليه هذا السفر الرهيب.

دخلوا علىٰ النبي ﷺ خائفين أن يردهم عن أسمىٰ أمانيهم التي يتوقون إليها

ها هم يطلبون منه الظهر الذي يسافرون عليه مجاهدين في سبيل الله، لكن الجواب جاء علي غير ما يرغبون

لقد قال رسول الله ﷺ الكلمة التي لم يكن لأعينهم وقلوبهم الصافية طاقة بها،

(لا أجد ما أحملكم عليه)

نزلت الكلمة علىٰ قلوبهم شديدة، وقد تزلزل كيان قد بلغ به الصدق مبلغه، كان قد تجهز لإحدىٰ الحسنيين، فلما فوجئ أنه لن يتمكن اليوم من نيل هذا الشرف؛ تجمع كل سيل هذا الصدق والإخلاص والشوق، وصعد فياضًا إلىٰ المآقىٰ، ليتفجر أنهارًا من دموع الأسف؛ حارة، تخالط حرارتها نكهة الصدق وطعم الإيمان.

لقد رجع الصادقون المشتاقون، وأعينهم تفيض من الدمع، حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون.

شتان شتان بين سلوكهم، وبين سلوك من سبقهم من المعذرين

هؤلاء حزانىٰ علىٰ حرمان الطاعة وأولئك يطربون ويفرحون للخلاص منها،

هؤلاء صادقون نالوا أجر كل مسير يسار، وكل واد يقطع، بصدقهم وإخلاصهم،

وأولئك أعقبوا نفاقًا في قلوبهم، بكذبهم وإخلافهم وعدهم مع ربهم

والأدهىٰ من كل ذلك؛ والأغرب من مجرد تفويتهم طاعة ربهم فرحهم بذلك البوار والحرمان العظيم!

وشتان بين هؤلاء الصادقين بنياتهم مشفوعة بهمهم العالية، وإقدامهم المبكر الأمين، وحزنهم العميق علي فوات أسباب العمل الصالح عليهم، وبين هؤلاء المعذرين بتباطئهم وتكاسلهم الذي انبثق عن صريح نفاقهم، والذىٰ ربما أسعدهم سعادة عارضة منقوصة لا يلبث أن أن يعقبها ندم العمر وخسران الدهر.

❀ ❀ ❀

والذي انتكست فطرته وانقلبت معاييره وحادت مفاهيمه وتبلدت مشاعره الإيمانية يفرح بتقصيره وعصيانه بدلًا من الحزن والندم

ومثله في ذلك كمثل الأجرب، الذي لا يريحه إلا ما يؤلم الصحيح المعافىٰ

إنه لا يرتاح إلا بحك جلده ربما حتىٰ يدميه ولو صح جلده لتألم لذلك الحك الشديد

لكنه المرض

وما أقبح ذاك المرض إن كان في القلب!

نعم قلب المنافق عياذًا بالله هو قلب أجرب، لا يسعده إلا تمزيقه بالفجور والعصيان،

وعن هؤلاء قال ربنا في الكاشفة الفاضحة المعروفة باسم سورة التوبة:

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾،

سحقًا لهم، أبهذا فرحوا، ولهذا ضحكوا، أو هذا ما أحبوا

تخلفهم وتوليهم؟!

أو هكذا يتفاوت ميزان الفرح والحزن، وتتباين معايير الضحك والبكاء؟؟!

فمن ضحك لتخاذل وانبطاح، إلىٰ بكاء لفوات بذل وتضحية وعطاء، وما بين هذا وذاك تتباين قلوب الناس

ترىٰ . .

بأي شيء تفرح قلوبنا، وعلىٰ أي شيء تتحسر؟

من أي شيء تضحك، وعلىٰ أي شيء تبكي؟؟

أيبكيها ما يُبكِىٰ الصادقين، أم يضحكها ما يُضحك المسرفين؟!

هنا المحك، ومربط الفرس؛ وهذا هو المعيار والمسبار وتلك هي الكاشفة الفاضحة

❁ ❁ ❁

ويبكي الصالحون علىٰ فوات الطاعات والقربات والحرمان من البذل والتضحيات ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾

بينما لمثل ذلك يضحك آخرون وبتقصيرهم يفرحون وبشحهم يسعدون وبإبطائهم عن مواطن الخير يتنعمون وبلسان حالهم يقولون ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾

فتدبر الفارق

❁ ❁ ❁

وحين تردد النداء مدويًّا في جنبات المدينة: يا خيل الله اركبي

بدأ الجميع يتجهزون أنفسهم ويعدون العدة لسفر طويل هم مقبلون عليه،

إنها مسيرة شهر كامل، في هذا الوقت من العام؛ من القيظ الحارق والحر الشديد!

ظروف قاسية، تحتاج إلىٰ إعداد بالغ، وتجهز كاف، يعين علىٰ لأواء تلك العسرة، والتىٰ لم تكن علىٰ بال، في تلك الظروف . .

وبينما الكل في جده واجتهاده وتجهزه وإعداده، إذ بدأ الطابور الخامس والسوس الذي لا تخلو منه أمة، ينخر في أعمدة الهمة، التي تعلو وتلتهب في أرجاء «طيبة» الطيبة.

فما بين معوق ومثبط ومرجف ومشكك؛ مارس ذلك الطابور هوايته الكئيبة.

هاهي مجموعة تقف في الظل، ترقب المجدين، في تراخ واسترخاء، قائلة في تكاسل: لا تنفروا في الحر

فيأتيها الرد تتلوه شفاه شققها قيظ الصيف المتقد صادعًا بقول الحق: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾

وهاهي مجموعة أخرىٰ من طابور الحقد ترقب من يأتىٰ باليسير من المال أو ببعض تمرات لم يجد غيرها ليعين بها في تجهيز بها جيش العسرة، فيلمزونه في الصدقات، ويسخرون من القليل الذي جاء به، رغم أنه لا يملك غيره، وخير الصدقة جهد المقل.

ومجموعة ثالثة ورابعة وخامسة، زرافات ووحدانًا، لا هم لهم إلا التثبيط والإرجاف والتعويق عن إجابة داعي الله، والاستجابة لمنادي الجهاد.

حتىٰ جاءت اللحظة الحاسمة، وحان وقت التحرك، وبدأت خيل الله في الركوب، واستعدت لملاقاة مدلهم الخطوب.

هنا بدأ المعذرون في الإقبال علىٰ الرسول القائد ﷺ

وهكذا دأب أهل النفاق في كل زمان

إن لم يتمكنوا من التعويق والإبطاء لجئوا إلىٰ الأكاذيب والمعاذير

المهم ألا يبذلوا أو يقدموا شيئًا وأن تظل صورتهم أمام الناس مزينة بتبريراتهم ومعاذيرهم الواهية

لكن مهما تعذَّروا وتجمَّلوا وتزينوا فحقيقتهم معلومة لا تخفىٰ علىٰ أولي

الألباب وكفىٰ بالله شهيدًا علىٰ ما في قلوبهم وهو يعلم إسرارهم

❁ ❁ ❁

ولقد تنوعت المعاذير وتعددت أسباب الهروب

فمنهم من قال ائذن لي ولا تفتني؛ فلست أقدر علىٰ نساء بني الأصفر، فأخشىٰ أن يغويني حسنهن وسحرهن،

ومنهم من تحجج بالحر الشديد، ومنهم من تعذر بثمار دانية قد آن قطافها، ومنهم تلكأ ومنهم من تثاقل وقال بلسان الحال وربما المقال: لو كان عرضًا قريبًا وسفرًا قاصدًا لا تبعتك، لكنه والله سفر بعيد؛ بعدت عليّ شقته ولا أقوىٰ عليه

ومنهم من يحلف بأغلظ الأيمان أنه لا يستطيع الخروج، متعللًا بعذرٍ فارغٍ وعلةٍ تافهةٍ جوفاء،

ونبي الرحمة يحملهم علىٰ ظاهر قسمهم، ويذر حسابهم علىٰ ربهم ويأذن لهم

وما إن خرجت أفواج المعذرين من عند رسول الله ﷺ حتىٰ تلاشت علامات الحزن الكاذب من علىٰ وجوه أكثرهم، فتهللت الأسارير وتراقصت القلوب المريضة فرحًا بمقعدهم خلاف رسول الله،

ويالها فرحة مقززة بتخلفهم عن ركب الفداء والتضحية، وضحكات فاجرة تتعالىٰ في الأسواق، وقد ظنوا أنهم خادعو الله وهو خادعهم

ولو خرجوا في المؤمنين ما زادوهم إلا خبالًا، ولأوضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة، وفي المؤمنين من يسمع لهم، لكن كره الله انبعاثهم، وطمس

علىٰ قلوبهم بنفاقهم وكذبهم، فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين.

﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

❁ ❁ ❁

أيام خمسون مرت

تجرع فيهم مرارات الندم وقسوة الألم وحده

لكنه كان يوقن أن ما اقترفه واكتسبه، هو سبب ما آل إليه حاله، ولا يظلم ربك أحدًا،

إنه يتألم، ولكنه أيضًا يتصبر،

وبينما تختلج في صدره الأفكار والهموم، وتتوارد عليه الذكريات، قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، بل حتىٰ نفسه التي بين جنبيه تسعه، وبينما الدنيا سوداء كالحة، والأفق كئيب مظلم في عينيه،

إذا بصوت يشق سكون الكون؛ وإذا بمن ينادىٰ من بعيد، بنداء يخترق مجال السمع الرتيب،

نداء أعاد إليه حياة كادت تفارقه، يحمل البشارة، يا لها من بشارة! قد شرحت له صدرًا، وأقرت لها عينًا، وأضاءت له قلبًا، وطمأنت له نفسًا،

أحقُ ما أسمع؟!

بصدق يقول المنادي أبشر؟!

أو يُعقل؟!!

أواقع أم خيال، أهو حلم جميل، أم وهم نفس؟!

أعد عليه أيها البشير، وأطرب قلبه المسكين النادم المتحسر المتشقق الكسير،

تقول: أبشر؟!!

نعم نعم يسمعها جيدًا ترددها جبال طيبة الطيبة رغم أن الفرس التي تطير عل متنها لم تصل بعد

لكن؛

كيف يستبشر وقد تخلف؟

كيف يستبشر وقد خرج الضعفاء والذين لا يجد النبي ﷺ ظهرًا يحملهم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع، بينما قعد وتجتمع عنده دابتان معًا في آن؟

كيف يستبشر ولم يتبع حبيبه في ساعة العسرة؟

كيف يستبشر وقد أطمع فيه الكفار، فظنوه منافقًا يمكن استمالته، وكاتبوه يبغون لحاقه بهم؟!

لا بشرىٰ تعزيه إلا بشارة بتوبة من الله، فهل هي ما عندك أيها البشير؟!

إذن؛

فالله أكبر،

الله أكبر،

لك ثوباىٰ أكسوكهما جزاء مثل هذه البشارة، والله ليس لدىٰ اليوم غيرهما،

هَلُم به إلىٰ حبيبه، يسمعها منه، ويمتع برؤيته نظره، وبكلامه سمعه،

(أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك)!!

يا إلهي . . ما أعذب هذه الكلمة!

لكم اشتاق كعب بن مالك إليها أيامًا وليالي كان رفيقه فيها الدمع، وصاحبه فيها الألم، وقرينه الندم،

ما أجملها من كلمة، حين تخرج من بين شفتي الحبيب ﷺ ووجهه يبرق بالفرح،

ولقد استحقها كعب رضي الله عنه،

استحقها لصدقه،

واستحقها لصبره،

واستحقها لندمه، وتوبته التي كانت فرعًا عن صدق قلبه،

ما أحوجنا إلىٰ هذا اليوم،

إلىٰ خير يوم؛

يوم أن يتوب الله علينا ويغفر ذنوبنا،

يوم أن ينقىٰ القلب من الدنس، وتغسل الصحيفة من ذنوب أثقلت الكاهل، ودنست النفس،

إنه حقًّا هو خير يوم

يوم المغفرة،

إنه يوم لا يكون إلا للصادقين؛

الصادقين المخلصين، الذين تتحرق قلوبهم شوقًا لإرضاء مولاهم بكل ما يملكون، والذين لا يحزنهم إلا عدم تمكنهم من طاعة، أو تقصيرهم في

قربىٰ، وأولئك لهم الخيرات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

اللهم اجعلنا منهم واحشرنا معهم.

❀ ❀ ❀

﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾

إنها الوسيلة والغاية تعرضهما الآية بوضوح كاشف فاضح لسبيل المنافقين

تكسير لأواصر الأمة وتوهين للروابط بين المؤمنين

والمبتغىٰ والغاية من ذلك الفتنة

هكذا ببساطة حاسمة

وليس هذا مستغربًا منهم بل هو متوقع وطبيعي من أمثالهم لكن العجب الحقيقي في من يعطيهم الفرصة علىٰ طبق من ذهب حين يسلمهم أذنيه وقلبه

العجب الحقيقي في السماعين

﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ﴾

❀ ❀ ❀

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾

وهل العسرة ساعة؟!

وهل تلك الغزوة الصعبة التي يبلغ مسيرها وحده شهرًا كاملًا تسمىٰ بساعة؟!

هل تلك الأيام القاسية والأسابيع الشديدة والأوقات الطويلة يُقال لها ساعة؟!

أم أن العسرة الحقيقية في ساعة الخيار

في لحظات اتخاذ القرار

تلك الساعة التي يختار فيها المسلم أن يمضي وأن يتبع ويطيع رغم الظروف الصعبة والتحديات المريرة

تلك هي الساعة العسيرة فإن أحسن الاختيار فما بعدها بإذن الله . . . أيسر

❁ ❁ ❁

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾

تأمل . . . لنا

لم يقل كتب الله علينا رغم أن السياق سياق بلاء ومشقة ومصاب والعادة أن مثل ذلك يقال عنه مكتوب عليه وليس له

لكن أمر المؤمن كله خيرًا وخصوصًا إن كان في ذات الله جل وعلا فإن المكتوب خيرًا فهو له في العاجلة وإن كان شرًا فإنه يبتغي به رفعة الدرجات وهو له ثواب في الآخرة

المهم أن يكون علىٰ مراد الله متوكلًا عليه مقرًا أنه لن يصيبه شيء إلا بإذن مولاه

❁ ❁ ❁

ومهما بلغت كرامة العمل وصلاحه ومهما علا مقامه وعُرف فضله فإن فساد النية ليس فقط كفيلًا بضياع فضله بل بتحويله وتغيير صفته من صالح إلىٰ فاسد ومن حق إلىٰ باطل

ورغم أن النية الصالحة لا تؤثر في العمل الفاسد فإن النية الفاسدة تؤثر في العمل الصالح وما من شاهد علىٰ ذلك أوضح من ذلك المسجد الضرار

لقد بنوا مسجدًا

يا له من عمل عظيم

لكن النية الفاسدة أزالت عظمته وحولتها إلىٰ بطلان وتفريق بين المؤمنين ونهىٰ الله رسوله عن الصلاة فيه أبدًا

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ﴾ . . .

وكم من أعمال ظاهرها الصلاح والإصلاح وحقيقتها الضرار والتفريق والإرصاد أفسدتها النية وأضاع فضلها سوء الطوية وخسة الهدف والغاية

❁ ❁ ❁

وإن كان إخلاف العهد من خصال النفاق فإن من عقوباته مزيدًا من النفاق

خصوصًا إن كان إخلافًا لعهدٍ مع الله

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾

لم يكونوا علىٰ قدر المسئولية ولم يرعوا العهد حق رعايته فكانت العقوبة

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾

حذار من إخلاف العهد

خصوصًا العهد معه

مع الله

* * *

وسورة التوبة من أواخر السور التي نزلت علىٰ النبي ﷺ

ولقد تكررت في السورة كلمة «التوبة» ومشتقاتها سبعة عشر مرة

كأن بعد كل كشف لتلك الجرائم التي فضحتها السورة تجد تلك الإشارة والتوجيه إلىٰ أن باب التوبة لم يزل مفتوحًا لا يُغلق حتىٰ تطلع الشمس من مغربها

ولتعلموا ذلك في آخر أيام تلك الرسالة وأحد أهم بياناتها الختامية

لتعلموا أنه مهما كانت الجريمة فظيعة ومهما كانت الفضيحة قاسية ومهما كان الكشف مُريعًا لا بد أن تدرك دائمًا في هذه السورة بل في هذه الرسالة الختامية علىٰ النبي ﷺ أنه ما زالت هناك فرصة للتوبة

هنا يهفو القلب حين يتذكر تلك البشارة المشرقة التي تعلنها السورة باهرة حاسمة تفيض بالأمل

بشارة ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

عندئذ يستبشر القلب وتضيء الروح بأنوار الأمل ويسارع إلىٰ تلك الرحاب الوارفة ليستظل بسحائب الرحمة والمغفرة بعد القبول

❁ ❁ ❁

والدعوة عامة للجميع

دعوة التوبة في سورة التوبة عامة شاملة

الكل تقريبًا بلا استثناء يُذكر مخاطب بالتوبة

فتجد الخطاب بالتوبة مع الكفار:

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾، الكلام للمشركين: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

وقوله: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾

فإن أدركوا التوبة قبل طلوع الشمس من مغربها صاروا إخوانكم وفُتح الباب لهم ليلجوا معكم.

ومع المنافقين:

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

بعد كل جرائمهم؟!

بعد النفاق وإظهار الإيمان وإبطال الكفر؟!

بعد لمز المؤمنين وتخذيلهم؟

الجواب: نعم،

رغم كل تلك الجرائم التي اقترفها المنافقون وغيرها مما احتشدت به سورة التوبة فإن الله يقول لهم: ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

فسبحان التواب . .

ومع المترددين الذين لم يتخذوا قرارًا فصلًا في حياتهم:

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

ومع المقصرين ومن خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

بل مع مع كل العباد:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

إن سورة التوبة من الرسائل الختامية فلا بد إذن أن تشتمل علىٰ دعوة الجميع للتوبة . .

والجميع هنا بمعنىٰ الجميع وبدون استثناء . .

الكل مخاطب بالتوبة . .

حتىٰ مع النبي ﷺ ومع المهاجرين والأنصار: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

النبي ﷺ أفضل الخلق جميعًا والمهاجرون والأنصار والصحابة وهم أفضل الخلق بعد الأنبياء،

كلهم عليهم أن يتوبوا لربهم

كل هذه الدعوات للتوبة سواءً كانت عامة وشاملة أو معينة مشخصنة نتعرف من خلالها علىٰ قيمة التوبة في السورة وهذا لن يكون إلا حينما نتعرف علىٰ مدىٰ احتياجنا الحقيقي لتلك التوبة.

سورة يونس

كم كان الندم والاعتراف بالذنب سبيلًا إلىٰ كشف البلاء وتفريج الكربات

لتدرك ذلك تأمل كلمات يونس ﷺ التي اخترقت حجب الظلمات المتراكبة لتفتح فيها طريقًا ينفذ منه نور النجاة وضياء التفريج مبددًا سواد الغم والهم وكاشفًا لغيوم البلاء والكرب

كم نحتاج لنفسيات تقبل أن تقول يومًا: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

❊ ❊ ❊

﴿يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾

تأمل كلمة ﴿يَرْجُونَ﴾ يرجون اللقاء

لقاء من؟!

إنه لقاء الله . .

الأمر ليس قاصرًا علىٰ مجرد المعرفة والإقرار

بل هو الرجاء والانتظار

لا بد من علم عملي ومعتقد مُفَعَّل إن لم يكن موجودًا فتأمل آخر الآية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا

غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾

لا بد أن يرجو اللقاء،

ينتظره،

يعد له العدة،

ويتجهز . .

هل مررت من قبل بتجربة آل (إنترفيو)؟

الإنترفيو معناه بالعربية مقابلة أو لقاء وقد اصطُلح علىٰ استعماله لوصف المقابلة التي يجريها صاحب العمل أو من ينوب عنه للمتقدمين إلىٰ وظيفة ما

حضرتك بقىٰ رحت قبل كدة مقابلة من نوع آل (إنترفيو) ده؟

هل تتذكر موعدًا مهمًّا أو لقاءً مصيريًّا يتحدد علىٰ أساسه مستقبل أمر معين يهمك؟

هل تتذكر شعورك حين الدخول علىٰ أستاذك الجامعي في امتحان الشفوي، أو شعورك وأنت تستعد لملاقاة رئيس عملك الذي أرسل في طلبك ليسألك ويحاسبك علىٰ مستواك المهني أو (التارجت) المطلوب منك تحقيقه؟

كيف كان إحساسك وأنت رايح تخطب وستقابل لأول مرة والد العروس التي تتمنىٰ زواجها؟

أمل . .

خوف . .

قلق . .

رجاء . .

رهبة . .

رغبة . .

مشاعر كثيرة متباينة يجمعها شيء واحد

إنه الاستعداد النفسي واليقين بحدوث اللقاء والذي يتبعه -غالبًا- استعداد مادي وتجهز لهذا اللقاء

يعني مثلًا ستجهز الإجابات اللي هتقولها

ستحسن مظهرك علىٰ قد ما تقدر وترتدي (الحتة اللي علىٰ الحبل)

هتذاكر كويس لو المقابلة محتاجة مذاكرة

وستسأل عن صفات من ستقابله وتقف أمامه لعلك تستنتج منها طبيعة الأسئلة والأشياء التي سترضيه في تلك المقابلة المصيرية

وربما ستحاول أن تسأل عن هؤلاء الذين نجحوا ورضي عنهم الممتحن أو المقابل؛ كيف نجحوا وكيف أرضوه؟

وهكذا . .

تصور أننا نفعل كل هذا لأجل لقاء أو مقابلة دنيوية

مقابلة مهما كانت أهميتها فإن ما سينبني عليها لا يداني ما سينتج عن اللقاء الآخر

اللقاء الأهم الذي ليس كمثله شيء

اللقاء الذي ستنبني علىٰ نتائجه حياتك السرمدية لملايين من السنين اللانهائية

اللقاء الحق . .

لقاء الله جل وعلا وله المثل الأعلىٰ

اللقاء الذي حدثك عنه رسول الله كثيرًا والذي ناجىٰ به ربه مصدقًا ومقررًا لحقيقته فقال: (ولقاؤك حق)

هذا هو الفارق الرئيسي بين من يعد العدة للقاءات الدنيا الفانية بينما يتغافل عن ذلك اللقاء وبين من ينتبه ويعلم جيدًا ولا يغفل عن حقيقة اللقاء

فارق يتلخص في كلمة حاسمة تبين ذلك البون الشاسع بين مجرد المعرفة النظرية المتغافلة وبين الحياة بتلك المعرفة

كلمة (حق)

في لقاء الدنيا أو مقابلة العمل (الإنترفيو) فإنك قد صدقت أنه حق أنت مقبل عليه لا محالة فانتبهت.

أنت أيقنت أنه واقع غدًا أو بعد غدٍ فأعددت واستعددت.

أنت أدركت أنه سيؤثر علىٰ حياتك ومستقبلك فرجوت . .

وربما نكون كذلك في لقاء الآخرة نظريًّا لكننا للأسف نغفل وننسىٰ أو نتناسىٰ

نعم نعم . . . أعرف جيدًا أننا لا ننكره . .

ومن ينكر ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ و﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾؟

من ينكر ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؟

لكن العبرة ليست فقط في عدم الإنكار النظري.

العبرة بما فعلنا وتعاملنا وليس فقط بما ادعينا

وبما أعددنا واستعددنا

ترىٰ هل استعددنا لهذا اللقاء؟

هل معرفتنا بوقوعه هي معرفة نظرية جوفاء أم هي حقيقة نحيا بها وتملأ قلوبنا؟

حقيقة أننا سنلاقيه

سنلاقي الله . .

وسنقف بين يديه . .

وسيسألنا عن الصغير والكبير وعن النقير والقطمير

فهل أعددنا الإجابة؟

والأهم . . .

هل رجونا اللقاء؟!

❀ ❀ ❀

وأهم ما يقلل أو يمحو من القلب رجاء لقاء الآخرة هو الرضا بالعاجلة

إنه ليس مجرد حب للدنيا ولا رغبة عارمة في التقلب بين متاعها

إنه الرضا بها

الركون لشهواتها وملذاتها

تلك الشهوات والملذات هي منتهىٰ الأمل لدىٰ هؤلاء وهي غاية الأماني والطموحات

﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

هذا الرضا مذموم في ذلك السياق مرفوض في هذا المقام؛ لأنه ليس رضا بالمقسوم ولكنه اكتفاء وانتهاء بالفانية عن الباقية

إنه رضا لا يرضاه الله؛ لأنه معطل عن سلوك سبيل رضاه وقاطع للطمع فيما رغب فيه عباده وارتضاه

وبسببه صاروا لا يرجون لقاء الله

❁ ❁ ❁

﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾

إنه المعطل الثاني والمزيل التالي لذلك الرجاء في لقاء الله

فبعد أن رضي الغافل بشهواتها يأتي وقت الاطمئنان بأسبابها

هنا تتصدر في نفسه مبادئ المادية القاسية ويصير من معه قرش يساوي قرشًا ومن كان له ظهر لا يضرب علىٰ بطن إلىٰ آخر تلك القواعد الدنيوية الجافة

لكن شهوات الدنيا دائمًا معكرة مدخولة وعند مرحلة ما تكون أسبابها عاجزة معلولة

لذلك تجد حقيقة رضاه بها منقوصًا واطمئنانه بأسبابها مؤقتًا ثم لا يلبث إلا ويصطدم رأسه بجناح البعوضة وتزكم أنفه رائحة جيفة الجدي الأسك المنتنة ليعلم أن الذي له ظهر أيضًا يأتي عليه يوم يضرب فيه علىٰ بطنه ممن له ظهر أقوىٰ . .

لذا فحتىٰ هؤلاء المتقلبين في شهواتها والراضين بها والمطمئنين

بأسبابها هم في حقيقة الأمر غير مكتملي الراحة فهم في النهاية لم يأووا إلىٰ ركن شديد

ولم يرجوها في العاجلة فكانت العاقبة حرمانًا منها في الآخرة

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

❀ ❀ ❀

والبعض يفهم الزهد في الدنيا علىٰ أنه تكلُّف الفقر، وشظف العيش، ولزوم الخشن من الثياب، وتناول الرديء من الطعام، وترك التمتع بما أحل الله من الطيبات!

فتأمَّل تلك الأفعال جيدًا .. وسل نفسك أين أصلها ومحلها؟

﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ ..

﴿يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾

﴿يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾

إن تلك الأفعال ختمت آياتها جميعًا بالوعيد وببيان أن مصير مقترفيها هو العذاب وهذا هو المذموم من أمر الدنيا

إذن فالمذموم من أمر الدنيا في كتاب الله هو إرادتها ورجاؤها والرضا بها وليس مطلق التمتع بمتاعها والمشي في مناكبها كما يظن بعض المتزهدين

وهذا الظن يناقض حال سيد الزاهدين رسول الله ﷺ .. فهو لم يطلب الفقر أبدًا ولم يسعَ إليه قط،

بل الصحيح أنه كان يتعوَّذ منه مُقرِنًا ذلك بتعوذه من الكفر . .

فهل يتصور عاقل أن يتعوَّذ النبي ﷺ من شيء يتقرَّب به إلىٰ الله؟!

الجواب: لا .

رسول الله ما طلب الفقر ولكنه رضي وصبر حين ابتلي به . .

ما سخط علىٰ نقص طعام وما ضايقته خشونة ثوب . .

وحين فُتِحَت الدنيا وجاء المال أنفق نفقة الزاهد الذي لم تتسرَّب الدنيا إلىٰ قلبه لحظة حتىٰ صاح من رأىٰ عين الزهد في تلك النفقة: «إن محمدًا يُنفِق نفقة من لا يخشىٰ الفقر أبدًا».

هذه هي حقيقة الزهد ومعيار التعامل الصحيح مع الدنيا . .

تُقبِل أو تُدبِر . .

يُعطىٰ المرء أو يُمنع . .

كل ذلك عنده سواء . .

لا تتسرَّب الدنيا إلىٰ صدره فيفرح بإقبالها، ولا تتمكن من نفسه فيحزن لإدبارها، فإرادتها لم تسكن روحه ولا لامست شغاف قلبه . .

وبهذا المعيار قد تجد أكثر الناس مالًا وولدًا بينما قلبه مفعم بالزهد مستعد للبذل مائل للعطاء . .

وعلىٰ النقيض قد ترىٰ أقل الناس مالًا وأشدهم فقرًا وأغلظهم عيشًا ومع ذلك يُمزِّق الطمع نياط قلبه، وتُمزِّق الشهوات نفسه؛ فهو علىٰ فقرة وشظف عيشه أبعد ما يكون عن الزهد!

فالقضية ليست في ما معك أو ليس معك؛ القضية هاهنا بمرادك وسعيك

ومبتغاك ومنتهىٰ أملك .. فتلمَّس حال قلبك ..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾

❀ ❀ ❀

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾

الاحتمالان قائمان إذن

أن ترىٰ

أو لا تعيش لترىٰ

هذا وارد وذاك أيضًا ..

لكن التصديق ليس خاضعًا للاحتمال

وقد وعدت خديجة بين المؤمنين لكنها ماتت في الشعب ولم تشهد أي فتح أو نصر

ومات مصعب وحمزة في أحد دون أن يريا تمكينًا أو فتحًا لمكة

مع ذلك ظل اليقين وظل العمل والثبات والتصديق بموعود الله حتىٰ إدراكه أو الممات

وهكذا تعامل الوعود الربانية

يقين وتصديق بغير اشتراط أو تكلف تعيين

وهذا اليقين هو الذين يهون به الله علىٰ المؤمن مصائب الدنيا ويعينه

علىٰ تقلبات الأحداث ويعطيه الرصيد النفسي الذي يدفعه لإكمال الطريق دون استعجال الثمرة أو التململ أثناء طريقها فيظل اعتقاده بمعزل عن مصلحته العاجلة ويقينه منفصل عن أهوائه وشهواته الآنية

وحيث أنه لا ارتباط بين المتغيرات والحوادث وبين ما يصدقه فإن منحنىٰ اليقين والتصديق والأمل لديه ثابت راسخ . . .

سواء رأىٰ الموعود أو لم يره

سورة هود

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾

شقاقه؟!

عداوته وبغضاءه وفراقه

هكذا عامله قومه

وهكذا علم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ مشاعرهم تجاهه

جهر بالعداوة ورغبة في المفارقة وإبداء للبغضاء والكراهية

لكن مع هذا الشقاق وتلك العدواة لم يزل الحرص ولم تغادر نفسه الرغبة في هداية قومه

لم يتحول عداؤهم له وبغضهم إياه إلىٰ رغبة انتقامية أو نزعة عقابية في نفسه مباشرة بل بقيت مهمته الأساسية ورسالته الرئيسية ماثلة أمام عينيه

مهمة الهداية والإصلاح ما استطاع

لم تكن قضيته شخصية ولم يجعل ذاته محورًا للمعاملة مع المدعويين ولم يعتبر عداوتهم إياه وشقاقهم له سببًا كافيًا لإنهاء مهمته العظمىٰ بل استمر الخطاب الحسن والموعظة الحكيمة التي تقطر حرصًا علىٰ من يعادونه ووخوفًا علىٰ يجهرون بمفارقته من مصير محتوم يؤدي إليه ما يفعلوه

لا يحملنكم شقاقي علىٰ أن تهلكوا أنفسكم وتنالوا مصير الأمم السابقة

لا تدفعكم عداوتي وبغضي إلىٰ أن تجرموا في حق أنفسكم وتسلكوا سبيل العذاب

لا تجعلوا مشكلتكم معي سببًا علة لترككم الدين وبعدكم عن رب العالمين

هكذا يكون التجرد

وهكذا يحدث الإصلاح

حين يتجاوز حامل الرسالة شخصه وينظر فقط إلىٰ هدفه ولا يجعل ذاته محورًا تدور حوله معاملاته وأحكامه علىٰ الناس

سلام علىٰ شعيب

وسلام علىٰ المتجردين في كل زمان

❀ ❀ ❀

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾،

وهذا حال معشر الأنبياء ومن سار علىٰ دأبهم من المخلصين الصادقين،

لسان حالهم: لا نريد منكم جزاءً ولا شكورًا، ولا نسألكم أجرًا، ولا ننظر إلىٰ متاع الدنيا الزائل الذي في أيديكم، فلا تخشوا علىٰ دنياكم منا فلسنا طلابًا لها، ولا نبتغي بدعوتكم إلا ثواب الآخرة، والأجر من الله،

هكذا تكون الدعوات المباركة،

دعوات الأنبياء التي كانت كالريح المرسلة، تحمل الخير، ولا ترتحل بشيء مقابله،

تلك الدعوات التي تترفع عن عرض الدنيا، ولا ترغب فيما عند الناس، ولا يطمع حاملوها في شيء مقابلها؛ سواءً أكان مالًا أم منصبًا أو كثرة أتباع، فلا تنكسر لظالم، ولا تذل لغني، بل تظل دعوة عزيزة مرفوعة الرأس، حتىٰ وإن كان من يحملونها أفقر الناس وأشدهم حاجة، لكن يبقىٰ شعارهم كما سيقولون يوم القيامة: تركنا الناس ونحن أحوج ما نكون إليهم،

❁ ❁ ❁

﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾

وسؤال الأجر لا يشترط أن يكون مالًا كما يظن البعض

قد الأجر يكون جاهًا أو مكانةً أو منصبًا أو ثناءً

حتىٰ الرغبة في الاتباع الأعمىٰ من المدعوين قد يكون أجرًا لصاحب الدعوة

وكل ذلك مما يعكر نقاء تلك الدعوة ويهز مصداقيتها وقد يقدح في إخلاصها

ويبقىٰ شعار الأنبياء عليهم السلام ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ ناصعًا نقيًّا نافيًا انتظار الأجر . .

أي أجر

❁ ❁ ❁

﴿يَـٰنُوحُ قَدۡ جَـٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾

وكذلك ضعفاء الحجة ومنعدمو المنطق؛

حين يعجزهم حامل الحق بحجته، ويعييهم منطقه يسارعون إلي مطالبته بما يعتقدونه من التحدي والتعجيز،

فهلا تردون علىٰ حجته ومنطقه بدلًا من وصفها بالجدال؟!

وهل إثبات صدقه ينفعكم إذا جاءكم ما طلبتم واستعجلتم؟

أم أنه الكبر الذي تمكن من نفوسكم؟!

والعلو الذي استشرىٰ في مجتمعكم فاستحققتم ما سيصيبكم،

استحققتم أن تطهر الأرض منكم، ويغسل ظاهرها من تعاليكم

استحققتم الطوفان

❁ ❁ ❁

﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثۡلَنَا﴾

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾

﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَـٰذِبِينَ﴾

لا جديد تحت الشمس.

هذا ما يقولونه منذ ألف سنة إلا خمسين عامًا!

بل هذا ما يقوله وسيقوله العالون المتكبرون في كل زمان ومكان،

هي نظرة العلو والاستغراق في استعظام النفس والاستكبار في الأرض،

هي عجرفة فرعون، وعلو النمرود، وغرور ملك الأخدود، وكبر قوم عاد وثمود.

وكأنها صفات وراثية تتكرر في متكبري كل جيل، لتقف حائلًا بين المترفين المنعمين وبين الهداية لصراط الله المستقيم،

ألفاظ تتكرر في كل جيل باختلافات بسيطة لا تغير المعنىٰ الثابت، ولا تهز الفكرة الراسخة في قلوب الطاغين،

فكرة الاغترار والاستعلاء بالقوة،

بالجاه،

بالنسب،

بالسلطان،

بالمال،

إنها الفكرة الذي ستدفع فرعون لأن يقول بعد قرون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾،

والتي ستدفعه بعد ذلك لأن يقول: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾،

إنها الفكرة الذي ستدفع أهل مدين لأن يقولوا لشعيب: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾،

والتي ستدفع أكابر قريش لأن يقولوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾،

والتي ستدفع مترفىٰ كل قرية وأكابر مجرميها ليمكروا فيها، لا لشيء إلا استكبارًا في الأرض، ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

لقد خبر نوح هذه الأفكار الاستعلائية جيدًا، وعلم أنها الحائل الأكبر الذي حجب الهداية عن أولئك المستكبرين.

❊ ❊ ❊

وتلك الطبقية المقيتة لا محل لها في واحات الهداية المظللة بظلال الأخوة الإيمانية الوارفة، والتي لا تميز غنيًّا ولا فقيرًا ولا قويًّا ولا ضعيفًا ولا سيدًا ولا عبدًا . .

الكل أمام الهداية سواءً كأسنان المشط، لا يتفاضلون إلا بقبولهم لهدىٰ الله الذي أنزل إليهم . .

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

أفيطردهم لأنهم فقراء؟!

هل تطلبون دينًا طبقيًّا لا مكان فيه للبسطاء؟!

وحتىٰ لو كنتم تتهمونهم بالسفول والدنو، فقد أقبلوا علىٰ الله وأنابوا إليه، فهل نقطع عليهم طريق هدايتهم بسبب رقة حالهم؟! أي منطق هذا؟!

بل أي ظلم وأي تجبر؟

و كأنكم أيها الأكابر الأغنياء ترون أن أولئك البسطاء لا يرقون لمنزلة البشر، ولا يستحقون عيشًا كريمًا لا في الدنيا ولا حتىٰ في الآخرة،

الذين قلتم عنهم إنهم أراذلكم، وازدرتهم أعينكم، هم بشر أيضًا مثلي ومثلكم،

لا فضل لأحدنا علىٰ الآخر إلا بما يعلمه الله في نفسه من التقوىٰ،

أنتم أيها الكبراء من زعمتم لأنفسكم فضلًا علىٰ غيركم،

وهكذا حال المستكبرين في كل زمان،

يرمون من يدعونهم إلىٰ الخير بتهمة التكبر والرغبة في الرياسة عليهم، والحق أنما ذلك داؤهم وتلك آفتهم، وكما قال الأولون: رمتنىٰ بدائها وانسلت . .

إنه الكبر الذي تمكن من نفوسهم

والعلو الذي استشرىٰ في مجتمعهم فاستحقوا أن تطهر الأرض منهم، ويغسل ظاهرها من تعاليهم

وليأت جيل جديد قد طَهُرَ من تلك الأفكار المريضة

ولينشأ مجتمع لا مكان فيه لتفاضل بجاه أو بمال أو بنسب أو بمنصب

ولو كان هذا النسب لأقربكم إلىٰ الله

ولو كان نسبًا مباشرًا لنبي ورسول

ولو كان ابن نوح نفسه فلن تغنيه بنوَّته من الله شيئًا

إنه المعيار الذي لم يعرفه الهالكون في الطوفان

لم يعرفه الغارقون في أمواج العلو والاستكبار

معيار التقوىٰ والعمل الصالح

المعيار الذي من دونه لم يغن نوح عن ولده وزوجه،

ولم يغنِ لوط عن امرأته،

ولم يغنِ إبراهيم عن أبيه،

ولم يغنِ محمد عن عمه،

بل حتىٰ ابنته التي هي من خير نساء الدنيا؛ قال لها: (اعملي فلن أغني عنك من الله شيئًا)!

ابنته التي قال يومًا أنها لو سرقت -وحاشاها أن تفعل- لَقَطَعَ يدها

هذا هو معيار التفضيل الحق، ومناط النجاة الوحيد الذي كان ينبغي أن يظهر في الأرض، وأن تطهر المعمورة من خلافه، فتغسل من أدران الطبقية والتعالي والتفاخر بالأنساب والأموال، التي جُعلت ردحًا طويلًا من الزمان حائلًا بين المتكبرين وتوحيد ربهم، وأغرقتهم في بحار الشرك، قبل أن تغرقهم أمواج الطوفان المتلاطمة العاتية

❁ ❁ ❁

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

كان هذا هو الرد الأخير من نبي الله نوح علىٰ أول ما قالوه عنه

لقد اختار أن يؤجل الدفع عن نفسه لما بعد الدفع عن إخوانه وأتباعه الفقراء الذين خاض المستكبرون فيهم

تقولون ما هو إلا بشر مثلكم وليس له فضل عليكم؟!

فوالله ما جاوز ذلك يومًا، ولا ادعىٰ غيره

وها هو ذا يؤكد مرة أخرىٰ علىٰ هذا المعنىٰ

نعم لم يقل إنه ملك، ولم يدع أن معه خزائن ملأىٰ بالمال يغنيكم بها ويزيد منها ثرواتكم

ولم يقل يومًا أنه يعلم الغيب، ولم ينسب صفة من صفات خالقه لنفسه

لكن لسان حاله ومقاله كسائر إخوانه الأنبياء: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾

لكن كما أنه بشر، فأنتم كذلك

وأيضا الذين ازدريتموهم منذ قليل

فعلىٰ ماذا الكبر؟

ولماذا الصدود؟

❊ ❊ ❊

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾

هنا دعىٰ عليهم وقطع الطمع في هدايتهم

وهنا تجهز للرحيل

ليس بحكم منه

وليس برجم لغيب فيه مآل هدايتهم ومصير قبولهم

وليس باستعجال وما كان لمن مكث ألف عام إلا خمسين أن يستعجل
لكنها الكلمة الأولىٰ

﴿وَأُوحِيَ﴾

إنه الوحي المُنَزَّل

العلم من علام الغيوم الذي بين له أنهم لن يؤمنوا ولن يهتدوا

فما بال أقوام لا يأتيهم هذا الوحي ويقطعون الطمع عن هداية الناس وصلاحهم؟

❁ ❁ ❁

وبمن ينهون عن الفساد تستقيم الدنيا وبمن يصدعون بالحق وينكرون الباطل تنجو الأمم وبوجود هؤلاء الصالحين المصلحين يرفع العذاب والهلاك أو يؤخر ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾

هؤلاء هم صمام الأمان وهم من تبقىٰ من ركب في صدارته الأنبياء وهم الناجون بإذن الله

وإن قلُّوا . .

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾

❁ ❁ ❁

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

من أولئك؟

الإشارة هنا تعود علىٰ مَن؟

معلوم شرعًا أن وضع العقوبة علىٰ شيء ما يعتبر مما يعرف به تحريم هذا الشيء

فهذه العقوبة بالنار وحبوط العمل وبطلانه من المخاطب بها؟

فلنرجع للآية التي تسبقها ولن نجد فيها إلا شيئًا واحدًا جُعلت هذه العقوبة علىٰ مقترفيه!

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾

تأمل مرة أخرىٰ وابحث جيدًا

هل وجدت شيئًا آخر جُعلت عليه العقوبة

هل هناك معصية مشهورة أو كبيرة معلومة أو فاحشة مشهودة

إنها فقط إرادة الدنيا وابتغاء زينتها

انتظر . .

قبل أن تسود الحياة في وجهك وتظن أن الدنيا محرمة عليك تمهل وركز بصرك علىٰ تلك الكلمة التي تسبق كلمة الحياة الدنيا

كلمة: ﴿يُرِيدُ﴾

القضية إذًا في الإرادة والغاية والهدف والطموح

هل مرادك إرضاء الله أجره ومثوبته وفي الآخرة جنته؟

أم هي العاجلة؟

تلك الفانية هي منتهىٰ أملك وغاية أمنيتك ومبلغ علمك؟

إن كانت الثانية . . فانتبه

واقرأ الآيات و . .

تدبر . .

❀ ❀ ❀

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾

كلمات لها عبق مختلف ونكهة مميزة

إنه عبق اليقين في الله ونكهة التوكل علىٰ حماه

عبق القوة الإيمانية ونكهة الصلابة العقدية التي تجعل شخصًا واحدًا فردًا يقف أمام أمة من أقوىٰ الأمم

لقد وقف نبي الله هود عليه السلام موقفًا مذهلًا إذا ما وضعت في الاعتبار طبيعة الخصم

إنها ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾

إنها عاد الأولىٰ

إنها الأمة التي غرتها قوة مادية طاغية جعلتها تتبجح قائلة: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾

لكن كل هذا البأس لم يفت في عضد الموقن ولم يوهن عزمه أو يؤخر بالحق صدعه

وإذا به يقولها خالدة كدرس لكل مرجف خوار

فكيدوني جميعًا

كلكم . .

هيَّا أقبلوا بجمعكم

لا تتركوا أحدًا

ثم افعلوا ما بدا لكم

فماذا يفعل كيدكم بمن حسبه ووكيله من هو آخذ بناصية كل دابة علىٰ الأرض

بما فيها نواصيكم

ثم لا تنظرون

لا تمهلوه ولا تؤخروه فهو لا يخشىٰ أن يدفع الثمن ويتحمل عاقبته براءته منكم ومما تشركون

هي فليس هو بالمماطل أو المترجي لأهل الباطل

ولتنتقوا أعلىٰ ما في خيلكم ولتركبوه

إنه لا يخشاكم ولا يخشىٰ أحدًا إلاه

إلا إلها : ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

❁ ❁ ❁

﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾

كنت مرجو النفع يؤمل فيك العقل الراجح والفكر السديد

كنت محمودًا موقرًا يقتدىٰ بخلقك ويقدر قولك

كنت في الماضي

لكن هذا كان من قبل

اليوم فقدت مكانتك بيننا بعد أن جرؤت علىٰ ثوابتنا وسفهت ما توارثناه من آبائنا وكبرائنا وسادتنا

فلتفقد قدرك إذن أو فلتكف عما تقول

نفس الطريقة ونفس الأسلوب الذي يواجه به مكسرو الأصنام في كل زمان ومكان

إنه أسلوب يحمل بداخله ترهيبًا وترغيبًا لحامل الحق

التذكير بالمكانة السابقة والترهيب من خلال التهديد بنزعها والترغيب ضمنًا باستعادة تلك المكانة وربما زيادتها إذا ترك حامل الحق ما معه وكف عن تكسير أصنام النفس

عبارات يصدرها أصحاب هذا الأسلوب من نوعية: «سقطت من نظرنا»، «صدمنا فيك»، «فقدت مكانك» إلىٰ آخر تلك العبارات التي يكون الغرض منها تخويف الصادع أو إسكاته أو ضمه لركب هؤلاء ليكون فقط صدىٰ لأصواتهم

فهل أثرت تلك التهديدات في صالح

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾

مُحال

مُحال علىٰ مخلص يطلب رضا الخالق علىٰ بينة منه أن يتأثر بالتهديد

بزوال رضا المخلوق

مُحال علىٰ صادق أن يستبدل رحمة الخالق برجاء المخلوق

مُحال أن يستبدل نصرته ومكانته عنده بمكانة ونصرة عندهم

لذلك أجابهم صالح بالرفض فهو يعلم أن الرجاء الحقيقي والمكانة المهمة ليست هنا

بل هنالك عنده

عند الله

❁ ❁ ❁

آوىٰ ابن نوح وآوىٰ موسىٰ

وشتان ما بين مأوىٰ كل منها

لقد آوىٰ الأول إلىٰ جبل راسخ علي بينما آوىٰ الثاني إلىٰ ركن شديد قوي

أما الأول فما أغنىٰ عنه مأواه شيئًا وأدركه الغرق في أبعد مكان عن الغرق

وأما الثاني فنجاه الله ومن معه من الغرق في قاع بحر لا ينجو فيه أحد من الغرق

فسبحان من جعل الملاذ مغرقًا والمغرق ملاذًا

سبحان من لا عاصم من أمره إلا من رحم

سورة يوسف

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾

قاعدة نفيسة في الأدب يغفل عنها كثير من الخلق فتجدهم يخوضون فيما لا يعلمون ويهرفون بما لا يعرفون وكأنهم علىٰ الغيب مطلعون وبكل شيء يحيطون

وليس معنىٰ هذا أن يتوقف الإنسان عن الشهادة بالكلية أو يكتم قولة حق يدين بها لكن عليه فقط أن يدرك وأن يبين أن ما يطرحه هو مبلغ علمه ومنتهىٰ نظره ويقيد قوله بهذا الاشتراط المهذب ولوازمه المنطقية الواضحة: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾

❁ ❁ ❁

في ظل هذا المكان البئيس الذي يجتمع فيه عادة شرار الخلق من السراق والقتلة والغاصبين وقد يندر أن تجد بارقة نور ولمسة صلاح وجداها وجد السجينان فيه تلك البارقة

وإن صلاح الباطن يظهر لا محالة علىٰ ظاهر المرء والسمت الحسن جزء من النبوة وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وقد صلح جسده وحسن سمته وجمل خلقه منافسًا جمال خلقته

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

كان هذا هو المعيار الذي بنيا عليه لجوءهما إليه وتلك كانت الصفة التي أخذت بقلبيهما إليه

لقد التمسا فيه سمتًا حسنًا وخلقًا وورعًا جعلوه أهلًا للسؤال ومظنة للإجابة

ثم كانت الدعوة بالمقال بعد الدعوة بالحال

❁ ❁ ❁

لم يكن لسؤاليهما علاقة بمعتقده أو معتقداتهما

لم يسأله صاحباه عن ربه ولم يشاوراه في شأن أربابهما

السؤال كان عن رؤيا . . .

عن حلم رآه كل منهما . .

لكن إجابته كانت في صميم العقيدة

قبل أن يسارع بتأويل الرؤيا وإجابة السؤال تذكر رسالته والهم الذي يحمله في صدره

نظر إلىٰ حال المخاطبين وتأمل طبيعة المتلقين فكانت الرسالة قبل الإجابة والدعوة قبل النفع المباشر

في البدء كانت الطمأنة أن الجواب لديه

﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾

هكذا قرر يوسف عليه السلام وبين أنه علىٰ علم بالتأويل وأن مطلبهما عنده وزيادة، لكن ذلك كله ليس بفضله أو بكسبه، وإنما هو من عند ربه وهنا يأتي التدرج في توصيل المعنىٰ والرسالة التي يريد لها أن تصل

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾

هنا بدأ ذكر ربه ومولاه

لقد أدار دفة الحديث إلىٰ أمر الدين بشكل سلس ويسير ثم استمر في رسالته وأداء مهمته

﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾

ثم تستمر الدعوة داخل جدران السجن

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

دعوة رقيقة راقية ومنطق سهل بسيط والأهم رسالة لا ينساها حاملها

ثم بعدها جاءت إجابة السؤال وتأويل الرؤىٰ

لكن الأهم كان ذلك الهمّ الذي يشغله

همُّ إنقاذ الناس من ظلمات الشرك في الدنيا ونيران الجحيم في الآخرة

ذلك الهمّ الذي نسيه البعض اليوم والذي لم يعد يشغلهم في ظل حمىٰ التأطير والتصنيف المتبادل

همُّ أخشىٰ أن يتحول بعد حين إلىٰ تاريخ يُتحاكىٰ عنه بعد أن يندثر تحت

طبقات سميكة من تصفية الحسابات وسوء الظن والصراع المحتدم الذي يجعل الناس في النهاية إما أعداء وإما أولياء

إنه همٌّ الدعوة إلىٰ الحق والحرص علىٰ هداية الخلق

همٌّ الأنبياء ومن تبعهم ممن تحملوا الأمانة وفهموا معنىٰ أن تكون حامل رسالة

وعندما يستعيد حملة الرسالة تلك القيمة وتتعالىٰ من جديد في نفوسهم فسيدركون أن كثيرًا مما يفعلون لم يكن دائمًا هو الأولىٰ وأن ليس كل مخالف عدوًّا حتىٰ وإن بدا كذلك في الظاهر

بل كثيرًا ما يحتاج ليتغير أن يراك من المحسنين وأن يسمع منك إحسانًا ونصحًا طيبًا

❀ ❀ ❀

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾

هكذا عرف يوسف عليه السلام نعمة الله عليه ولم تنسه إياها تلك الجدران الرطبة والأسوار العالية التي هو حبيس بداخلها والنعم التي هو محروم منها فكل ذلك يهون مادامت النعمة العظمىٰ موجودة، نعمة الحق وشرف معرفة خالقه وتوحيده وعبوديته.

عرف النعمة وشكرها ثم عرَّف الخلق بها

والأهم أن البلاء والظلم والاستضعاف الذي يعاينه ويتذوق مرارته لم يقف حائلًا بينه وبين دعوته وقيمة رسالته

وكذلك حامل الرسالة لا يوقفه شيء عن أداء رسالته وبلاغ الحق الذي عنده

لا يوقفه عن ذلك إلا الموت

وحتىٰ بعد الموت تجد منهم من لم تنطفىٰء جذوة همه فقال وهو في دار غير الدار: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾

❁ ❁ ❁

أن يتمنىٰ المرء ألا يعصىٰ الله فذاك حسن

وأن يبغض المعصية وينفر قلبه منها فذاك أحسن

وأن يتحمل الأذىٰ ويصبر عليه لئلا يقع في الفاحشة فتلك درجة رفيعة ومقام عظيم

لكن أن يصل به تعظيمه لحرمات مولاه إلىٰ أن يكون الأذىٰ والعذاب الدنيوي أحب إلىٰ قلبه من المعصية فهذا مقام من تشرب قلبه بمعرفة ربه

معرفة أسفرت عن محبة صادقة وتعظيم خالص يجعله لا يطيق إغضابه والتعدي علىٰ حرماته

معرفة جعلت أي مكان لا يعصي فيه الله أهون عليه من محل المعصية ولو كان قعر سجن بارد مظلم

سلام علىٰ يوسف إذ يقول: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾

❁ ❁ ❁

﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾

سبحان من أدبك يا نبي الله

ما أصبرك أصبرك أيها الصديق وما أعظم خلقك!

أو بعد كل ما لاقيت من جفوة الإخوة، وظلمة الجب، وألم الفراق، وربقة الأسر، ومرارة الرق، ووحشة الغربة، وفتنة المراودة، وضراوة السجن، وعلقم الظلم،

أبعد كل ذلك لم يشهد قلبك إلا الإحسان؟!

لم تقل وقد فتنني ربي وقد ابتلاني ليختبر صبري وجلدي ولو قلت لصدقت

لكنك لم تر إلا الإحسان في ختام قصتك الحافلة بالمحن والآلام؟

أي قلب هذا؟!

ليس بغريب عليك يا من قلت من قبل بينما كنت في أصفاد السجن وخلف أسوار الأسر: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾

لقد رأيت الفضل والنعمة بينما أنت حبيس جدران السجن الرطبة، فكيف لا تراه هاهنا؟!

لكأني أرىٰ جدك إبراهيم عليه السلام في خضم البلاء، وهو يترك امرأته ومعها فلذة كبده في صحراء قاحلة، امتثالًا لأمر مولاه، فلا يترك الحمد، ولا ينسىٰ النعم، قائلًا في هذا المقام الحزين: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾!

وكيف أسمع لكلماتك تلك ولا يقفز إلىٰ ذهني مشهد أخيك أيوب عليه السلام، وهو يتجرع مرارات الابتلاء أعوامًا مديدة، ما بين فقد أهل ومال، وآلام سقم، وأنَّات مرض، ورغم ذلك لا يعبر عن كل ما رأىٰ من بأس إلا بنفثة يكللها الثناء: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾!

إنه لدأب الشاكرين المحبين ..

لا يرون إلا الفضل ..

ولا يتذكرون إلا الإنعام ..

وكل ما دون ذلك عندهم هين ..

❁ ❁ ❁

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن﴾ ..

لحظة ..

من بعد ماذا؟

ألم تقل أيها الكريم إنه لا تثريب عليهم؟!

ألم تقرر أيها الصديق أنه لا لوم ولا عتاب؟

بلىٰ قد قال

وهل يظن بالكريم ابن الأكرمين إلا ذلك؟!

لن يعاتبهم ولن يذكرهم بما فعلوه به صغيرًا، بل سيقول عبارة هي من أعاجيب أدب الأنبياء في الصفح؛ لسوف يقول:

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾

يا الله!!

نزغ الشيطان؟!

لقد وعدت فوفيت،

لم تثرب ولم تعتب عليهم وقد تابوا وأنابوا، فنسبت كل ما فعلوه لنزغ الشيطان

سبحان من أدبك يا نبي الله!

❊ ❊ ❊

بدأت سنابك الخيل، وخفاف النوق، تنهب الأرض نهبًا، حاملة تلك العائلة التي فرقها نزغ الشيطان عقودًا،

وعلىٰ بعد مئات الأميال مكث الشيخ الكبير، صابرًا محتسبًا، يغالب حزنه الفطرىٰ علىٰ ضياع فلذتي كبده، وأبر أبنائه به،

سال دمع تلك الفطرة المحبة، وترقرق من عين جانبها النوم القرير ردحًا طويلًا من الزمان حتىٰ اجتمع البكاء مع السهد، فذهب نور البصر، ليبقىٰ ضياء البصيرة، وكفىٰ به ضياء.

فجأة ودون سابق نذير؛ انتبه الشيخ الكبير؛ مهيب الطلعة، وقور السمت، رغم حزنه وهرمه، وإذا به يعتدل، ويفاجئ من حوله بعبارة ما أعجبها؛ جعلت أولئك الصحب والآل، يظنون أن الهرم والحزن قد أثرا به؛ لقد فاجأهم بقوله:

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾،

قالها الشيخ الكبير بصوت مطمئن واثق، يكاد الفرح والبشر يقطر من حرفه!

يوسف؟!

ماذا تقول؟!!

أين يوسف الآن وقد مرت عشرات الأعوام علىٰ غيابه؟

ألا زلت تذكره؟

ألن تنفك عن هذا الأمل الذي لا ينقطع عن قلبك؟

أيرضيك الحال الذي وصلت إليه بسبب كثرة ذكرك ليوسف؟

ألم نقل لك من قبل إنك تفتأ تذكر يوسف حتىٰ تكون حرضًا أو تكون من الهالكين؛

﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾.

وبينما هم في تساؤلاتهم واستعجابهم من كلمات نبي الله يعقوب عليه السلام والتي فوجئوا بكم الجزم واليقين اللذين خرجت بهما،

إذ دلف إلىٰ المنزل النبوي العامر، بشير الابن الغائب يحمل قميصًا يعبق بالريح الزكية، التي وجدها نبي الله يعقوب عبر رياح الصحراء المختلطة برمالها!

إنه لقميص يوسف!

يوسف حي!

يوسف حي!

لم يمت كما زعموا،

لم يأكله الذئب كما سولت لهم أنفسهم أن يدَّعوا،

يوسف حي، وهذا قميصه، وتلك ريحه التي سبقت نفحاتها،

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟!

بلىٰ والله قد قلت، وصدقت ولم نصدق،

بلىٰ والله قد فضلت علينا بنور النبوة، ويقين الصدق الذي رزقت به،

بادر البشير فألقىٰ بالقميص علىٰ وجه قد حفر الحزن والألم معالمه عليه،

وما بين طرفة عين وانتباهتها، فوجيء الجمع بنور البصر يعود ليجاور نور البصيرة، ويزين الوجه الصبوح، الذي طالما بللته العبرات الحزينة.

لقد أبىٰ الله إلا أن يمد في عمر يعقوب، حتىٰ يرد إليه بصره، ليملي عينيه برؤية الحبيب الغائب

ولقد صدق حدس المحب، حين شحذ الشوق حواسه، وحفز الحنين مشاعره.

من هنا تفهم سر صيحة أنس بن النضر يوم أحد: واهًا لريح الجنة.. إني لأجد ريح الجنة من دون أحد

وكذلك شوق المحبين حين يبلغ بمحب مبلغه، فيعبر حدود الزمان والمكان، ليشعر بقرب حبيب منتظر وغاية مرتقبة

فهل وجدنا ريح مرادنا واشتاق القلب بصدق لمبتغانا؟!

❁ ❁ ❁

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾،

حقًّا إنه اللطيف الذي يسوق عبده إلىٰ مصالح دينه ودنياه، ويوصلها إليه بطرق خفية، ربما لا يشعر بها العبد ولا يتوقعها، فيوصله من خلالها إلىٰ السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي، من حيث لا يحتسب،

إنه لطف الله بأوليائه، بتيسيرهم لليسرىٰ، وتجنيبهم العسرىٰ،

هل كان من أحد يتصور أن تكون هذه النهاية وذاك الفتح، هما مآل الإلقاء في الجب والأسر والسجن، وسائر حلقات سلسلة الابتلاء التي مر بها يوسف، والتي لو فقدت إحداها فربما لم تكن تلك نهايتها،

إنه الله اللطيف العليم الحكيم سبحانه،

بعد كل هذا الإنعام والفضل الذي لا يحصىٰ، ها هو يوسف عليه السلام يرفع يديه ليتوج قصته بأبدع نهاية، وليدعو بدعاء ماأرقه وما أعذبه؛ يلخص به رحلته الحافلة في الدنيا، ويبتهل إلىٰ حبيبه ومولاه، طالبًا أن يمتد الفضل للآخرة فيلقاه:

﴿۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾

❀ ❀ ❀

وليست كل نية صالحة تنفع صاحبها

﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾

هكذا كانت النية صالحة حسنة

وما أحسنها من نية غير أنها كانت نية تسويفية

نعم كانت حسنة

وهل من نية أحسن من نية الصلاح وقرار التوبة

لكن تلك النية الصالحة لم تنفعهم

ولم يستطيعوها

ولم يطيقوا تنفيذها رغم مرور أعوام طويلة

ذلك لأنها كانت نية شكلية (ديكورية) مؤجلة سبقها التآمر ورافقها العمل الفاسد ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾

لقد كانت نية تخديرية وظيفتها تخدير النفس عند الإقبال علىٰ العمل الفاسد

لا بأس . . أقبل علىٰ الفساد والإفساد ثم تب بعد ذلك

العمر أمامك طويل والتوبة لن تطير فافعل ما بدا لك ما دامت (سوف) في انتظارك

هكذا يقول العاصي لنفسه وبتلك المسكنات يهدئ من روع نفسه فينغمس أكثر فأكثر وينسىٰ أن العمل الفاسد لا تصلحه أعظم النوايا ما دام صاحبه يعلم جيدًا أنه فاسد

قدم التوبة علىٰ الفساد واعلم أن (سوف) هذه ليست ملكك ولا بيدك

❀ ❀ ❀

شاب فتي

جميل المحيا بل مبهر

غريب لا يعرفه أحد ولا أهل له في ذلك البلد

أسير منزوع الحرية ليس عليه ما علىٰ الحر من العقوبة

والفرصة سانحة

والأبواب مغلقة تغليقًا

والمرأة متهيئة متزينة

بل ومراودة ثم متوعدة

وهي ذات منصب وجمال فالحماية مكفولة

والزوج ديوث سيقول حين يعرف فحشها: أعرض عن هذا

فقط أعرض!

إن رائحة الفساد تنتشر في القصر وتدني سلوكيات أصحابه فاق الوصف

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾

فلترفعنا تلك الكلمة إلىٰ أعلىٰ عليين لتنقذ نفوسنا المتعبة المشمئزة من قذارة المكان وريح الشهوة التي قد زكمت أنوفنا

فلتستعلي بنا تلك العبارة القصيرة عن دنائة المشهد المحاط ببواعث الشهوة المحرمة

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾

يذكر الله في تلك الظروف

إنه الوازع الديني يطيش تلك القاذورات الشهوانية ويبعدها عنه

ثم يكمل عليها الوازع الأخلاقي والرقي السلوكي المتمثل في قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

أفأخون من أحسن إلي؟

أفأطعن من أكرمني في عرضه؟

هيهات هيهات

ما كان هذا بكريم الخلق وما كان هذا له بخلق

إنه مثال للوفاء ورمز التعفف والنقاء

إنه يوسف عليه السلام

ولقد استعصم

فعصم

ورأىٰ برهان ربه فصرف عنه السوء والفحشاء

تمامًا كما صرفه عنه حين اجتمعت نساء المدينة علىٰ مراودته

ببساطة لأنه منهم

من الْمُخْلَصِينَ

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾

❁ ❁ ❁

ولقد عرفوا صدق يوسف

وأيقنوا من براءته

وأراهم الله الآية وشهد الشاهد من أهلها

فماذا تريدون؟!

وما الذي عليه تنقمون؟!

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾

بدا لهم!!

هكذا

هل صار السجن وجهة نظر؟!

هل صار الظلم والبغي وتقييد حرية إنسان معلوم الصدق والصلاح مجرد رأي؟

بدا لهم!!

بكل بساطة

فلنطمس علىٰ الفضيحة ولنخمر الجريمة ولنخفي دليل إدانة ذوينا بأن نسجنه حتىٰ حين

وكذلك الطغاة

لا يعتبرون الآخرين بشرًا لهم حقوق

لا يرون الناس إلا وسائل لراحتهم وأدوات لرفاهيتهم

فليحبس بريء ولتنزع حرية مظلوم فقط لأنه . .

قد بدا لهم ذلك!

❁ ❁ ❁

ورؤيا الملك كانت تتحدث في مجملها عن سنوات ووصفها

كانت تتحدث عن سنين رخاء وسنين مجاعة

لم تحو الرؤيا توجيها بتخزين محصول وادخاره أو تصريحًا بخطة

اقتصادية

من أين إذًا جاءت ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾

وإن رؤيا الملك في مجموعها لم تتحدث إلا عن أربعة عشر عامًا

سبع وسبع

فمن أين أتىٰ يوسف بالعام الذي: ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾

إنه العلم والحكمة

لقد أوتي يوسف علمًا وحكمًا وعرف أصول الاقتصاد والزراعة والتخزين

ولم يبخل بهما

ولم يشترط مقابلهما

لقد بذل علمه وما أوتي لإنقاذ الناس ورحمتهم رغم ما ناله من بعضهم

كان يمكنه تعميم العقوبة والانتقام من الجميع بأن يتركهم يهلكون في سني المجاعة ويبرر ذلك بما ناله من الظلم علىٰ يد سادتهم وكبرائهم

لكنه لم يفعل

ولم يعمم

ولم يزر الوازرة وزر الأخرىٰ

حتىٰ براءته لم يقايضهم عليها بل أعطاهم الحل وأنقذ من البلاء وسفهم المل

ثم بعد ذلك أبىٰ أن يخرج إلا بعد إظهار براءته فهو صاحب رسالة وتبرأة ساحته واجبة وتنقية سيرته لازمة

لكنه لم يشترط ابتداء

وأعطىٰ وتكرم ولم يبخل

وأعان ونفع الناس وخير الناس أنفعهم

وكذلك الصديقون

يرحمون الخلق ولا يعممون عقوبة ولا يطلبون إلا حقهم وممن بغىٰ عليهم

فقط ممن بغىٰ عليهم

❁ ❁ ❁

وبعد كل تلك النجاحات في مختلف الاختبارات والبلاءات بالضراء والسراء وبعد إحسان مذهل وكرم مبهر وصبر مدهش وشكر معجز لم يغتر يوسف

لم يزك نفسه ولم يركن لعمله

لم يأمن العاقبة ولم يتقول علىٰ الله في المآل والمصير

فقط دعا وما أعظم تواضع دعائه وإخباته

﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾

أنت أيها الصديق تدعو باللحاق بركب الصالحين!

أنت أيها الكريم ابن الأكرمين تطلب الوفاة علىٰ الإسلام!

سبحان من علمك وأدبك

إن من الناس من لم يبلغوا عشر معشار بذله وحسن عمله ورغم ذلك

تراهم وقد أمنوا واطمأنوا وكأنهم قد استلموا صكوكهم بالمغفرة وحجزوا أماكنهم في الجنة واطلعوا علىٰ مقاعدهم فيها

وما أجهلهم

أما الحصيف فهو من لم يزك نفسه وداوم الافتقار والتضرع حتىٰ يأتيه اليقين مرددا مع الكريم ابن الأكرمين ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾

سورة الرعد

وليس شرطًا أن تعيش لترىٰ كل الوعود التي بها وعدت

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾

الاحتمالان قائمان

أن تعيش وترىٰ في حياتك

أو أن تتوفىٰ

هذا وارد وذاك أيضًا . .

لكن التصديق ليس خاضعًا للاحتمال

وكذلك البلاغ والعمل

﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾

وهكذا تعامل الوعود الربانية

يقين وتصديق بغير اشتراط أو تكلف تعيين وعمل وثبات وتصديق بموعود الله حتىٰ إدراكه أو الممات علىٰ الطريق

وهذا اليقين هو الذين يهون به الله علىٰ المؤمن مصائب الدنيا ويعينه علىٰ تقلبات الأحداث ويعطيه الرصيد النفسي الذي يدفعه لإكمال الطريق

فيظل اعتقاد المؤمن بمعزل عن مصلحته العاجلة ويقينه منفصل عن

أهوائه وشهواته الآنية دون استعجال الثمرة أو اشتراط رؤيتها والتململ إذا طال طريقها

وحيث أنه لا ارتباط بين المتغيرات والحوادث وبين ما يصدقه فإن منحنىٰ اليقين والتصديق والأمل والعمل لديه ثابت راسخ . .

سواء رأىٰ الموعود أو لم يره

❁ ❁ ❁

الأرض واحدة والسقيا مشتركة بماء واحد والأشجارة متجاورة لكن الثمار مختلفة

ورغم اتفاق المقدمات إلا أن المآلات اختلفت والثمار تباينت

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾

هذه ثمرة حلوة المذاق وهذه ضخمة مشبعة وتلك مالحة وأخرىٰ مرة فاسدة

هذا التباين ناتج عن اختلاف الوعاء المتلقي وإن التفاضل في الدرجات الدنيوية سنة لله في خلقه كما تجدها في الأشجار والثمار فإنك تراها كذلك في إخوة منهم الأبرار ومنهم الفجار

رغم أن الأصل واحد فإن النتائج تباينت والعبرة بمدىٰ التفاعل مع السقيا وعلىٰ ذلك مدار التفضيل

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾

❁ ❁ ❁

برق يضيء الأفاق ويخطف الأبصار خوفًا وطمعًا إلىٰ السماء

رعد يزأر ليهز الأركان ويفزع الولدان في خضم متلاطم الأنواء

ملائكة تسبح خيفة في نواحي كون فسيح مترامي الأرجاء

سحاب ثقال وصواعق موجهة حارقة يصيب بها من يشاء

وفي ظلال تلك المشاهد الكونية المهيبة والخلق العظيم المذهل إذا بصوت متبجح علىٰ ضعفه وهوانه

صوت لم يلحظ تلك الحالة من الإبهار الممزوج بخشوع وخشية وتعظيم من تلك المخلوقات الشاهقة

صوت يا لحماقته وصلفه وغروره

صوت المجادل في الله

أو حقًّا يجادل في الله!!

يجادل في الله خالق البرق والرعد ومنشيء السحاب الثقال!

يجادل في الله ويجحده وهو شديد المحال

لقد بلغ غروره حدًّا يفوق الخيال ووصلت وقاحته إلىٰ دركات وصفها محال

في الحلم الله عليه ويا لصبره علىٰ أهل الجدال

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾

❀ ❀ ❀

تسيير الجبال الراسية . .

تقطيع الأرض المستقرة الراسخة . .

تكليم الموتىٰ وإسماع أهل القبور . .

إنها أمور معجزات وأفعال علىٰ المخلوقين من المستحيلات

ولو أن كتابًا يقوم بها لكان هذا الكتاب الذي بين أيدينا

لكان القرآن

لقد قال الله عن كتابه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾

تقدير الكلام لكان هذا القرآن هو الذي يحدث تلك التغيرات الكونية العظيمة من تحريك جبال وتقطيع أرض وتكليم موتىٰ

فإن كانت تلك قدرته التغييرية علىٰ تلك الكائنات المهيبة والأفعال الكونية الجسيمة بل وما هو أعظم منها فما بالك بقدرته التغييرية علىٰ قلبك ونفسك وواقعك؟!

كتاب تسير له الجبال بل تخشع وتتصدع من خشية الله إذا أنزله عليها كيف يكون تأثيره علىٰ روحك وفؤادك؟!

أم أن نفوسنا وأفئدتنا صارت أثقل من الجبال وأقسىٰ من الحجارة؟!

كم من قلوب كانت متشحة بالسواد ونفوس كانت ميتة قد أحياها الله بهذا الكتاب

كم من بعيد عن الله مسرف علىٰ نفسه متبع لهواه هداه الله بتلك الروح من أمره

وكم من أناس تغير واقعهم وتبدلت أحوالهم حين جعلوه أمامهم ولم يلقوه خلفهم

هذا القرآن كتاب تغييري أنزله الله لأجل تلك الغاية

ليغيرك

وليغير واقعك

انظر إليه هذه النظرة ودعك من تلك النظرة القاصرة المحدودة للقرآن علىٰ أنه فقط وسيلة لتحصيل الثواب بتلاوته دون فهم أو عمل

أو تغيير

للأفضل

❀ ❀ ❀

تأمل مشهد ذلك الأحمق الذي يمد يده الىٰ بئر سحيق ليشرب

كفه مبسوطة لا تمسك ولئن قبضها فالماء لن يمكث ولئن مكث فما هو ببالغ فاه.

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾

إنه مشهد تخيُّلي لتقريب الصورة وتمثيل حال هؤلاء الذين يدعون من دون الله تاركين دعوة الحق التوحيدية الخالصة ومعلقين رجاءهم بضعفاء أمثالهم

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾

❁ ❁ ❁

ومن عرف الله حق المعرفة وأحصىٰ أسماءه وصفاته ومننه وألاءه وأحبه وامتلأت نفسه بتعظيمه وإجلاله، فإنه يخلص وجهته له وحده فلا تأوىٰ النفس إلا إليه، ولا ترغب إلا فيه، ولا ترهب إلا إياه، ولا يكاد القلب يشهد إلا آثار أفعاله وتجليات أسمائه وصفاته

ثم تجد كل أعماله موجهة له وحده

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾

تأمل . . . ما أمر الله به

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾

يخشونه هو . . وحده

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾

ابتغاء وجه مَن؟؟ الله وحده

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ﴾

﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾

﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾

﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾

عليه وإليه . .

وحده

لا ينظر إلىٰ مخلوق ولا يجعل اعتبار لفانٍ . . . فقط الخالق وحسب

هذا هو الإخلاص الذي هو فرع عن العلم بالله وعلىٰ ذلك تقوم الأعمال الصالحة

حين تكون لله وحده وليست لشخص أو لراية أو لغاية عاجلة يعتبرها البعض البوابة الوحيدة للوصول للمقصد

ولعل ذلك الدعاء الجامع للنبي ﷺ حين تعوذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته وبه منه يعد تجسيدًا واقعيًّا لتلك الحالة من توحيد الوجهة بشكل مطلق

ويكأنه بأبي هو وأمي لا يرىٰ في الكون إلا أثرًا لأفعاله فلا يعلق قلبه إلا به

وحده

❁ ❁ ❁

وفي المثال القرآني الأشهر للحق والباطل وصف كل منهما بصفات

فالحق في المثال ثمين وغالٍ كنفيس المعادن التي تبتغىٰ منها الحلية وهو نافع مفيد كالماء وكالمعادن التي يبتغىٰ بها المتاع

وهو راسخ ماكث في الأرض

نعم قد يختفي أحيانًا تحت طبقات الزبد المتراكمة لكنه لا يزول

وهو ليس كالزبد الباطل الذي مهما ربا وانتفش فهو إلىٰ جفاء

ذلك الزبد علىٰ العكس تمامًا

إنه زهيد لا قيمة له وإن علا في الأرض وظهر

وهو هش لا قيمة له، وإن كان علىٰ السطح وتزين

وهو لا ينفع ولا يفيد ولا ترتجي منه مصلحة عاجلة أو آجلة

وهو زائل مصيره إلىٰ ضياع ومآله الجفاء والاختفاء

وكذلك الباطل وأهله في كل زمان سيذهب كله، وينتهي برمته ثم تتكشف وجوه كانت مختبئة خلف ظلال الزبد مختالةً بانتفاشه الذي يضفي عليه غير حقيقته ويلقي علىٰ الأعين بأوهام فتبصر الكبيرَ صغيرًا، والصغيرَ كبيرًا

الزيف يسقط في النهاية والحق يعلو ولا يُعلىٰ عليه وما ينفع الناس يمكث في الأرض بينما الزبد إلىٰ زوال ومهمة الصادق أن يحاول إزاحة طبقات الزبد ليصل إلىٰ الحق

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾

❁ ❁ ❁

ومن عرف ربه فإنه يتقلب في حدائق الاطمئنان بذكره ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾

ويستظل بوارف أشجار التوكل عليه وهو يردد ﴿هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾

وهو يتنعم بنسيم اليقين فيما عنده ويثق بأن ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾

وإنه علىٰ علمه وتقواه فإنه يخافه ويخشاه ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾

ويوجل لذكره فهو ممن قيل فيهم ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ لكنه ما إن يتذكر واسع فضله وجنات جوده وغيث إحسانه حتىٰ يسارع إلىٰ رحابه ويعجل إلىٰ خلوة به يطمئن فيها إليه وبه ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾

وكيف لا يطمئن وقد عرفه وعرف قوته وغناه وشديد بأسه بمن عصاه وحسن مآب من والاه

لكن البداية أن يعرف

ومن ذاق عرف

ومن عرف اغترف.

سورة إبراهيم

ولا يطيق المبطلون مساكنة أهل الحق عامة والصادعين به خاصة

وحين تنفد سبلهم ويعدمون الحيل لإسكات صوت الحق المؤرق لمضاجعهم المفتونة ويضايق أعينهم بريق الطهر المقلب لمواجع فطرتهم المدنسة المنكوسة فإنهم يلجأون دائمًا لتلك الوسيلة

وسيلة: لنخرجنكم من أرضنا

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾

تلك الوسيلة التي سارع إليها المستكبرون من قوم شعيب قائلين: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾

وهي نفسها التي لجأ إليها قوم لوط ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾

وهي التي صاح بها رأس النفاق متوعدا ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

ولقد كانت تلك الوسيلة من أبرز مناطات مكر الماكرين بإمام النبيين ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ﴾

ولقد لخص ورقة بن نوفل ذلك المعنىٰ لرسول الله ﷺ في أول بعثته مجيبا تساؤله: (أَوَمُخْرِجِيَّ هُم؟!

فقال ورقة: نعم ما جاء رجل بمثل ما جئت به إلا عودي وأُخرج وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا)

لكن حتىٰ هذه الوسيلة التي يلجأ إليها المبطلون لم تكن لتكتم صوت الحق أو تبطله فإن مآل مكرهم إلىٰ زوال وعاقبة بغيهم إلىٰ شر حال ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

وإن وعد الله بعد إخراجهم:

﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾

لكن بشرط

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾

هذه سنة الله في خلقه

﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾

❁ ❁ ❁

وسورة إبراهيم تلخص قصة الصراع منذ البداية

الصراع بين الحق والباطل وحقيقته

الصراع بين أئمة الهدىٰ والقادة الربانيين وبين أئمة الضلال العتاة المتجبرين

والملحوظ أن القصة هنا في أغلب مواضعها لا تذكر بإفراد كل حامل

حق من نبي أو رسول في مواجهة قومه كما الحال في الأعراف أو هود أو الشعراء لكنها هاهنا لها طابع مختلف

إن الصياغة هنا جماعية تشير إلىٰ عموم قوىٰ الشر في مواجهة قوىٰ الخير والحق

يغلب علىٰ الحوار في السورة الطابع الجماعي كأنهما فريقان كل فريق يكلم الآخر

جاءتهم رسلهم

قالت رسلهم أفي الله شك

قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر

وفي المقابل

﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾

﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾

السورة تضع الفريقين ككل في مواجهة بعضهما البعض بغض النظر عن مئات بل آلاف الأعوام التي تفصل بين قصصهم وأفرادهم

إنهم حلقات في سلسلة واحدة وصفوف في قافلة ممتدة منذ لدن آدم عليه السلام

فريق في مقدمته سادتنا نوح إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد وهود وصالح ولوط وداوود وسليمان وإلياس وباقي الأنبياء في جهة

وفي المقابل إبليس وفرعون وهامان وقارون والنمرود وصاحب

الأخدود وأبو جهل وعقبة بن أبي معيط وأمية بن خلف في الجهة المقابلة

والكلام واحد لأن الدعوة واحدة

والردود متشابهة كما القلوب متشابهة

والحجج متكررة في كل عصر فالحق واحد والباطل يتواصىٰ به

﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ في مقابلها دائمًا ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾

﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ في مقابلها دومًا ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾

﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ في مقابلها ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ﴾

إنها الرحلة التاريخية والصراع القديم المستمر بين قافلة الحق والجبارين من الخلق

فتأمل . .

❁ ❁ ❁

ومما يميز سورة إبراهيم ذلك التركيز علىٰ الأئمة المتبوعين والقادة المؤثرين

فمن أهل الحق وفريق الصدق الرسل عليهم السلام

ونلاحظ في السورة ذكر لقب الرسالة وليس النبوة ومعلوم أن الرسالة مرتبة أعلىٰ وليس كل نبي رسول

إنها سورة الأئمة ولقد سميت باسم إمام حق متمم موفي

إنه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام

وفي الجهة المقابلة نجد أئمة الباطل وقياداته

فنلاحظ أن طبيعة الكفار في السورة طبيعة قيادية متجبرة حتىٰ من لم يسموا منهم

فتجد إشارات واضحة لإمامتهم في الباطل وقوتهم وقيادتهم

من تلك الإشارات قدرتهم علىٰ الصد عن سبيل الله

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾

وأيضا القدرة علىٰ إخراج المؤمنين

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾

وكذلك القدرة علىٰ الظلم والتي ليست إلا للقوي الذي له تصرف في غيره ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾

وهناك القدرة علىٰ التوجيه والتأثير في قومهم ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾

هم من أحلوهم دار البوار وأوردوهم المهالك

وهم المتبوعون

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾

وأيضا القدرة علىٰ المكر الرهيب والعمل المؤسسي المتواصل للصد

عن سبيل الله ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾

ولقد صرح بذلك في السورة بتسميتهم الصريحة بالجبارين

﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾

حتىٰ من ذكروا في السورة بأسمائهم من أهل الباطل نلاحظ أنهم ليسوا عاديين أبدًا

أحدهما إمام باطل من الجن والآخر من أشهر وأخطر أئمة الباطل من الإنس

إبليس رأس الضلال ومفتتح الكفر في الحياة الدنيا

وفرعون مضرب المثل في الطغيان والتجبر والكفران

فتأمل . .

❁ ❁ ❁

ولأهل الباطل أساليب متكررة وطرق متشابهة ذكرت سورة إبراهيم شيئًا من تفاصيلها ومسالكها ومنها

١- سياسة تكميم الأفواه وكتم كل صوت يخالف أهوائهم

﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾

وتأمل تصوير المشهد وفزع المبطلين من قذائف الحق التي تخرج من أفواه حامليه فيسارعون لكتمها بأي وسيلة ولو كانت أيديهم العارية

٢- سياسة التكذيب والتشكيك فيما جاءوا به من الحق

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾

٣- سياسة التسفيه والتحقير من شأن حامل الحق نفسه

﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾

٤- سياسة الإيذاء والتنكيل والبطش

وهي تلك التي واجهها أهل الحق بقولهم متصبرين متوكلين:

﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾

٥- ثم في النهاية الصدام الكامل والإخراج من الأرض

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾

كل الوسائل مباحة لديهم المهم أن يسكتوا

أن يسكت حملة الرسالة

فهل سكتوا؟!!

أبدًا

بل تكلموا وبالحق صدعوا وصبروا وصابروا

ثم لما وصل الصدام إلىٰ منتهاه وبلغ مرحلته الأخيرة وكان مكرا تزول منه الجبال وجاء التهديد بالإخراج وسوء المآل كان الرد من عند الله الكبير المتعال

﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾

❁ ❁ ❁

ومن أشد آيات العذاب في القرآن بل وقيل هي أشد آيات العذاب بالفعل آيات جعلها الله من نصيب الجبارين

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾

تأمل الإهانة وهو يُسقىٰ من صديد وقيح أهل النار

ويجبر علىٰ تجرعه وإن لم يستسغه

ثم يأتيه الموت من كل مكان حوله

قيل: من تحت كل شعرة في جسمه يوجد سبب للموت

تخيل مشهده وهو يتجرع الصديد ولا يكاد يسيغه فتأتيه طعنة من هنا وحرق من هناك ومرض من الأمام وسياط من خلف ظهره ولهيب من فوقه وكل ذلك لا يقتله

فقط يؤلمه ويهينه

وبعد كل هذه الأسباب يفاجأ أن الأمر لم ينته بعد

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾

يا رب سلم سلم

إن المرء حين يتدبر ذلك الكم من العذاب في تلك الآية يدهش ويعجب ثم لا يلبث أن يزول عجبه حين يعيد البصر كرة أخرىٰ إلىٰ أولها

لمن هذا العذاب؟

إنه لكل جبار عنيد عاند وبطر الحق وتجبر علىٰ الخلق وظلمهم وبغىٰ عليهم وأهانهم وعذبهم

فجزاءً وفاقًا ينال ما في الآية ولا يظلم ربك أحدًا

❁ ❁ ❁

والخسة والنذالة من خصائص أهل الباطل خصوصًا أولئك المتبوعين والرؤوس

إن تبرأهم ممن اتبعوهم علىٰ الضلال يعد من أبرز خصالهم التي يتكرر ذكرها في القرآن خصوصًا في سورة إبراهيم

وما خطبة إبليس في جهنم إلا نموذجًا لتلك الخسة والنذالة

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

أنتم السبب

لا شأن لي بكم

لم أجبركم علىٰ شيء

ما كان إضلالي لكم إلا دعوة ووسوسة في الصدور

وأنتم الملامون

أنتم من استجبتم

هكذا يتهرب وهو رأس الكفر في الدنيا ومفتتح باب الضلال

وكذلك يبيعهم في ذلكم الموطن العصيب

تمامًا كما باعهم تلامذته من شياطين الإنس المتبوعين حين ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾

الكل يتهرب ..

والكل يبيع ..

ولا أحد منهم ينفع صاحبه ولا تابعه أو متبوعه ..

لو أنهم يعقلون ويتذكرون ..

❁ ❁ ❁

ومهما قلت السقيا وتضافرت عوامل الجدب وحاولوا اجتثاثها عن الأرض ومنع خيرها وثمارها فإن شجرة الحق تثمر ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ كل حين ..

ثمارها تنضج وخيرها يخرج وبركتها تعم رغم كل شيء شاء من شاء وأَبىٰ مَن أَبىٰ ..

ذلك لأنه تلك الشجرة الطيبة لا تنتظر إذنهم ولا تثمر بإرادتهم

إنها شجرة تثمر الخير بإذنه وحده

بِإِذْنِ رَبِّهَا

❁ ❁ ❁

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾

تلك هي الحقيقة التي لا يدركها أصحاب شماعة الشيطان شاطر

حقيقة يعلنها الشيطان نفسه في خطبته بجهنم عافانا الله من سماعها

ها هو يبين أن أقصىٰ ما يستطيعه وأبعد مدىٰ بمكنه بلوغه هو الدعوة

﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾

مجرد وسوسة لا تجاوز الصدور ولا تمر إلىٰ القلوب أو النفوس إلا إذا فتحت أنت الباب واستسلمت

واستجبت

وحينئذ فلا تلم إلا نفسك فأنت من أدخلته

❁ ❁ ❁

رماد اشتدت به الريح في يوم عاصف

تخيل أن تأتي أعمال عظيمة وأمجاد جليلة وإنجازات مهيبة لتتحول يوم القيامة إلىٰ تلك الصورة

رماد

وياليته رماد مستقر بل هو علىٰ انعدام قيمته لا يمكث ولا يكاد صاحبه يمسك به فاليوم عاصف والريح شديدة ولن يلبث إلا ويتطاير

ها هي الأعمال والمنجزات تتناثر علىٰ هيئة غبار يتطاير هنا وهناك

هباء منثور

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾

سراب تخيلي يبدو في الأفق

لكنه ليس حقيقيًّا ولن يروي عطشًا أو يبرد جسدًا

﴿أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾

رماد . .

سراب . .

هباء . .

زبد إلىٰ جفاء

شجرة خبيثة مجتثة من فوق الأرض ما لها من قرار

كل هذه أوصاف عمادها الباطل وأصلها الخبث وجذرها الكفر والجحود

تلك الأمور الكفيلة بتضييع كل شيء مهما عظم قدره

كل شيء . .

* * *

واجنبني وبني أن نعبد الأصنام

الرجل الأمة

الذي ما اختبر إلا وأتم

الذي وفىٰ

الأوَّاه الحليم

ومع كل هذا لم يأمن علىٰ نفسه ولم يزك حاله ويضمن مآله

أبو الأنبياء ومكسر الأصنام ومن جعلت له النار بردًا وسلامًا يخشىٰ علىٰ نفسه

ومما يخشىٰ ومن أي شيء يتعوذ

عبادة الأصنام

مالك أنت يا أيها المحسن الحليم وتلك الأصنام وعبادتها

ما أناك عن ذلك

لكنها القواعد الجامعة الشاملة التي ينبغي أن تؤصل للجميع وعلىٰ الجميع

قاعدة ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾

قاعدة ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾

قاعدة ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾

عرفها إبراهيم وتعبد ودعىٰ أن يجنبه الله الأصنام وعبادتها

وعرفها يوسف وهو يدعو بالوفاة علىٰ الإسلام واللحاق بالصالحين

وعرفها محمد حين دعا بالثبات علىٰ الدين

وعرفها كل حصيف أريب لم تغره طاعته ولم تؤمنه قربته فانكسر وابتهل بالثبات

حتىٰ الممات

❁ ❁ ❁

سورة الحجر

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾

وثمة فارق بين المخلِص (بكسر اللام) والمخلَص (بفتحها)

فالمخلِص بالكسر هو ذلك الذي يبتغىٰ وجه الله في أعماله، وخص البعض تلك الأعمال بحال عبادته؛ لا يريد بها إلا الله ولا يبتغي جزاءً ولا شكورًا إلا منه

أما المخلَص بالفتح فهو أعلىٰ درجة ومنزلة، حيث إنه هو من استخلصه مولاه استخلاصًا، فصار في حياته، وسائر حالاته، مع الله، وبالله، ولله

أن يصبغ المرء توجهه بمرضاة الله؛ أن يكون هدفه إرضاء ربه، في كل سكناته، وحركاته، ومعاملاته وصمته، وكلماته

هذه هي الحياة لله!

وهذا هو الاستخلاص وهؤلاء هم المخلَصون الذين هم من إغواء الشيطان وكيده ناجون، كما استثنىٰ هو فقال: ﴿لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾

فاللهم اجعلنا منهم وأخلصنا من كل العوائق والعلائق التي تحول بيننا وبين هذا المقام الكريم

مقام الخلوص لله

❁ ❁ ❁

﴿۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

نبئهم يا محمد عن مغفرة الله

أخبرهم عن سعة رحمته وعظيم عفوه

عرفهم أن هناك أملا ورجاء

لكن أيضًا أعلمهم: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾

وإن النبي الذي قال: (فلو يعلمُ الكافرُ بكلِّ الَّذي عند اللهِ من الرَّحمةِ لم ييْئَسْ من الجنَّةِ)

هو بعينه الذي قال: (ولو يعلمُ المؤمنُ بكلِّ الَّذي عند اللهِ من العذابِ لم يأمَنْ من النَّارِ) (رواه البخاري).

لا بد من التوازن ولا مناص عن القصد بين رجاء الرحمة وخوف العقاب لا يطغىٰ الأول علىٰ الإنسان فيرجىٰء ويركن إلىٰ سعة الرحمة فيترك العمل ولا يجاوز الخوف فيقنط وييأس من روح الله ورحمته بل هما جناحان يطير القلب بهما إلىٰ روضات الجنان بإذن من الرحيم الرحمن

❁ ❁ ❁

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾

إلا أن امرأته كان لها رأي آخر

تلك المرأة التي طالما أذاقته الأمرين

تلك المرأة التي لم تخالط بشاشة الإيمان يومًا قلبها!

تلك المرأة التي طالما كان انتماؤها الأول لقومها، وولاؤها الأوحد لهم، علىٰ ما هم عليه من الكفر والفحش والفجور مقدمة ذلك الولاء علىٰ كل شيء حتىٰ علىٰ الحق المنزل علىٰ زوجها

لقد ظلت تحرص علىٰ ما يجعل لها حظوة ومكانة لديهم، بغض النظر عما يرتضيه زوجها،

لقد رأت المرأة الشباب الوضيٰء، وعلمت أن قومها منكوسىٰ الفطرة سيفرحون بهم أيما فرح،

لم ترع المرأة الكافرة زوجًا، ولم تقدر عرفًا، ولم تلتفت لحرمةً،

سارعت المجرمة لتسرب خبر ضيوف لوط زوجها إلىٰ فجار قومها

فاستحقت أن تكون مثالًا للذين كفروا جنبًا إلىٰ جنب مع أختها في الكفر امرأة نوح

لم تشفع لهما البيئة الصالحة ولا البيت الطاهر ولم تقف تلك الأمور حائلًا بينهما وبين الكفر ولم يغني عنهما أزواجهما والبيئة الصالحة والبيت الكريم من الله شيئًا ونالهما العذاب مع قومهما

بينما صمدت امرأة فرعون في ظروف صعبة وبيئة بشعة قاسية

وهل من بيئة أسوأ من تلك التي عاشت فيها؟

هل من ظروف أقسىٰ من تلك التي عانت منها هذه المرأة المؤمنة وهي تواجه طاغية لا يستنكف أن يذبح أطفالًا رُضَّع ويستحيي نساء ويستعبد أمة بأسرها؟

لو كانت البيئة والظروف هي العامل الوحيد الذي يحلو للبعض أن يركنوا إليه عند تبرير تقصيرهم لكانت تلك المرأة الصالحة أولىٰ الناس بالتعذر به والركون إليه وقد ورد في بعض الآثار أنها قد ذاقت الأمرَّين متجرعة عذاب فرعون حتىٰ قتلها

لكنها لم تفعل

بل صمدت وصبرت

ونالت ما طلبت

فاستحقت أن تكون مثالًا للذين آمنوا جنبًا إلىٰ جنب مع الكاملة مريم ابنة عمران

❁ ❁ ❁

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾

يستبشرون؟!!!

وبِمَ يستبشرون؟

برذيلة هم عليها مقدمون،

بفحش هم له مستحلون، وضلالة مبتكرة، ونقيصة مخترعة، ما سبقهم بها من أحد من العالمين،

أحري بهم أن ييتئسوا ويحزنوا، بدلًا من ذلكم الاستبشار،

لكن هذا شأن الفطرة حين تنتكس

تفرح وتسعد بما حق لها أن تتأذىٰ به وتحزن،

انطلق ذكور القرية، وعلىٰ رأسهم سادتها وكبراؤها، قد ساوت بينهم جميعًا حرارة الشهوة، وجمعت بينهم نيران الفتنة، وصهرتهم في كيان واحد؛

كيان الفسق وانتكاس الفطرة والفجور،

هرع الكل إلىٰ بيت لوط، يمنىٰ نفسه بالفريسة الشهية التي هو مقبل عليها،

لقد تعالىٰ ضباب الشهوة ليطغىٰ علىٰ كل شيء،

لتنخرم المروءة، ولينطمس الخلق القويم، وليُمحىٰ أىٰ أثر للفطرة السليمة، والرجولة والشرف

ما أشبههم في تلك اللحظة بقطيع من الحيوانات المفترسة؛ يسيل لعاب الجوع من بين أشداقها،

ما أشبههم بجمع من الضباع الخسيسة، لا تفكر إلا في سد رمقها، مهما كانت وسائلها،

بلىٰ والله إنهم لأدنىٰ من الحيوانات، فإنها لاتأتي إلا ما فطر الله غريزتها عليه، إبقاء لجنسها وحفظا لنسلها، فلا تنحرف أبدًا لشذوذهم ولا تتردىٰ في دركهم، وهي مع إتيان ما أحل الله لها؛ ربما توارت عن الأنظار، فلا يكاد أحد يشعر بها، ولا تجاهر بما يجاهرون به ويأتونه في ناديهم بكل صفاقة ووقاحة.

الغريب أن الحيوان ليستقيم في فطرته، ويعلم وجهته، أفضل من أولئك المنحرفين المعوجين

يا له من سلوك فاحش منتكس مستقذر ممجوج!

يا لها من خيبة وخزي؛ حين تنتكس الفطرة الإنسانية لهذا الدرك السحيق ويذل البشر المكرمون ويهونون علىٰ أنفسهم لهذه الدرجة!

❀ ❀ ❀

تعالت الطرقات المتتابعة علىٰ باب لوط، مختلطة بضحكات ماجنة رقيعة؛ تلك التي يطلقها المخنثون وأشباه الرجال

أولم ننهك عن العالمين؟

أولم نحذرك أننا لن نراعي لك حرمة ولن نقدر لك جوارًا؟

الآن ستدفع ثمن اجترائك علىٰ تحدينا،

الآن ستعلم أن طهارتك وطهارة بناتك لن تنفعك بشيء،

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾؛

هؤلاء بناتي إن أردتم الزواج؛

إن أردتم الفطرة النقية التي فطر الله الناس عليها،

صاح لوط من خلف باب داره، بينما يدافع الباب، محاولًا إغلاقه، لمنع تلك المسوخ من الدخول

صاح بهم لعل كلماته تجد بقايا سمع أو بصر في غيابات نفوسهم السكرىٰ

صاح بهم لربما صادفت حروفه لحظة وعىٰ في عقول أترعت حتىٰ الثمالة بالشهوات،

لكن هيهات هيهات

إنها السكرات

سكرات الشهوة، وعمىٰ البصيرة،

نعم إن للشهوة لسكرات

يشهد بذلك كل من ابتلىٰ بتسلط خمر الشهوة عليه

يشهد إنه يجد نفسه أحيانًا كالسكير الذي لا يعي ما يفعل، ولا يدرك ما يقول، ولا يفكر فيما يقترف،

لذا كانت الخمر أم الفواحش؛ فهي طريق قصير لحجب العقل، وطمس الفطنة، وهي أسرع وسيلة لإسكار القلب وطمس البصيرة،

قد يكون عبد الهوىٰ عالمًا بخطورة تلك الشهوة المحرمة علىٰ دينه ودنياه،

لكنه رغم ذلك يقبل عليها حال سيطرتها عليها،

يقبل عليها، ولا يجد في نفسه أدنىٰ قدرة علىٰ الممانعة أو الدفاع، قد أغلقت أبواب الحكمة، وسكرت أقفال البصيرة،

تمامًا كالخمر؛

لها سكرة،

وعمىٰ . .

هكذا كان حال القوم، وهم يدفعون الباب محاولين اقتحامه؛

لا يفكرون، لا يرعوون،

هم لا يعون من أمرهم شيئًا،

فقط يريدون قضاء وطرهم، وليكن بعد ذلك ما يكون،

لم تتبق إلا سطوة الهوىٰ وإلحاح الرغبة النجسة الأثيمة وشهوتها العارمة فعميت البصائر، وغارت آبار الفكر، وانطمس الفهم خلف ضباب السكرات

وحين يترك المرء العنان لشهوته، ولا يكبح جماحها بالشرع الذي يوافق الخلق والفطرة التي فطره الله عليه، فإنه لا يدري إلىٰ أىٰ مدىٰ يمكن أن تذهب به

إن في النفس باعثا خفيا به استعداد للفجور

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾

فلو لم يعلم متىٰ يوقفه ويستجمع إرادته لردعه فإن هذا الباعث قد يتضاعف ويتعاظم، لدرجة تطغىٰ عليه فتأسره، حتىٰ يصل إلىٰ تلك الحال

حال السكرة والعمىٰ، ثم يئول إلي ذاك المآل؛ مآل البوار والهلاك والخسران

وهذا بلا شك أمر ملاحظ ومطرد في تلك المجتمعات التي يترك لها العنان، حتىٰ تتدنىٰ لهذه الدركات من الفواحش، ويصير الجهر بها أمرًا عاديًّا، وهي مجتمعات علىٰ شفا جرف هار معرضة لعقوبة العزيز الجبار

لكن الأمر الأخطر والعقوبة الأشنع في تقديرىٰ هي تلك العقوبة العاجلة لمن تمادوا في شهواتهم حتىٰ عبدوها؛

عقوبة طمس البصيرة، وغياب الوعىٰ والفهم، وحجاب القلب والعقل، وكفي بها عقوبة، إنها عقوبة لا يعقلها إلا العالمون،

عقوبة ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِى سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾

❁ ❁ ❁

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسۡعَىٰ قَالَ﴾ . .

(قال) رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما . .

﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ﴾ . .

(قال) له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك . .

(قال) رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلًا . .

(قالوا) لن نؤثرك علىٰ ما جاءنا من البينات والذي فطرنا . .

لاحظ ذلك العامل المشترك بين تلك المواقف القرآنية الخالدة

فبخلاف أن أبطال تلك المواقف كانوا رجالًا من عموم الناس ليسوا بأنبياء ولا مرسلين إلا أن لفظًا رئيسيًّا كان يجمع بينهم

لفظ القول

هؤلاء جميعًا قالوا

تكلموا

صدعوا

ما كتموا الحق الذي خالطت بشاشته قلوبهم وامتزج نقاؤه بعقولهم فكان حالهم ومآلهم نموذجًا عمليًّا وتطبيقًا واقعيًّا لتلك القاعدة الربانية: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾

إنهم رجال وفتيان لم يحقروا أنفسهم ولم يخافوا في الله لوم اللائمين

ولا قمع الطاغين أو بطش المفسدين

ولكم تكرر هذا المعنىٰ في كتاب رب العالمين ولكم ترسخت تلك القيمة في كلام سيد المرسلين لتستقر تلك العقيدة في قلب من آمن بهذا الدين

دين سبيله الدعوة ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ ومجمله النصح (الدين النصيحة) وتوجيه مولاه لنبيه الصدع والبلاغ

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

❀ ❀ ❀

وتأمل هذا الاقتران بين الساعة وقدومها لا محالة والتأكيد علىٰ ذلك بعدة مؤكدات لفظية منها وبين الصفح الجميل

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾

إن ذلك الاقتران أصل مهم في تلك المعاملات الصعبة علىٰ النفس أحيانًا

أن يعفو الإنسان وأن يصفح عمن أساء إليه فذلك أمر لا يستطيعه كثير من الخلق

وهذا لأن العفو والصفح في نوع من هضم حظوظ النفس وكبح جماحها عن الانتقام والبطش بمن أساء

هنا يأتي ذكر الآخرة ويتذكر الإنسان بين يدي مطالبته بالصفح والعفو أن هناك ساعة وأن هناك حساب وميزان فيكون ذلك محفزًا ودافعًا لأن يبتغي النجاة في تلك اللحظات العصيبة وأن يقدم أجرها الآجل علىٰ انتقامه العاجل

ولقد تكرر نفس الأسلوب في قول الله ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾

أن يأخذك الخطاب القرآن إلىٰ آفاق أبعد ويذكرك بمعانٍ أسمىٰ فتهون عليك مشقة المعاملة وتخالط الناس وتصبر علىٰ أذاهم رغبة في النجاة هنالك في الدار الآخرة

هنا يسهل عليك العفو والصفح

وليس مجرد الصفح

بل الصفح الجميل

❁ ❁ ❁

وضيق الصدر والحزن بسبب القول هو أمر طبيعي ومتوقع من أي إنسان حتىٰ لو كان نبيًّا رسولًا

لقد ضاق صدر الحبيب ﷺ وعلم الله ذلك وذكره في كتابه

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾

حتىٰ النبي ﷺ وهو من هو من الصبر والجلد والتحمل ضاق صدره بالأذىٰ اللفظي وواساه ربه ودله علىٰ سبيل تفريج هذا الضيق في الصدر من خلال التسبيح والحمد والسجود والتعبد

البعض اليوم يستهينون بآثار القول ويظنون أن كلماتهم لا تترك جروحًا لا تندمل أحيانًا علىٰ قلوب من هم يقينًا أقل احتمالًا من الأنبياء

البعض اليوم يطالب الناس بما لا تملك ويعتب عليهم ضيق صدورهم تجاه الأذىٰ اللفظي ولا يكلفون أنفسهم أن يراجعوا كلماتهم التي هي أقسىٰ

من الحجارة وأحد من السيوف

ولأن الكلمة مؤثرة والقول يجرح النفوس كثيرًا فإن الله أوصىٰ عباده أن يقولوا التي هي أحسن وأن يتكلموا بالحسنىٰ فلا تستهن بالكلمة ولا تستقل آثارها الوخيمة

❁ ❁ ❁

والنهي عن مد العينين إلىٰ ما متع الله به الغير جاء بعد التذكير بالنعمة الأعظم والفضل الأهم

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾

إنه القرآن العظيم

تلك هي النعمة الجزيلة التي لا ينبغي لمن أوتيها أن يعرض عنها ويمد عينيه إلىٰ غيرها

لذا قال بعدها

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾

فمن أوتي القرآن فهمًا وعلمًا وعملًا فعليه أن يعرف قيمة ما معه ويستعلي علىٰ شهوات الأرض ومتاعها الزائل الذي مهما بلغ فإنه لا يعدل تلك النعمة الحقيقية

نعمة القرآن العظيم

سورة النحل

ومن أعجب ما يدهش المرء فعل بعض الضلال والفساق المجاهرين بضلالهم المباهين بفسقهم حين لا يكتفون بذلك الفسق والضلال وأحيانًا الكفر المعلن والجحود الظاهر؛ بل يدعون غيرهم ويحرصون علىٰ إضلال من دونهم وكأن فيهم خصلة من خصال إمامهم الذي أبىٰ أن يضل وحده وأن يجحد بمفرده فأقسم بعزة الله أنه سيحيا ليضل بني آدم ويغويهم أجمعين وليصدق فيه وفي تلامذته وأتباعه النجباء قول الله تعالىٰ: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾

❁ ❁ ❁

وفي سورة النحل مثال محزن لمن كان علىٰ الاستقامة فحاد عنها، وزل عن طريق الهدىٰ بسبب الأيمان الحانثة، المشتملة علىٰ الصد عن سبيل الله.

يقول الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾،

واتخاذ الأيمان دخلًا أي خديعة ومكرًا وهو نوع من التنفير وفتنة الخلق في الدين،

نعم

عدم تحمل المسئولية والمكانة التي يتمتع بها الصالحون في قلوب العباد صد عن سبيل الله وفتنة للناس عنه، وإن البعض إذا دخل بقدمه وكاد أن يستقيم ثم رأىٰ من يفترض أنهم قدوة وقد عاهدوه وأقسموا الأيمان علىٰ الوفاء ثم غدروا به به لم يبق له وثوق بالدين، فيصد بسبب ذلك عن الطريق الذي كادت قدمه أن تثبت عليه

وللأسف كثير ممن هم في مقام القدوة يهونون علىٰ أنفسهم خطورة هذا العامل بترديد تلك القاعدة العظيمة المنسوبة لسيدنا علي بن أبي طالب ﵁: «لا يعرف الحق بالرجال»

وهي كقاعدة لا غبار عليها فلا أحد معصوم وبالتالي لا بنبغي منطقًا أن يرتبط الحق بشخص يخطىٰء ويصيب

لكن كم من الناس يدرك تلك القاعدة ويطبقها؟!

كم من الخلق يتعامل علىٰ أساسها ولا يفتن بضدها؟!

الحقيقة الواقعية والمشاهدة أن أكثر الناس يتأثرون وربما يفتنون بأفعال المتدينين وأخلاقهم ويدققون في خصال وخيارات أهل العلم والفضل وينظرون دومًا إلىٰ صنيعهم وينتظرونه ولذلك راعىٰ النبي هذا الأمر واعتبره فقال: «**إن منكم لمنفرين**» عم، هي ليست حجة مبررة لأفعال وتفريط النافر لكنها حجة علىٰ المُنَفِّر والمستهين بقيمة القدوة والمتغافل عن كون مقام الرجل الصالح في نفس الإنسان البسيط هو مقام كبير ومهم ينبغي أن يصان وأنه إن سقط في النفس كانت النتيجة لا تحمد عقباها كل هذا يضاعف من مسئولية القدوات وأهل العلم الصلاح ويعظم ضرورة الالتفات إلىٰ أهمية دعوة الحال وعدم الاكتفاء بدعوة اللسان والمقال وأن كثيرًا مما يتهاون فيه

البعض من الأفعال يعد من الصد عن سبيل الله وسبب لأن تزل قدم عن طريق هداية كانت قد ثبتت عليه يوما ما.

❁ ❁ ❁

ولفظ النعمة بصياغات مختلفة ورد كثيرًا وبشكل متكرر في سورة النحل ويعد أكثر المعاني التي تحدثت عنها السورة

فهي -أي السورة- تضعنا في مواجهة مع نعم الله التي لا تعد ولا تُحصىٰ ثم تأتي أسئلة المصارحة التي تستلزم إجابة ولو بيننا وبين أنفسنا

﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾

أوبعد كل هذه النعم هناك من يجحدها ويكفرها أو ينسبها لغيره أو يجعلوا لأحد دونه فيها نصيبًا؟!

أوبعد هذا الإكرام بالنعم يستعملونها في معصية الله أو يقصُّروا في حق شكرها؟

أويخلق يعبد غيره ويرزق ويشكر سواه؟!

أويتودد إلىٰ عباده بالنعم ويتبغضون إليه بالمعاصي؟!

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

❁ ❁ ❁

ومن الملاحظ في سورة النحل تفصيل النعم وعرض لبغض تلك النعم المتعددة والتي تشتمل عليها النعمة الواحدة ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾

من ذلك عرض السورة لنعمة الأنعام مفصّلة وبشكل مبهر عجيب

ففيها الدفء والمنافع ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾

والأنعام فيها فوائد عامة منها الحرث والجر والسقاء تلخصها كلمة ﴿وَمَنَٰفِعُ﴾ التي تركت مطلقة لتشمل كل ما ينتفع به من الأنعام

والأنعام يؤكل منها ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾

والأنعام فيها جمال وزينة وإبهار في حلكم وترحالكم وسفركم وحضركم ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾

﴿وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾

والأنعام تحمل متاعكم الثقيل ومن دونها لكان الانتقال في غاية الصعوبة خصوصًا في الأزمنة السالفة

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾

والأنعام منها الظهر الذي تركبون

﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا﴾

والأنعام يخرج منها اللبن الخالص السائغ الذي تشربون: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾

ومن جلودها تتخذون خياما خفيفة يسهل نقلها في السفر والحضر: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾

حتىٰ أصوافها وأوبارها وأشعارها لها فوائد وتنتفعون بها

﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾

كل ذلك في نعمة واحدة

نعمة اشتملت علىٰ فوائد تفصيلية كثيرة ربما تستعصي علىٰ العد فضلًا عن الشكر

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾

لا نستطيع الإحصاء فضلًا عن الشكر الذي يذوب القلب خجلًا لتقصيرنا فيه لكنه لا يلبث أن يستبشر ببارقة أمل في آخر الآية حيث يقول

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

فيغفر تقصيرنا ويرحم عجزنا فله الحمد حمدًا كثيرًا حتىٰ يرضىٰ

❁ ❁ ❁

والمشكلة أنهم بينهم وبين أنفسهم يعلمون حقيقة النعمة ومصدرها ويدركون أن ما أمسىٰ بهم من نعمة وأصبح فمنه وحده لا شريك له،

وأبلغ دليل علىٰ ذلك أنهم يجأرون إليه ويسارعون متىٰ زالت تلك النعمة ومسهم نقيضها

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾

عند الحاجة يعرفون ممن يطلبون ولمن يجأرون وإلىٰ من يسارعون ويهرعون لكنهم سرعان ما ينسون أو يتناسون

المثير للدهشة بل الذهول هو رد فعلهم بعد الاستجابة

هو تلك (النذالة) العجيبة التي وصفها قوله تعالىٰ:

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾

كفر مقابل الإنعام!!

شرك مقابل رفع الضر وكشف البلاء!!

وليسَ فحسب بل ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾

يرزقهم ويعطيهم ثم يجعلون لغيره من الشركاء نصيبًا من هذا الرزق

أيُّ جحود هذا وأي افتراء؟!

إنه نمط مريع في خسته مقزز في مصلحيته

ما إن ينال ما أراد حتىٰ يعرض ويتولىٰ بل ويستعمل الإنعام في العصيان ويمتطي الرزق ليبلغ مزيدًا من الجحود والنكران

﴿فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾

❁ ❁ ❁

والبعض يتعامل مع الحياة بمنطق معوج وتفكير أحمق وكأنما ينبغىٰ إذا لم يدرك كل الشىٰء أن يترك جله أو حتىٰ ما تبقىٰ له وقد سيطرت عليهم قاعدة إما الكمال وإلا فلا يتعاملون بهذا المنطق علىٰ مختلف الأصعدة

فإذا عصوا الله معصية تمادوا في عصيانه ولسان حالهم: ما عادتش فارقة

وإذا قصروا في طاعة تركوها وباقىٰ الطاعات وكأنما قد سد باب الإصلاح بنفس حجة: ما عادتش فارقة

وإذا فشلوا في تحقيق هدف قعدوا وأحبطوا وكأن الحياة قد انتهت ولم يعد لوجودهم معنىٰ أو غاية لأنها مش فارقة خلاص

وهكذا دواليك

..

إنه نموذج واقعي لذلك المثال القرآني البديع عن تلك المرأة الحمقاء التي كلما غزلت ثوبًا نقضته كأن لم يكن: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾

نموذج صارخ لحماقة مدهشة لا تختلف كثيرًا عن حماقة أولئك الذين اختاروا التمرغ في الوحل بدلًا من أن ينظفوا ما اتسخ من ثيابهم أو يرتقوا ما تمزق منها

فما أشد حماقتهم وما أقل حيلتهم وما أهونهم علىٰ أنفسهم وهم يدمرون ما تبقىٰ لهم ويبددون رأس مالهم ويضيعون تعبهم دون سبب مفهوم إلا سوء فهم جعلهم يفقدون أمل الإصلاح والتغيير فاختاروا تدمير أنفسهم وإحباط أعمالهم بأيديهم لا بأيدي غيرهم

❁ ❁ ❁

وفي سورة عنيت أساسًا بذكر النعم وتعداد الفضائل والنعم كانت البداية بنعمة الروح

الروح من أمر الله

الروح التي تنقل القلوب من برودة الموات إلىٰ دفء الحياة

الروح التي تأخذ بالنفوس من الظلمات إلىٰ النور

الروح التي تزهر في العقول وتبث فيها ضياء معرفة الله والعلم به

الروح التي هي القرآن المنزَّل

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾

تلك هي النعمة الأولىٰ

وذلك هو مبتدىٰ الفضل والمنة والإكرام

❁ ❁ ❁

وتظل السعادة سعادة

فسعادة الطفل بلعبة جديدة ولو كانت رخيصة هي سعادة

وسعادة الفقير ببعض اللحم يوم العيد هي أيضًا سعادة

وكذلك سعادة أسرة متوسطة الحال بيومين مصيف في جمصة أو رأس البر تعد لديهم سعادة

وسعادة الملياردير علىٰ شاطىٰء الريفييرا أو في منتجعه ببورتو مارينا أو علىٰ متن يخته الفاخر بخليج نعمة

هي أيضًا سعادة

هذه سعادة وتلك سعادة

المحصلة الشعورية في النهاية واحدة حتىٰ لو بلغت السعادة أقصاها

ستظل سعادة دنيوية بمعايير نسبية ثابتة يحويها وعاء مادىٰ قاصر لا يتمدد إلا لدرجة معينة لا زيادة عنها

لكن السعادة التي لا يمكن أبدًا قياسها بمعايير أو تقييدها بحدود وأطر هي سعادة القلب في طاعة الله،

هي أفراح الروح بسجدة تهفو فيها النفس وتحلق في ملكوت السماء والأرض،

هي فيوضات من البهجة تنهمر علىٰ ثنايا الفؤاد بمناجاة خاشعة أو تسكبها علىٰ الروح تسبيحة متبتلة

هي الحياة الطيبة

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

وتلك الحياة الطيبة هي جنة الدنيا التي لا يتذوقها عاقل ثم يحيد عنها لغيرها أو يعدل بها شيئًا

اللهم ارزقنا . .

❀ ❀ ❀

وتأمل تلك المقابلة العجيبة في هذا المثال القرآني الجامع

إنها مقابلة بين الأبكم العاجز العالة علىٰ غيره وبين الآمر بالعدل!

الأصل أن البكم أو الخرس مقابله أو ضده القدرة علىٰ الكلام بشكل مطلق

لكن الله جل وعلا جعل مقابل البكم نوعًا خاصًّا من الكلام

إنه الكلام بالمعروف

الأمر بالعدل

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾

القضية إذن ليست في مجرد القدرة علىٰ الكلام بل في نوعيته وفيما يستعمل

في التطبيق الذي سيستعمل فيه المرء تلك النعمة

نعمة القدرة علىٰ الكلام

أو العكس

ويكأن المقابل للأمر بالعدل هو الخرس والعجز

لأنه عجز عن النطق بالحق وشكر النعمة من خلال استعمالها في الطاعة فاعتبر فاقدًا لها

وكذلك النعم إن لم يرعها الإنسان ولم يؤدي حقها ولم يستعملها في طاعة الرحمن فإنه يعامل كأنما هو فاقد لها

بل وربما تعرض بالفعل لفقدانها وزوالها وتحولها

أما لو أدىٰ شكرها فها هنا حفظها مع الزيادة والبركة

﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

سورة الإسراء

﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾

﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾

تلك القواعد العظيمة يحتاج أهل المن والعجب أن يتدبروها جيدًا

أولئك الذين يمنون ويستكثرون ويعجبون بعملهم ويستعلون بإحسانهم فيشعرون أنهم قد تكرموا ببرهم وتفضلوا بطاعتهم واغتروا بهدايتهم

علىٰ من؟

تتفضلون علىٰ من وتتكرمون وتمنون علىٰ من؟!

إحسانكم ليس منة يستفيد بها إلاكم وهداكم ليس من أحد ينتفع به غيركم وإساءتكم لن يضار بها إلا أنفسكم وضلالكم لن يحار في تيهه إلا أنتم أنتم فقط . .

هذا لن يدركه إلا من يعلم بيقين أن الله غني عن العالمين وأنه هو القوي المتين،

غني لا تنفعه طاعة الطائعين ولا يزيد غناه إحسان المحسنين،

وقوي لا تؤذيه معصية العاصين ولا يضار بتقصير المفرطين،

من أدرك هذا علم أن عمله ليس منة ولا فضل منه بل المنة والفضل هي

لله المنان عليه أن وفقه ومن عليه وهداه سدده ليكون من المحسنين

❁ ❁ ❁

والبعض يفهم الزهد في الدنيا علىٰ أنه تكلُّف الفقر، وشظف العيش، ولزوم الخشن من الثياب، وتناول الرديء من الطعام، وترك التمتع بما أحل الله من الطيبات!

فتأمَّل تلك الأفعال جيدًا . . وسل نفسك أين أصلها ومحلها؟

﴿يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾

﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾

﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ . .

﴿يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾

إن تلك الأفعال ختمت آياتها جميعًا بالوعيد وببيان أن مصير مقترفيها هو العذاب وهذا هو المذموم من أمر الدنيا

إذن فالمذموم من أمر الدنيا في كتاب الله هو إرادتها ورجاؤها والرضا بها وليس مطلق التمتع بمتاعها والمشي في مناكبها كما يظن بعض المتزهدين

وهذا الظن يناقض حال سيد الزاهدين رسول الله ﷺ . . فهو لم يطلب الفقر أبدًا ولم يسعَ إليه قط،

بل الصحيح أنه كان يتعوَّذ منه مُقرِنًا ذلك بتعوذه من الكفر . .

فهل يتصور عاقل أن يتعوَّذ النبي ﷺ من شيء يتقرَّب به إلىٰ الله؟!

الجواب: لا.

رسول الله ما طلب الفقر ولكنه رضي وصبر حين ابتلي به . .

ما سخط علىٰ نقص طعام وما ضايقته خشونة ثوب . .

وحين فُتِحَت الدنيا وجاء المال أنفق نفقة الزاهد الذي لم تتسرَّب الدنيا إلىٰ قلبه لحظة حتىٰ صاح من رأىٰ عين الزهد في تلك النفقة : «إن محمدًا يُنفِق نفقة من لا يخشىٰ الفقر أبدًا».

هذه هي حقيقة الزهد ومعيار التعامل الصحيح مع الدنيا . .

تُقبِل أو تُدبِر . .

يُعطىٰ المرء أو يُمنع . .

كل ذلك عنده سواء . .

لا تتسرَّب الدنيا إلىٰ صدره فيفرح بإقبالها ، ولا تتمكن من نفسه فيحزن لإدبارها ، فإرادتها لم تسكن روحه ولا لامست شغاف قلبه. .

وبهذا المعيار قد تجد أكثر الناس مالًا وولدًا بينما قلبه مفعم بالزهد مستعد للبذل مائل للعطاء . .

وعلىٰ النقيض قد ترىٰ أقل الناس مالًا وأشدهم فقرًا وأغلظهم عيشًا ومع ذلك يُمزِّق الطمع نياط قلبه ، وتُمزِّق الشهوات نفسه ؛ فهو علىٰ فقرة وشظف عيشه أبعد ما يكون عن الزهد!

فالقضية ليست في ما معك أو ليس معك

القضية هاهنا بمرادك وسعيك ومبتغاك ومنتهىٰ أملك . . فتلمَّس حال قلبك . .

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ

جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾

❀ ❀ ❀

وإرادة الدنيا العاجلة وتسلطها علىٰ القلب كافية لإصلاء صاحبها جهنم مذمومًا مدحورًا

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾

لكن الآخرة لا تكفي فيها الإرادة

لا تنال درجاتها بالتمني ولا يبلغ المرء جنانها بمجرد الرغبة

لا بد من السعي

لا بد من البذل

لا بد من العمل

﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾

ولفظ السعي ومثله ألفاظ المسارعة والمسابقة إنما جاءت حصرًا مع الآخرة بينما مع الدنيا جاء لفظ المشي في مناكبها وعدم نسيان النصيب منها

سعي واستباق وتنافس في مقابل مشي وعدم نسيان

وفارق السرعات معلوم فتأمل . .

❀ ❀ ❀

وتأمل مشهد تلك السيارة الفارهة ذات الطراز الفاخر وهي تقف في

إشارة مرورية مزدحمة فيسارع إلىٰ نافذتها الداكنة ذلك المتسول بالي الثياب رث الهيئة أشعث الرأس يمد يده ليسأل ذلك الرجل الذي تبدو عليه آثار النعمة صدقة لله

فيخرج الرجل الثري يدًا ناعمةً تزينها ساعة ثمينة من ماركة عالمية شهيرة ليضع في يد الفقير الخشنة ما جادت به نفسه

هذا المشهد في تناقضه الحاد يعطي مثالًا واضحًا لمدىٰ التفاضل الدنيوي بين الناس

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾

هذا التفاضل الشديد والفروقات الاجتماعية والمادية الهائلة التي نشهدها في الدنيا لا تعد شيئًا يذكر من تفضيل الآخرة والمسافات الشاسعة بين درجاتها

﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾

إنها فوارق ودرجات مختلفة ومتباعدة لا علاقة لها بفوارق الدنيا المادية ولربما تفاضل نفس الشخصين المذكورين في المثال فكان ما بينهما في الآخرة أشد تفاوتًا

لكن التفاضل هناك ليس بالمال وعلو الدرجات ليس بالثراء

لكنه العمل والتماس مرضاة الله

❀ ❀ ❀

كم من مظلوم حولته مظلمته إلىٰ ظالم وكم من معتدىٰ عليه صار معتديًا مسرفًا بعد الاعتداء عليه وكم من مفترىٰ عليه استحل الافتراء وسوغت له

مظلمته أن يتجبر علىٰ غيره كما تُجبر عليه ودون أن يميز أو يفصل

لكن الله لا يرضىٰ هذا والظلم لا يبرر الظلم والبغي لا يقابل بالتجبر أو الإسراف في الانتقام ولكنه العدل والعدل فقط والله يقول:

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾

***

والمأمور به ليس فقط اختيار الحسن من الكلام والطيب من القول ولكن الأحسن

وكلمة أحسن كلمة تفضيلية تشير إلىٰ اختيار الأفضل

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾

وهذا الأحسن من الكلام يعين علىٰ تخيره وانتقائه معرفة تربص العدو وجهده الرهيب للإفساد بين الخلق من خلال الكلمة الخبيثة أو حتىٰ الأقل حسنًا مما ينبغي

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾

فليس كل مخاطب محاربًا أو معاديًا ابتداء حتىٰ إن بدا عليه ذلك في أول الحوار

كثيرًا ما يكون محملًا بأفكار مسبقة وشبهات ساعد علىٰ ترسيخها البعض بسوء اختيارهم لكلماتهم وتصرفاتهم المؤسفة

وكثيرًا ما يكون مهمومًا بأمور تثقل كاهليه وتجعله يحتد ويشتد

هنا ينزغ الشيطان بسبب كلمة أو نظرة أو سلوك

ولكن كل هذا قد لا يمثل في كثير من الأحيان إلا قشرة أو غلاف خارجي ربما يتفتت ويزول بلين جانب وخفض جناح للمؤمنين

بكلمة طيبة أو بسمة لطيفة أو نقاش وحوار موضوعي راقي

ولن تعرف إلا إذا جربت

جرب أن تقول التي هي أحسن وستلمس بنفسك الفارق جليًّا

❁ ❁ ❁

وإن تفضيل الأمة مرتبط بعملها وخيريتها مرتهنة بكسبها

وليس من محاباة أو مجاملة في عظيم مقامها وإنما هو الإيمان والعمل والنصح والبذل إن لزمتهم ثبت رفيع مقامها

وإن بدلت استُبدلت . . .

و كذا حال أبنائها زرافات ووحدانًا

إن بدلوا استبدلوا وإن غيروا غُيِّروا وإن ركنوا عوقبوا وما ذلك علىٰ الله بعزيز

﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾

﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾

❁ ❁ ❁

قاعدة أخرىٰ في سورة الإسراء تضيء بالعدل وتسمو بالإنصاف وتتألق بالحكمة المفتقدة بين كثير من الناس مع بعضهم البعض

قاعدة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾

ذلكم المبدأ المنطقي البسيط الذي هو علىٰ الرغم من بساطته ووضوحه وبدهيته صار يغيب عن أذهان كثير من الناس اليوم فيعتمدون خطاب الجمع والتعميم ويختارون ثقافة السلة الواحدة

وهي ثقافة مريحة بلا شك لكنها راحة الاستسهال واطمئنان التنطع والكسل

فلماذا ينفق الظالم شيئًا من وقته وفكره في التفصيل والإنصاف بينما هو يستطيع أن يلقي الجميع في سلة واحدة و(يخلص)

وإن ذكرته بألا يزر وازرة وزر أخرىٰ وأنه ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ﴾ وأن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ وأن ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْۗ﴾ و(إن أعظم الناس فرية الشاعر يهجو القبيلة بأسرها) وسائر تلك الأدلة القرآنية والنبوية الناصعة التي تبرق بنور الإنصاف والعدل فإن تذكيرك هذا سيصطدم بحواجز مصمتة وضعها علىٰ عينيه مروجو تلك الثقافة

ثقافة السلة الواحدة والتعميم المقيت ومبدأ السيئة تعم والعقوبة علىٰ المشاع

ولو أتعب أولئك المستسهلون ذلك العضو الذي وُضع في جماجمهم وأمروه بالتفكير هنيهة في مآل تلك الطريقة لحقروا أنفسهم ولربما لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك علىٰ سطحية رؤيتهم وسماجة مبدأهم ثم لا يلبث ضحكهم إلا وينقلب إلىٰ بكاء حين يكتشفون مدىٰ الظلم والغبن الذي دفعهم إليه شنئان قوم.

حين يتفكرون للحظات كيف يحاسب كل أسمر علىٰ خطيئة من يشاركه لونه وكيف يعاقب كل أشقر علىٰ جريمة ارتكبها شبيهه ولماذا يُلام سمين علىٰ

كل ذنب اقترفه سمين مثله لمجرد أنه يشبهه

مشهد هزلي هو لكنه للأسف يحدث يوميًا.

مجرد أن تسمع أو تقرأ لإنسان يتكلم مهاجمًا مخالفه بصيغة الجمع قائلًا: أنتم فعلتم وسويتم تعلم حينئذ أنك بصدد أحد أبناء تلك الثقافة

ثقافة التعميم المريح ومبدأ امتداد العقوبة

ذلك المبدأ الذي حذر منه يوسف عليه السلام بكل وضوح حين عرض عليه إخوته أن يأخذ أحدهم بدلًا من أخيهم بنيامين فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾

وأيضا قالها ذو القرنين حين استنجد به أقوام ليعاقب ظالميهم فقال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾

فقط من ظلم ..

هذا هو الأصل والقاعدة الشرعية الواضحة التي عاتب الله لأجلها نبيا من أنبيائه آوىٰ إلىٰ ظل شجرةٍ، فلدَغَتْه نملةٌ، فأمَر بجهازِه فأُخرِج من تحتِها، ثم أمَر بقرية النمل فأُحرِقت بالنارِ

هنا صدرت المعتبة الربانية ونزل الوحي الإلهي يلوم ذلك النبي علىٰ تلك العقوبة الشاملة قائلًا: «أحرقت أمة من الأمم تسبح الله» ثم ختمت المعتبة بتلك الجملة الملخصة لتلك القاعدة:

فهلا نملة واحدة.

أما كان يكفيك أن تعاقب تلك النملة التي آذتك بدلًا من أن تعمم عقوبتك علىٰ سائر جنسها وتزر الوازرة وزر الأخرىٰ؟!

حتىٰ علىٰ مستوىٰ النمل!!

وفي كل الأعراف البشرية السوية والطبيعية -باستثناء الحقب الفاشية والأمم القائمة علىٰ التطهير العرقي والإبادة الطائفية- فإن رفض ذلك المبدأ هو الأصل

المنصفون في كل زمان ومكان لا يجرمنهم شنئان ولا يستخفنهم بهتان ولا يعممون طغيان بل يفصلون ويميزون ويفرقون بل الصالح والطالح والمحسن والمسيٰء ويرفعون دومًا ذلك الشعار القرآني الجليل: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ ولو افترضنا جدلًا وقوع الخطأ من أي مخلوق غير معصوم فلتكن المحاسبة من نصيب مقترفه ولتكن العقوبة للنملة الشاردة لا لقريتها

ولا تزر وازرة وزر أخرىٰ.

❁ ❁ ❁

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾

هنا فقط تكون صاحبهم

في تلك الحالة لا غير تكون حبيبهم ونديمهم وصديقهم

أن تفتن عن الوحي

أن تفتري غير الحق

إن معيار الصداقة والخلة لدىٰ المجرمين ومقياس رضا أهل الباطل عن أصحاب الرسالة وحملة الوحي هو التفريط والتبديل والتنازل عن بعض الحق الذي عندهم فإذا فعلوا صاروا مقبولين لديهم بل وأضحوا أصدقاء محببين إليهم

فقط إذا فعل

❀ ❀ ❀

إنه الإسراء

ذلكم الحدث المهيب، الذي فيه من العبر والآيات والومضات الشيء الكثير

هنالك صلىٰ النبي بإخوانه، ليتم ذلك المقام الإيمانىٰ الباهر، في تلك الأجواء النورانية، التي كان الحبيب أحوج ما يكون إليها في عام الحزن،

إنه ذلكم الحدث الجلل الذي سميت باسمه سورة من أحب سور القرآن لقلب النبي ﷺ لدرجته جعلته يداوم علىٰ قراءتها ولا ينام قبل أن يفعل ورد بسند صحيح عنه

إنها سورة بني إسرائيل،

سورة الإسراء (والاسمان ثابتان لها)

إنها حالة انتقال الاستخلاف من أمة إلىٰ أمة،

حالة تسليم الأمانة إلىٰ الرسول الخاتم،

وما يترتب علىٰ ذلك من انتقال القياد من قوم فُضلوا علىٰ العالمين دهورًا فلم يرعوا ذاك التفضيل وتلك الأمانة حق رعايتها،

بنو إسرائيل الذين أفسدوا في الأرض مرتين، وتمردوا علىٰ مولاهم ولم يعظموه حق التعظيم، فكان الاستبدال، ومضت سنة الله، وكما جاء في السورة: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾،

لقد بدأت السورة بعد ذكر الإسراء بذكر طرف من حال القوم الذين

حملوا الأمانة قبل أمة النبي صلىٰ الله عليه؛

إنهم بنو إسرائيل،

وما أدراك ما بنو إسرائيل؟!

كم رأوا من آيات،

كم أرسل إليهم من رسل وأنبياء،

وكم جحدوا وكذبوا وتمردوا، بل وقتلوا أولئك الأنبياء!!

فماذا كانت النتيجة؟

انتقلت عنهم الأمانة واستبدلوا،

ونزل الكتاب الجديد علىٰ رجل من ولد إسماعيل عليه السلام وصارت الرسالة إلي غيرهم،

هذا الكتاب الجديد هو الأمانة التي انتقلت،

هو الرسالة التي حُمِّلت للأمة اليافعة،

ولذا تجد سورة الإسراء من أكثر السور التي تكلمت عن القرآن وخصائصه وقيمته وفضله،

هنا مصدر الاستخلاف،

هنا الشفاء وهنا الرحمة والهداية للتىٰ هي أقوم،

وهنا يظهر التمسك بالأمانة،

فإذا حملت الأمة هذا الكتاب حق حمله؛ استحقت مدلول تلك الرمزية البديعة في حادثة الإسراء،

وإذا هي أحسنت التمسك؛ به استحقت الإمامة،

وإذا هي عملت بمنهجه من ربانية وتسبيح وتعظيم، والتزام وصاياه وتوجيهاته؛ فهىٰ بذلك حقًّا الأمة المستخلفة،

أما إن فرطت فيه وأفسدت كما أفسد من سبقوها،

فالاستبدال إذًا لا محالة، ولن تجد لسنة الله تبديلًا ولا تحويلًا،

فهل تحملت أمتي ذلك الإرث وصانت هذا الفضل؟

هل صانت الأمة قيمة إسراء نبيها وإمامته فكانت أمة الأئمة؟

أم أنها بدأت مرحلة التفريط والإفساد فضاع منها مسراه الكريم، وصارت علىٰ شفا تضييع رمزيته كذلك، وعلي إثره تضيع مزيتها وخيريتها التي أعطاها الله رب العالمين؟!

أسئلة ينبغي ألا تغيب عن أذهاننا ونحن نتلوا:

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

❁ ❁ ❁

ولقد ختمت سورة الإسراء بأمر هو من الأهمية بمكان عظيم للغاية في حياة المسلم

﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾

التكبير

إنه أمر بأكثر ذكر فرضه الله علىٰ المسلم في كل أحواله تقريبًا

وفي الصلاة تكبير من أولها إلىٰ منتهاها

بل من قبلها في الأذان ثم الإقامة ثم تكبيرة الإحرام ومرورًا بأركانها وشعائرها وركوعها وسجودها وحتىٰ انتهائها بل وبعد انتهائها في أذكار ما بعد الصلاة

وكذلك في الصيام قال الله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وأيضًا في الحج والنسك يقول الله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

وعند السفر شرع لنا أن نكبر الله في دعاء السفر

وعند ارتقاء مرتقىٰ شرع التكبير أيضًا

وفي العيدين شرع التكبير

وعند النوم يسن التكبير

وعند الذبح يكبر المسلم

وعند الاستسقاء يصلي ويكبر

وفي فرحه يكبر كما ثبت من فعل الصحابة رضي الله عنهم

وأيضًا في الحزن وعند مفارقة الأحبة نكبر عليهم أربعًا في الجنازة

وغيرها من مواطن أحاط الله حياتنا وعبادتنا فيها بالتكبير

لكن للأسف هناك من لا يجاوز التكبير لسانه ولا يلامس التعظيم قلبه

وهل صدق من زعم أنه يكبر الله ثم آثر ألا يضحىٰ ولو ببعض راحة لإجابة ندائه للصلاة؟

هل صدق من زعم أنه يكبر الله وهو يأبىٰ أن يضحىٰ بمال محرم أو بنظر محرم أو بفعل أو قول محرم؟

هل صدق من زعم أن يكبر الله بينما يخشىٰ الناس والله أحق أن يخشاه؟!

هل صدق من زعم أنه يكبر الله وكان غالب حاله الخوف من سواه وموالاة أعداء مولاه؟!

إن لتعظيم الله دلائل كما سبق وبينت وليست مجرد ادعاءات

وعلىٰ المعظم حقًّا والمكبر صدقًا أن يعىٰ كون تعظيمه لربه لا بد أن يكون مقترنًا بتعظيمه لشرعه وأمره ونهيه ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾

ليس شرطًا لتظهر تعظيمك أن تهاجر أو تتكلف تضحية بولدك أو منصبك أو بمالك كله،

لكن مناط الأمر يكمن في كلمة واحدة

الاستعداد

ولذلك الاستعداد إرهاصات لا بد أن تظهر أولًا

لا بد أن يظهر عليك تعظيمك لله ولشرعه ولحرماته وشعائره وللحق وكلمته حتىٰ إذا حدث التعارض بين محبوب أو مرجو وبين رضوان الله والحق الذي يرضاه قدمت بلا تردد رضوان الله

الله أكبر ليست فقط ذكرًا أو جملة من مبتدأ وخبر

الله أكبر هي قيمة بها يحيا المسلم ويسير في دربه سالكًا إلىٰ ربه

الله أكبر هي معنىٰ إذا ترسخ في القلب هانت عليه الصعاب وصغرت في عينيه المخاوف والتهديدات وتضاءلت في نظره أعظم التضحيات

فكل ما يشغله أو يثنيه أو مخاوف قد تعتريه فالله . . . أكبر

آه لو قلناها بصدق

الله أكبر

أكبر من كل شيء

أكبر من مخاوفي ومرجواتي

أكبر من طموحاتي وأحلامي

أكبر من شهواتي وانشغالاتي

أكبر من محبوباتي

أكبر من خصومي وأعدائي

ولقد كان هذا التكبير والتعظيم أصلًا لكل عمل مجيد وتضحية جليلة

فما أقدم إبراهيم عليه السلام علىٰ تضحيته بولده إلا لأن مقام الله كان في قلبه أعظم

وما ضحىٰ يوسف عليه السلام بحريته ومكانته وأعلن أن السجن أحب إليه إلا لأن خشية الله في قلبه أكبر

وما جاد صهيب الرومىٰ بماله كله أثناء هجرته إلا لأنه حبه لله ورغبته في رضاه كانت أظهر

وما كان خبيب بن عدي يبالي حين يقتل مسلمًا علىٰ أي جنب كان في الله مصرعه إلا لأنه كان معظمًا لربه

وما قال سعد بن أبي وقاص لأمه حين حاولت فتنته عن دين ربه بقتل نفسها: لو أن لك مائة نفس خرجت كلها نفسًا نفسًا ما تركت ديني فكلي إن شئت أو لا تأكلي. إلا لأن حبه لله أكبر

وعبد الله بن عبد الله بن سلول ما وقف لأبيه حين سب نبيه ﷺ إلا لأن إرضاء الله كان في نفس الولد أهم من كل شيء حتىٰ أبيه

وما قام حنظلة غسيل الملائكة ملبيًا نداء المنادي يا خيل الله اركبي ومضحيًا بليلة عرسه ثم بعد قليل مضحيًا بنفسه إلا لأنه أحب الله أكثر وعظمه أكثر وكبره تكبيرًا

وما جادت الغامدية بنفسها واستعر الندم في قلبها إلا لأن مقام الله في قلبها كان أكبر من أن تحتمل معصيته

وما ضحىٰ أصحاب الأخدود ومن قبلهم الغلام بأنفسهم واحتملوا ما لاقوه من العذاب إلا لأنهم كبروا الله وعظموا مقامه

وكذلك كان حال كل شهيد صادق وكل منفق مخلص وكل مضح محتسب

تعظيما لسيدهم وتكبيرًا لمولاهم

هكذا فكن نفسك وتعظيمك وتكبيرك وإني لك ناصح ولنفسي: حذار أن نكون ممن كبر الله كذبًا

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾

سورة الكهف

ولقد ورد ذكر الفردوس فقط في موضعين من كتاب الله

والموضعان يقترنان بعلو الهمة في طاعة الله والترقي في مقامات الدين المتنوعة

فيأتىٰ ذكر الفردوس بعد صفات المؤمنين في سورتهم التي سميت باسمهم وافتتحت بصفاتهم وأخلاقهم من خشوع وعطاء وعفة وإعراض عن اللغو إلىٰ آخره مما نفصله بإذن الله في موضعه . . .

وفي الموضع الآخر يرد ذكر الفردوس في سورة الكهف التي تمتلىٰء بالحركة والبذل لدين الله ﷻ والتضحية لأجله وفيها نماذج لعلو الهمة المذهل تحت مختلف الضغوط في أي ظرف كان

فتجد أبطال قصص سورة الكهف يضربون أروع الأمثلة في التضحية بالمكانة ورغد العيش

كما في قصة من سميت السورة باسم محلهم الذي هاجروا إليه بدينهم

وفيها علو الهمة في الدعوة والنصيحة في قصة صاحب الجنتين وصاحبه الذي يحاوره

وفيها علو الهمة في طلب العلم والاستعداد للمسير لأحقاب وسنين في سبيل تحصيله كما في قصة موسىٰ

وفيها علو همة الحاكم العادل الممكن في الأرض والذي يجوب مشارقها ومغاربها لنشر العدل ونصرة المظلومين والأخذ علىٰ يد ظالميهم كما في قصة ذي القرنين

لذا استحقت تلك السورة بقصصها المبهرة وهمم أبطالها أن تشرف بالموضع الثاني لذكر الفردوس

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾

والفردوس هو أعلىٰ الجنة وأفضلها لذا يناسبه أصحاب تلك الهمم العالية والأعمال الفاضلة والنبي ﷺ يوصينا حين نسأل الله الجنة أن نطلب فردوسها فالمسلم الحق لا يرضىٰ بالأدنىٰ -وليس في الجنة دني ولكن الأمر نسبي- لكن المسلم المسدد يسعىٰ في أمر الآخرة للأعلىٰ والأكمل ومن ثم يحرص علىٰ بلوغ ذلك الكمال بما يناسبه من عظيم الأعمال وعالي الآمال وإن امتطىٰ لأجل ذلك الصعاب وارتقىٰ في سبيله الجبال التي من لم يهو صعودها يعش أبد الدهر بين الحفر

رزقنا الله وإياكم الفردوس الأعلىٰ من الجنة

❁ ❁ ❁

ولأن سورة الكهف احتشدت بنماذج لمن ثبتوا في مواجهة أعتىٰ فتن الدنيا ابتداء من الفتنة في الأمن والتهديد بالرجم وقتل النفس ومرورًا بفتنة المال وفتنة العلم والتحذير المتضمن من الاغترار بهما والاستعلاء بسببهما وانتهاء بفتنة القوة والسلطان والتمكين في الأرض ولأن أبطال قصص سورة الكهف قد ثبتوا أمام كل تلك الفتن وضربوا أروع الأمثلة في تفضيل مرضاة

الله علىٰ فتن الدنيا ومغرياتها فإن ذلك الثبات العظيم يناسب الفضل المروي لهذه السورة من حفظ الله لقارئها وعصمته من أشد وأخطر فتنة تشهدها البشرية وهي فتنة الدجال

ذلك لأن طريقة هذا المجرم في إضلال الخلق وفتنتهم لن تخرج عن الإبهار بدنياه وما أوتي من قوة وتمكين وما يعد أولياءه من ثواب زائف وما يتوعدهم به من عذاب خادع

لذا فإن من يعي ويدرك جيدًا أبعاد تلك الفتن المذكورة في السورة ويدرب نفسه علىٰ اتقائها فحري به أن يوقىٰ فتنة الدجال إن أدركها

❁ ❁ ❁

﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ﴾

لم يستنكف موسىٰ عليه السلام أن يقول تلك الكلمات للخضر عليه السلام

لم يجد حرجًا أن يقطع المسافات ويجوب الفيافي وهو النبي المكلم والرسول صاحب العزم ليتعلم من عبد من عباد الله أوتي علمًا لم يؤته موسىٰ

لم يثنه مقامه ولم تعطله مكانته عن التواضع والاستماع والتعلم ممن اطلع علىٰ علم لم يبلغه وأحاط بحقائق لم يدركها وهو الخضر عليه السلام بل ويخاطبه بكل تواضع قائلًا: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾

إن آصار التكلف وقيود العنت التي حالت بين عقول وقلوب كثير من الناس وبين إظهار تلك الحقيقة بوضوح وثبات لا ينافي الاحترام ولا ينقص من قاعدة إنزال الخلق منازلهم

حقيقة أن من يشتهر أنه أقل منزلة قد يحيط علمًا بما لم يحط به من هو

أعلىٰ منه مقامًا وأكثر علمًا

حقيقة تحتم علىٰ الأعلىٰ مقامًا حينئذ أن يتواضع ويستمع بل ويتحرك بناء علىٰ تلك الحقيقة كما فعل سليمان عليه السلام

إنها تلك الحقيقة التي جعلت الهدهد يخاطب سليمان عليه السلام قائلًا: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾

حقيقة أنه لا مجاملة في العلم ولا محاباة في الفهم وأنهما ليسا حكرا علىٰ أحد

❀ ❀ ❀

نبي وعبد صالح ملهم

وقيل نبيان بحسب القول بأن الخضر عليه السلام نبي

وقيل ثلاثة أنبياء بحسب القول بأن فتىٰ موسىٰ هو يوشع بن نون وهو نبي أيضًا

جمع كريم هو

ثلة مباركة طيبة

ولقد تحركوا جميعًا

تحركوا لبناء جدار يكاد أن يتهدم يمتلكه يتيمان لم يبلغا أشدهما ولم يتمكنا بعد من استخراج كنزهما المدخر

ولماذا يستحق هذا الجدار أن تتحرك تلك الثلة المباركة لبنائه؟

ولماذا هذان اليتيمان تحديدا؟!

الجواب: لأن أبا الغلامين كان رجلًا صالحًا!!

إنها قيمة الصلاح

قيمة عظمىٰ تجعل للمرء كرامة ومنزلة عند ربه تجعله يوجه خلق من أحب وأكرم خلقه إكرامًا وحفظا للصالحين وذرايتهم

تأمل قيمة موسىٰ والخضر عند الله لتعلم بالتبعية قيمة هذا العبد الصالح الذي حرك الله خيار خلقه واستعملهم لأجل حفظ حق أبنائه

ودون أجر أو مثوبة من البشر

فقط لأن أباهما كان صالحًا

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾

❀ ❀ ❀

وذلك الرجل المؤمن الإيجابي الذي ما انفك يحاور صاحبه المستكبر بجنتيه ويذكره بربه سائلًا إياه: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾

هل كان هذا الرجل المؤمن متدخلًا في شأن صاحب الجنتين وهو يسأله هذا السؤال ناصحًا إياه ومنبها من مآل كلامه ومغبة كبره وعناده؟

هل كان بذلك يزايد عليه كما يحلو للبعض أن يصوروا الدعوة والدعاة والنصح والناصحين؟!

إن قصة هذا الرجل الإيجابي الحريص علىٰ النصح والحوار تعد حجة

قرآنية دامغة تجعل الرافضين للدعوة والمحتقرين للنصيحة والمهاجمين للتذكير في موقف صعب وتجعل ادعاءاتهم المشيطنة للنصيحة والذكرىٰ في مهب الريح

فلو أنهم هاجموا ذلك الرجل المؤمن ورفضوا حواره طبقًا لمذهبهم الخبيث فإنهم يرفضون بذلك مثالًا قرآنيًّا بديعًا ورد في سياق المدح والترغيب وحكم ذلك الرفض معلوم طبعًا

ولو أنهم أقروا أنه مثال يقتدىٰ به ونموذج يقتفي أثره كما هو حال تلك النماذج الطيبة في القرآن الكريم لبطلت حجتهم وطاشت شبهتهم ووقعت دعواهم بين شقي الرحىٰ

رحىٰ المعاني القرآنية الإيجابية المحكمة

❁ ❁ ❁

قصص وأبطال لم يذكروا من قبل ولا من بعد في أىٰ موضع من كتاب الله

أحداث متفردة ومناطق مختلفة لن تجدها إلا في هذه السورة

سورة الكهف

فقط في سورة الكهف ستجد قصة صاحب الجنتين وستطالع ذكر الخضر وقصة ذي القرنين وطبعًا خبر أصحاب الكهف والرقيم الذين سميت السورة باسم كهفهم

كل هؤلاء لم يشر إليهم ولو إشارة في أىٰ موضع آخر

وإن من أبرز ما تشترك فيه تلك القصص الأربعة وأبطالها الحركة المستمرة

السعي الدؤوب

الحركة لدين الله

حركة تجعل القلب يلهث وهو يتحرك مع أصحاب الكهف إلىٰ كهفهم هجرة بدينهم وما يلبث أن يستريح حتىٰ يلهث مرة أخرىٰ مع الرجل المؤمن وهو يدخل علىٰ صاحب الجنتين يدعوه ويعظه ويذكره بالله ثم يهرع القلب سريعًا مع نبي الله موسىٰ وفتاه في رحلة طويلة حتىٰ مجمع البحرين يجوب قفارها موسىٰ عليه السلام طالبًا للعلم والفهم وتتلاحق الأنفاس أكثر مع رحلات الملك العادل ذىٰ القرنين وهو يجوب مشارق الأرض ومغاربها لنشر العدل ونصرة المظلوم حيثما كان

حركة دؤوبة ومتنوعة ما بين هجرة لإقامة الدين إلىٰ دعوة وأمر بمعروف ونهىٰ عن منكر إلىٰ طلب للعلم وارتحال وبذل لأجل تحصيله ثم جهاد ونصرة وتفع للناس مع كل ظرف وتحت أي ضغوط أو مؤثرات هناك حركة من نوع ما

إنها رسالة واضحة مفادها أن هذا دين حركة وعمل وبذل ودأب ليس دين دروشة أو راحة وكسل في كل مقام وفي كل حال هناك نوع من الحركة المطلوبة عند الاستضعاف هناك حركة وتكليف بالصدع ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾

تأمل قيامهم وقولهم

ثم تأمل المفاصلة الواضحة في قولهم

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾

ثم تأتي الهجرة للنجاة بالدين بعد انقطاع السبل واستحالة الظهور

﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾

وعند ظهور المعاصي والغفلات هناك حركة دعوية حوارية ظهرت جلية في الحوار المستمر بين صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن وتكرار لفظ وهو يحاوره يبين تلك الحالة النابضة والسعي الحثيث للتغيير والنصح

وعند وجود نوع من الاستقرار يسمح بالحركة في طلب العلم والاستزادة من المعرفة النافعة نجد موسىٰ يجوب الفيافي والقفار معلنًا نيته وعزمه وإصراره علىٰ بلوغ غايته العلمية: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾

إن الإصرار بلغ به استعدادًا لأن يظل سائرًا لأحقاب طويلة وأعوام مديدة وأزمنة مديدة لا لشيء إلا ليتعلم

ويعرف

وحينما يدرك بغيته تجد التعليم العملي من خلال الحركة المستمرة أيضًا والتي تظهر في لفظ متكرر ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ وإذا بالحركة التعليمية العملية تستمر من قرية لأخرىٰ وعبر البحر والبر والمتعلم يتواضع ويتصبر

وعند الرخاء والتمكين واكتمال الأسباب المادية والقوة السلطانية لن تجد في السورة الإخلاد إلىٰ دعة القصور وسعة حدائقها الغناء ولذاتها ومتاعها

بل ستجد حاكمًا عادلًا وسلطانًا قويًّا متحركًا يجوب مشارق الأرض ومغاربها لينشر العدل في ربوع المعمورة وينصر المستضعفين ويكف أذىٰ المفسدين والظالمين

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾

حركة عالمية كبرىٰ لا تعرف حدودًا ولا تحصرها قوميات

فقط الحق والعدل واستعمال ما أوتي من أسباب لأجل ذلك

المهم أنه دائمًا كانت هناك حركة وبذل من نوع ما

إنها صورة رائعة للمجتمع المسلم المطلوب

مجتمع متحرك عامل مهما تباينت الأحوال ومهما تغايرت الأوضاع والمؤثرات

يظل الأصل أن المؤمن متحرك إيجابي نافع حيثما حل وارتحل

❀ ❀ ❀

﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾

وهل الكهوف يقال لها مأوىٰ؟؟!

كهف بارد مظلم في سفح جبل وعر لا مرافق فيه ولا متاع ولا أمن ولا أمان

كهف لا باب له ولا سكن فيه قد تسعىٰ بداخله هوام الأرض وتغشاه

وحوش البرية أو يقتحمه اللصوص وقطاع الطرق

أومثل هذا يقال له مأوىٰ؟!

الجواب نعم

وذلك حين يعد الله أن يكون كذلك

﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾

إذن فقد صدر الوعد بالرحمة من الرحمن الرحيم

سيتحول إلىٰ المأوىٰ بإذن الله وستتغير نواميس الكون كرامة لهؤلاء الشباب المضحين وحفظًا وإيواءً لعلية قوم تركوا ثرواتهم ومناصب آبائهم لا لشيء إلا إيمانهم

سترىٰ الشمس تميل عنهم عند احتدادها ثم تقرضهم شيئًا من دفئها قبل غروبها

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ﴾

سيقلبون في حركة مستمرة تقيهم قرح الرقاد الطويل وسترىٰ أعينهم مفتحة فلن تتعود الظلام فينطفئ نورها وسيحسبهم الصائل مستيقظين فلا يغير عليهم وكلبهم متأهب الهيئة يحميهم من الكواسر والهوام

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾

حتىٰ نواميس الزمن ستتغير لأجلهم فسيعيشوا حتىٰ يهلك أعداؤهم المتربصون وربما يهلك أبناؤهم وأحفادهم

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا﴾

لقد صار الكهف المقفر الموحش آمنًا مطمئنًا وتوافرت به مرافق العيش وكل ذلك كرامة لأولئك المهاجرين المضحين الذين نالوا الوعد بالرحمة فبلغتهم في قعر القسوة

وصار الكهف مأوىٰ

❁ ❁ ❁

ولقد كان يغلب علىٰ ظن كل بطل من أبطال قصص سورة الكهف أنه بعد انتهاء مهمته فإنه بإذن الله سيرجع

رغم التضحية والبذل والمشقة إلا إنه سيرجع

حتىٰ لو طال الزمن به في رحلته فإن شاء الله سيرجع

إلا الفتية

هؤلاء الشباب حين خرجوا إلىٰ الكهف وهاجروا بدينهم لم يعلموا أن ثمة عودة أو رجوع

بل غلب علىٰ الظن أنهم لو عادوا سيهلكوا

﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾

إذا فقد خرجوا في رحلة اتجاهها واحد وليس فيها تذكرة عودة

رحلة تضحية من نوع خاص

تضحية بكل شيء

بكل متاع الدنيا

بالمنصب والمكانة والمال ورغد العيش والبديل ماذا؟!

كهف مقفر بارد مظلم

ولأجل تلك التضحية المدهشة استحقوا أن تحمل السورة اسم ذلك المأوىٰ الذي اختاروه علىٰ ديارهم وثراء أهليهم

وليسعهم الكهف ويتسع لهم ما دام في طاعة الله

وفي سبيله

❁ ❁ ❁

لما طُلب من ذي القرنين أن يجعل سدًّا بين القوم وبين أعدائهم لم يسارع للتنفيذ، رغم قدرته علىٰ ذلك وهو الذي أوتي من كل شيء سببًا

لقد قال لهم وهو المُمَكَّن القوىٰ: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾

لقد أشركهم معه

غرس فيهم قيمة العمل والبذل

ثم هو لم يكتف بذلك، وما زال بهم حتي علمهم صناعة سبيكة الحديد والنحاس، وأطلعهم علىٰ سر بناء السد المتين، الذي يصمد ويقوي علي حجز يأجوج ومأجوج

يمكنك أن تقول إنه لم يعطهم سمكًا، ولكنه علمهم كيف يصطادونه بأنفسهم

وهكذا القائد المتجرد النصوح

ليست قضيته أن يظل الأتباع عالقين به لا يتحركون إلا بأمره، ولا يرون في الكون غيره وإنما يعنيه أن تكون لديهم القدرة علىٰ العمل والحركة والتغيير والبناء.

به أو بدونه ..

فإنه في النهاية ميت وإنهم ميتون.

لا بأس من وجود القادة والرموز

بل لا غنىٰ عن وجودهم

لكن لا يصح أبدًا أن تتمحور الحياة فقط حولهم، وتختزل في أشخاصهم حتىٰ يتحولوا في ميادين النفس إلىٰ أوثان كبيرة، تنتهىٰ إليها الأحداث، وتدور في فلكها الوقائع

وليرتبط الناس بالحق والعلم والعمل

وليس بالأشخاص

❁ ❁ ❁

والقوة حين تجتمع مع الصلاح والإيمان تكون المحصلة مبهرة وإن كانت نادرة الحدوث

فالأصل أن القوة والسلطان يغران صاحبهما ولذا استدل فرعون علىٰ ألوهيته بتلك القوة والملك والسلطان ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ﴾

لكن القوة والسلطان والصولجان والأسباب من كل مكان لم تغير من نفس ذي القرنين ولم تغره أو تعكر صفو تواضعه وتجرده

لذا تجده في قمة تمكينه وفي خضم إنجازه الهائل ببناء السد المعدني الشاهق ومع ذلك يقول بتجرد مدهش وتواضع منقطع النظير ناسبًا الفضل لربه ومبينًا أن هذا السد العظيم الذي انتهىٰ حديثًا ليس بفضل منه هو بل

﴿هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾

لم يقل هذه بقوتي، وإنما هو رحمة من ربي ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ نتعلم من ذي القرنين التجرّد.

❀ ❀ ❀

وكم من أشياء قد يبدو ظاهرها محزنًا مؤسفًا وهي في باطنها رحمة ولطف يوصل به اللطيف ما يريد لعباده بشكل غير مباشر

تصور حال أصحاب السفينة حين خرقها الخضر عليه السلام

وتخيل حال والدي الطفل القتيل حين علما الخبر

يقينا كان الحزن شديدًا والأم مفجعًا

لكن الحقيقة كانت علىٰ غير ظاهرها

ربما لم يعلموا أن ذلك الذي آذاهم وأحزنهم قد كف عنهم شرًا لم يكن لهم قبل به

وهذا متكرر في حياتنا

نحزن كثيرًا لأمور لعل فيها الخير لنا دون أن ندري متناسين أن الله لطيف

❀ ❀ ❀

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾

الأمر ليس قاصرًا علىٰ مجرد المعرفة والإقرار

لا بد من علم عملي ومعتقد مُفَعَّل يورث شوقًا ورغبة في اللقاء

ورجاء وانتظار

يرجو اللقاء

يريده

يشتاق إليه

لا بد إذن أن ينتظره،

وأن يعد له العدة،

ويتجهز . .

هنا يأتي الجواب عن السؤال في نقطتين

أما الأولىٰ:

﴿فَلۡيَعۡمَلۡ﴾

وليس أي عمل

بل ﴿عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾

والعمل الصالح هو ما كان موافقا للهدي متبعًا له غير متلبس ببدعة أو ضلالة

وأما الثانية ف﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾

إنهما الإخلاص والمتابعة

وفي تلكما الكلمتين خلاص المؤمن من آصار الشرك والبدعة وقيود الرياء والعجب

في الإخلاص وتوحيد الوجهة وفي الالتزام بالهدي الصحيح الصالح رجاء حقيقي

وحق لأمتالهم من المخلصين المتبعين علىٰ بصيرة أن يرجو

أن يرجو لقاء الله

❁ ❁ ❁

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ . .

لكنه لم يفعل

لم يعجل العذاب

بل حلم وأمهل

ورحم

تخيل لو نزعت الرحمة عن العصاة

تخيل لو عجلت لهم العقوبة آنيًّا ونزلت عليهم لحظيًّا

ينظر نظرة حرام فيعمىٰ

يغتاب أو يكذب فيتدلىٰ لسانه ويقطع لكن الله سلم ورحم.

سورة مريم

﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾

فرجعناك إلىٰ أمك كي تقر عينها ولا تحزن

أن يوجه الودود نواميسه ويحرك مخلوقاته ويسبغ جميل فضله ليقر عين عبده أو أمته

أن يعيد رضيعًا إلىٰ حضن أم مكلومة أو ينطق وليدًا ويفجر عينًا ويقرب رزقًا لكي يسعد ويقر عين من يحبهم ويحبونه

تتأمل ذلك فلا تملك حينئذ إلا أن تذوب شوقًا لمثل هذا المقام الكريم والمكانة الجليلة

مقام أن يحبك الودود ويعلو مقامك عنده حتىٰ يصير إقرار عينك وإسعاد نفسك وتفريج همك سببًا لبعض أفعاله جل في علاه . . .

❁ ❁ ❁

ولما وعد الله جل وعلا أن يكون المسيح عليه السلام رحمة ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ كانت حياته كلها نموذجًا للرحمة الرقراقة المتدفقة منذ أول لحظة فيها

ها هو أثناء ولادته ينادي والدته يطمئنها ويبشرها بالرحمة وقرار العين

وبعد الولادة كان رحمة بأمه من الفضيحة حين أنطقه الله مبرئا إياها

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾

وظل طوال حياته بارًّا بوالدته رؤوفًا رحيمًا بها

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾

وكان عليه السلام رحمة بقومه وليحل لهم بعض الذي حرم عليهم

وحيثما كان حلت بركته وفاضت رحمة الله من خلاله

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾

وقبل قيام الساعة يرحم الله به الناس من فتنة الدجال حين يقتله بيده عند باب لد ويخلص الدنيا من شروره

حتىٰ في يوم القيامة لا تغادره الرحمة ولا تنفك عنه وتتجلىٰ في قوله المترجي الأسيف ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

في كل مراحل حياته كانت الرحمة والبركة كما وعد الرحيم قبل ولادته

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾

❁ ❁ ❁

هاهو المخاض قد ألجأها إلىٰ جذع النخلة،

ها قد اقتربت اللحظة الحاسمة،

وحدها في ظلها

لا رفيق ولا عضد، ولا أم تسعىٰ، ولا قابلة تعين علىٰ آلام المخاض،

لم يكن لدعوة أحد من سبيل

وكيف كانت ستخبرهم؟

إن الأمر معقد، وإن القوم بسطاء؛ لن يفهموا الآية، وحولهم من رعاع بنىٰ إسرائيل من سيظل مجترئًا علىٰ القدح في عرضها، رغم ما جاءهم من الحق وعرفوه،

لقد كانت مضطرة إلي هذا المكان القصيّ، لا أحد يدرك حقيقة حالها إلا مولاها،

﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾

ياله من حزن ذلك الذي يقطر من حروفك أيتها الصديقة،

هم وغم لا تقدره إلا العفيفات،

حزن وكرب لا تعرفه البغايا، ومن هُنَّ علىٰ أنفسهن، حتىٰ رضين أن يكن سلعًا تباع وتشترىٰ، وتلتهم بالأبصار

أما أنت أيتها الحيية؛ فالموت والنسيان أحب إليك من أن يصمك بريبة عربيد لا يقدرك حق قدرك،

﴿لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا﴾

ما هذا الصوت؟!

واقع هو أم خيال؟

كيف، وقد انتبذت من أهلها مكانًا قصيًّا!

لا يوجد مخلوق في هذه المكان البعيد،

إنها المعجزة، وإنها الآية

إنه الغلام الذي لم يكد يخرج بعد . .

يتكلم!

سبحان الفاطر الخالق القادر الحكيم!

ها هو النبع يتفجر من أجلها، لتجد الماء الذي ترطب به حر الألم، وشدة الجهد الذي ألم بها

﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾

وهل مجرد هزة واهنة بيد نفساء ضعيفة، لجذع نخلة راسخة؛ تسقط ثمارًا يصعد الرجال الأشداء ليأتوا بها؟!

نعم، وما ذلك علي الله بعزيز، ولله في طلاقة قدرته آيات

إنها لعطية

وإنها لهبة من عند من يقول للشيء كن فيكون

وإنها لرحمة

وكذلك الرحمة

تحف بمريم في خضم شدتها والبأساء التي ألمت بها فتسري عنها وتواسيها. وتتسرب إلىٰ قعر بيت فرعون لتقر عين أم موسىٰ ولا تحزن علىٰ بلائها

وتنفذ إلىٰ إبراهيم بين ألسنة لهب مشتعل ليكون بردًا وسلامًا عليه

إنها الرحمة وإنه الرحيم جل وعلا

❁ ❁ ❁

﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ . . .

لماذا خفيًّا؟

هل هو حبه للخلوة

أم هو استحياؤه من طبيعة الدعوة وفحواها

تخيل لو سمعه الناس يدعو بالولد وهو علىٰ هذا الحال

فأين الأسباب التي يطلب بها ولدًا؟

إنه شيخ واهن العظم مشتعل الرأس بالشيب وامرأته عاقر

الأسباب معدومة إذن

والسبل منقطعة

لكن زكريا عليه السلام رغم كل ذلك داوم علىٰ التعرض لنفحات مولاه أحسن الظن به ودعاه

ورغم انقطاع الأسباب وإغلاق كل السبل

إلا إنه لم ييأس وإن اجتمعت مبررات اليأس

﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾

هذا هو السر وهنا مربط الفرس

كل دواعي اليأس تطيش مع حسن ظنه وثقته التي ظهرت في قوله: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾

فليدع إذن وليطلب فما كان ليشقىٰ مثله بالطلب والتضرع

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾

لقد جاء الفتح وسمع البشارة

فليخرج إذن علىٰ قومه

لكن يخرج عليهم من أين؟

أين كان وما هو محل دعائه وموطن خلوته؟

لقد كان هناك

في المحراب

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾

❀ ❀ ❀

﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ ..

إنها أول عبارة ينطقها

أول كلمة يفتتح بها حياته الحافلة

إنه يستفتح تلك الحياة بإقامة الحجة علىٰ كل من سيغلو فيه بعد حين

ما هو إلا عبد

بهذا بدأ كلامه في الناس،

وهكذا استفتح حجته، وبرأ أمه الطاهرة النقية

﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾

﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾

ذلك هو عيسىٰ بن مريم،

فلم الجدال ولم المراء؟

هو عبد عابد نبي، مبارك حيثما حل، مأمور بصلاة وزكاة كسائر العباد، بشر يولد ويموت، وابن بار، وحامل رسالة ومبلغ كتاب،

هذا هو المسيح ببساطة ووضوح وهكذا الشرط منذ البدء

ليس إلاها ولا نصف إله، ولا ابنا لله، وما قال للناس يومًا: اتخذوني وأمي إلاهين

بل عبد الله

وما أشرفه من مقام

مقام العبودية

❀ ❀ ❀

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾

إنه يخاف عليه من العذاب

هذا هو الأصل

وهكذا لا بد أن يكون أصل كل دعوة

الحرص علىٰ الناس والخوف عليهم من عذاب الله

فإن وجد هذا الحرص الصادق والخوف المورث للرغبة في نجاتهم وهدايتهم صحت الدعوة وتقبلها الله بإذنه تعالىٰ أما نفسية الهجوم علىٰ البعيد عن الله وإثبات إدانته فما هي بدعوة وما أهلها بدعاة

أما إن وجد ذلك الخوف والحرص فهي الدعوة الصادقة المباركة

كذلك كانت دعوة إبراهيم لأبيه

وكذا مؤمن آل فرعون ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾

وكذا قال نوح وشعيب وهود وغيرهم من الصالحين المصلحين في كل زمان

الخوف علىٰ القوم كان أصل دعوتهم والرغبة في هداية الناس كانت عماد سعيهم وبذلهم

❁ ❁ ❁

وإن الغضب لله والغيرة علىٰ حرماته من أهم نتائج الإيمان وعلاماته

وكما أن محبة الله مقترنة بمعرفته ملازمة لها فإن الغيرة لا تنفك عن المحبة

وإن المحب يغار وغيرته تلك علامة حبه وبذلك نفهم قول رسول الله ﷺ في شأن مشاعر المؤمن تجاه حرمات الله: «**إن المؤمن يغار والله أشد غيرة**» وغيرة الله أن يأتىٰ المؤمن ما حرم عليه

فهو يحب عبده ويغار أن يلقي عبده بنفسه في حبائل عدوه

والمؤمن المحب لله يغار ويغضب إذا ما انتهكت حرمات مولاه أو تطاول أحد علىٰ مقامه

بل إن الجمادات التي يسميها الناس بغير العاقلة تغضب لله وتغار علىٰ مقامه أن يساء إليه

لقد كات السموات أن تتفطر والأرض أن تتشقق والجبال أن تتهدم لقول

فيه تطاول علىٰ مقام من لم يلد ولم يولد ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾

﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾

﴿أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾

﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾

تأمل رد فعل تلك المخلوقات حين سمعت ذاك القول وقارن بينه وبين رد فعل أقوام لا تتمعر وجوههم ولا تختلج قلوبهم عند سماع سب دينهم والتطاول علىٰ مقام ربهم والانتهاك المتواصل لحرماته

هل هي قلوب لم تعرفه فلم تحبه فلم تغر علىٰ حرماته؟؟

أم هي قلوب أقسىٰ من تلك الحجارة؟!

حجارة الجبال التي تكاد تخر غضبًا لله

❁ ❁ ❁

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾

لم يقل ووقعوا في الشهوات أو ارتكبوا شهوة محرمة مثلًا ولم يفرق هنا بين الشهوات المحرمة وغير المحرمة لكنه جعل المذمة مرتبطة بالاتباع

وهذا أصل المشكلة وأساس المصيبة

أن تصير الشهوة محركًا يقود الإنسان فيتحول إلىٰ مجرد تابع مطيع حيثما وجهته الشهوة سمع وأطاع فذلك هو موطن الذم وهو الذي يرتبط أيضًا

بإضاعة أهم التكاليف العينية؛ الصلاة

وهذا شر خلف لخير سلف ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾

❁ ❁ ❁

وتأمل تلك المقابلة بين تكريم أهل التقوىٰ يوم القيامة وإهانة المجرمين وأهل الباطل

إنها مقابلة تتضح منذ بداية الحشر وتظهر في هيئته

فالمتقون يأتون كوفد كريم

وكلمة وفد تلقي بظلال من الاحترام والمكانة حيث يدخلون كزوار مكرمين مرحبًا بهم كما تلاقىٰ الوفود فقد كان يفدون علىٰ الرحمن في الدنيا في بيوته التي أذن لها أن ترفع ويذكر فيها اسمه فأنعم بها من وفادة في الدنيا والآخرة

﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾

بينما يساق المجرمون

﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴾

يساقون عطشىٰ كأنما هم قطيع يورد إلىٰ ماء وما من ماء حيث يذهبون

وفعل السوق يرتبط في الأذهان بسوق القطعان من الأنعام فهم المجرمون الذين طالما شبهوا بالأنعام بل هم أضل سبيلًا فناسب حالهم الدنيوي الأنعامي الغافل ذلك الحال الأخروي من الانسياق كالبهائم والدواب

ذلك لأنهم طالما انساقوا خلف شهوات وشبهات وأهواء وأئمة ضلال

ومتبوعين ساقوهم إلىٰ ذلك المورد وبئس الورد المورود

❁ ❁ ❁

وسطحية أهل الباطل قديمة وسفاهة منطقهم وظاهرية حكمهم علىٰ الأشياء معتادة ومتكررة

فبدلا من أن يردوا الحجة بالحجة ويناقشوا القيم المعروضة والمعاني التي يدعون إليها تراهم يوجهون سهام نقدهم ومراء مقارناتهم إلىٰ الداعين وحملة الحق فيعيبون مظهرهم الخارجي ويلمحون إلىٰ ضيق عيشهم وتدني مستواهم الاجتماعي أو الاقتصادي

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾

الآيات بينات واضحات مفصلات فلماذا لا يدور الكلام حولها؟

لماذا تتحول دفة الحديث إلىٰ فوارق طبقية أو علاقات اجتماعية

ما علاقة المقام الدنيوي ومكانة الجلساء والندماء بالموضوع؟!

إنه الضعف وسطحية النظر ومادية التفكير

ولو كانت العبرة بالماديات والرؤية الخارجية والمظهرية الفارغة لنجا من هم أحسن منهم وأقيم ولنفعتهم قوتهم ومنعتهم حصونهم لكن

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾

هذا في الدنيا

أما في الأخرىٰ فالكل سيعلم وأولهم هؤلاء المغترون السطحيون

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾

أما معيار الخيرية الحقيقية هناك فليس بتلك المقاييس المظهرية والتقييمات السطحية

إنه معيار الهداية والباقيات الصالحات

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا﴾

وفزع القلب ورهبته حين يسمع ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ لا يلبث أن يهدئ من روعه بصيص أمل يتبدىٰ في الآية التي تليها ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾

الفرصة سانحة إذن والنجاة واردة وسبيلها معروض

سبيل التقوىٰ

أما الظالمون فيالمصيبتهم

مصيبة تتلخص في كلمة واحدة تسبق وصفهم

كلمة: نذَرُ

﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾

إنها لكلمة مفزعة حقًّا

حاسمة حازمة صارمة

قاطعة لأي أمل في الخروج كما قطعوا في الدنيا سبيل التقوىٰ علىٰ أنفسهم بل وصدوا الناس عنه بظلمهم

إنها كلمة محزنة تقذف بظلال سوداء قاتمة علىٰ أعين الظالمين التي طالما برقت ببريق التشفي في الضعفاء والمساكين الذين ظلموهم وتركوهم مقطعة بهم الأسباب في الدنيا

ها هم يتركوا اليوم كما تركوهم

ها هم يعاملوا معاملة المنسيين كما عاملوا المظلومين

ها هم يذرهم الملك في قعر جهنم علىٰ هيئة ذليلة كما أذلوا المظلومين واستضعفوهم وذلك بعد أن انتزعهم من شيعهم ومواليهم فقد كانوا أشدهم علىٰ الرحمن عتيًّا

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾

فترك بترك

وجثو بجثو وذل بذل والجزاء من جنس العمل

❁ ❁ ❁

ومن نعيم أهل الجنة عدم سماع اللغو

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾

واللغو هو الكلام الذي لا طائل من ورائه وقيل هو الباطل من الكلام

إنه لا يسمعون فيه إلا طيب القول والسلام

يُفهم من ذلك إذا أن سماع اللغو والكذب والإثم يعد من منغصات الدنيا وضيق عيشها والتي يعفىٰ منها أهل الجنة جعلنا الله منهم

ولكم أعجب ممن بإمكانه أن يتذوق بعض ذلك النعيم في الدنيا

بالإعراض عن سماع اللغو كما أمره الله ومع ذلك يدمن تنغيص حياته ويزكم أنفه برائحة اللغو والكذب الخانقة

﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ وهذا توجيه قرآني جليل يتذوق من استجاب له بعضا من نعيم: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾

فقط عليه أن يكون من عباد الرحمن الذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروًا كرامًا

إنهم أهل الفردوس المؤمنون الذين من أهم خصائصهم التي ذكرت في سورتهم ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾

وتلك والله نعمة وفضل لا يشعر به إلا من تمكن من الاستعلاء علىٰ آثام الدنيا ولغوها وكذبها والتفت إلىٰ ما ينفعه وحرص عليه

أما من أدمنوا مجالس اللغو وتحروا فاحش القول وساقط الكلام فما أبعدهم عن تلك اللذة وما أشد حرمانهم من هذه النعمة التي هُدي إليها أهل الجنة في الدنيا والآخرة

سورة طه

والخطاب الفرعوني المتجبر له خصائص ومحاور يظهر جزء مهم منها في كلام فرعون في سورة طه

﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾

هذا الخطاب الفرعوني يمثل أربعة محاور مفصلية تتجلىٰ من خلالها نفسية الطغاة في كل زمان ومكان

١- السلطان علىٰ الفكرة.

٢- التخوين والمؤامرة.

٣- القمع والبطش.

٤- ترسيخ ثقافة الخوف وصناعة العبرة.

٥- لقد كان انزعاج فرعون في البداية بسبب التفلت من سلطانه علىٰ الأفكار وسيطرته المحكمة علىٰ إيمان شعبه وليس فقط طبيعة هذا الإيمان وفحوىٰ تلك الفكرة.

ليست المشكلة فقط في نوعية الإيمان وتفاصيله

المهم أن يكون إيمانًا تحت السيطرة

إيمانًا مدجنًا منزوع الإرادة

إيمانًا بالأوامر وعقيدة بلا عقيدة

إيمانًا رسميًّا وحصريًّا

قبل أن آذن لكم!!

القضية هنا في الإذن والتصريح

في التحرر من سلطاني والخروج عن طوعي واستقلالية الاختيار بمنأىٰ عني

إذًا فهي المؤامرة

أيها الخونة المتآمرون

إنه كبيركم إذًا

وما موهبتكم وصنعتكم السحرية إلا جزءًا من تلك المؤامرة الكونية علىٰ دولتنا البهية

تناسىٰ الطاغية في لحظات أنه هو من أتىٰ بهم من أنحاء القطر الواسع وجمعهم بجنده واختارهم علىٰ عينه

تناسىٰ فجأة طبيعة الأشياء وضعف وسائل خصمه المادية بالمقارنة بآلته الحربية وقدرته المادية وحضارته القوية

فقط تجلت دعاية المؤامرة السوداء لتبرر ما سيحدث للخونة المتآمرين الذين كانت جريمتهم السجود وخطيئتهم ترك الاستئذان قبل الإيمان

ونسيانهم الحصول علىٰ تصريح بالاعتقاد مختوم بالختم الفرعوني

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾

إنه القمع إذن

سبيل الضعيف وإن لبس لأمته ووسيلة العاجز وإن ادعىٰ قوته وتمثل قدرته

السيف في مواجهة الفكرة والبطش في مقابلة العقيدة والعذاب لوأد الإيمان الذي لم يستأذن فيه الطاغي

ولكن لماذا؟!

هل هو الانتقام وحسب؟!

أم هو إسكات الصوت وكبح جماح الإرادة وقتل التحرر الإيماني من عبادة الطواغيت الذي مثله السحرة؟!

ربما كل ذلك وغيره

لكن المهم الآن هو:

صناعة العبرة وترسيخ الخوف

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾

لا بد أن يعلموا

ولا بد أن يعلم الجميع

لا بد أن يبقىٰ العبيد عبيدًا

وليكن هذا العلم عبر جسور الأشلاء الممزقة

وليسقىٰ لمتعلمي العبيد مع عصير الدماء المسكوبة والأوصال المتطايرة

ثم ليكن الصلب علىٰ تلك الجذوع السامقة

فالمسألة ليست فقط في العقوبة

ولكنه النموذج الذي لا بد أن يظهر للجميع

وليظل الإيمان المطلوب كما هو

إيمان رسمي حصري بالإذن

إيمان بلا إرادة وعقيدة بلا حرية وأناس علىٰ دين ملوكهم

لكن كل ذلك يطيش بثبات أهل الإيمان

الإيمان الحقيقي

الإيمان بلا إذن والعقيدة الحرة التي لا يؤثر عليها مخلوق

فلا ضير إنا إلىٰ ربنا لمنقلبون

وإنما تقضىٰ هذه الحياة الدنيا

والله خير وأبقىٰ

❁ ❁ ❁

كان الأمر الأول لموسىٰ من ربه بعد أن عرفه بنفسه وأعلمه بأنه الإله الواحد الذي لا معبود بحق إلا أمر بالعبادة

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾

فاعبدني . .

تلك هي الثمرة المبدئية للمعرفة والتكليف الأول بعد التوحيد والعلم بالله

﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾

عبادة وصلاة وذكر يربي بهم المصلح ابتداءً كما قيل لنبينا ﷺ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

وذلك بعد قوله تعالىٰ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾

جهز نفسك يا حامل الرسالة يا من عرفت ربك

جهز نفسك بالعبادة والذكر

بالتبتل والتهجد

بالانكسار في محراب العبودية

فإن فعلت فهيا إلىٰ الثمرة الأخرىٰ لاعتقادك وعلمك بالله وعبادتك إياه

هيَّا إلىٰ التكليف التالي مباشرة بل يكاد يكون التكليف الموازي المرافق لعبادتك ومعرفتك

هيَّا اذهب وتحرك

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾

اذهب واصدع بكلمة الحق

اذهب وقلها في وجه الطاغية

اذهب وأعلنها وادع لها بقول لين لعله يتذكر أو يخشىٰ

﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ كما ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾

قم واصدع فإن اعتقادك ومعرفتك بربك وسبيلك ليست بسبيل هروب ولا بسبيل خوف وذلة

قم فإنها سبيل عزة وقيام وعمل

وما بين ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ يصح سيرك في دربك وتثمر معرفتك بربك

❁ ❁ ❁

الشقاء . .

عافانا الله منه

إنه لفظ ومعنىٰ تكرر أكثر من مرة في سورة «طه»

أين يكون؟ ومتىٰ ينتفي؟

من بداية السورة نجد هذا المعنىٰ مطلًا علينا

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾

ثم يتكرر مرة أخرىٰ في قوله تعالىٰ

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾

ومرة ثالثة في قوله تعالىٰ عن الشيطان: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾

والملاحظ هنا أن الشقاء نُفي في موضعين وأثبت في موضع

نُفي مرة حال ملازمة القرآن وأخرىٰ عند اتباع منهج الله وهداه وتلك جنة الدنيا المؤدية لجنة الآخرة التي ينتفي فيها الشقاء تمامًا

وأثبت مرتبطًا بالخروج من الجنة حال الاستجابة لنزغات الشيطان ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾

والمعنىٰ الذي يتجلىٰ بجمع الآيات أن الشقاء إنما يكون خارج الجنة

والنعيم يكون فقط داخلها في الدنيا قبل الآخرة

فلا شقاء حال المكث في جنة الدنيا التي حدثنا عنها العباد والصالحون وكرروا ذكرها

ويظن البعض أن الدنيا ليس فيها إلا المشقة والتعب والحزن والألم

والحقيقة أن هذا غير صحيح بإطلاق

في الدنيا يمكنك أن تتذوق شيئًا من نعيم الجنة

بل يمكنك إدراك ما هو أعلىٰ بأن تحول حياتك إلىٰ جنة

أن تنعم وأنت بين ظهراني الحياة الأولىٰ بشيء من لذات الأخرىٰ

وهذا النعيم قد أدركه البعض ووصفوه

فمن جنة بن عباس رضىٰ الله عنهما الذي وجد من لذة العبادة ما جعله يقول عن أهل جنة الآخرة أنهم لويجدون مثل ما يجد فما أطيب عيشهم

إلىٰ جنة بن تيمية التي أخبر أن محلها في صدره إن سجن فسجنه خلوة في تلك الجنة وإن قتل فقتله شهادة تنقله منها إلىٰ جنة الآخرة وإن نفىٰ فنفيه سياحة وتأمل في أرض الله تدفع القلب دفعًا إلىٰ ذكره ليجوب وارف ظلال جنة الدنيا

أو جنة الحسن البصرىٰ الذي أخبر أنه ومن كانوا مثله يجدون فيها من النعيم واللذة ما لوعلمه أبناء الملوك والسلاطين لجالدوهم عليها بالسيوف

إذن فالدنيا ليست دوما شقاءً خالصًا خصوصًا للمؤمنين

الأمر ممكن والبعض بالفعل أدركه وعاينه وتقلب في حدائق بهجته وبساتين لذته

جنة الدنيا موجودة إذن

جنة معرفة الله والأنس به وذكره ومناجاته وتلاوة كلامه واتباع هداه التي هي طريق لجنة الآخرة حيث لا شقاء ولا نصب ولا وصب ولا جوع ولا ظمأ

من ذاق الأولىٰ تقلب بإذن الله في الأخرىٰ

أسأل الله أن يمتعنا بجنة الدنيا ولا يحرمنا جنة الآخرة

❁ ❁ ❁

وحين عرف السحرة مولاهم الحق تكشفت لهم القيمة الحقيقية للأشياء وبدت لهم المعايير الصحيحة ما ترددوا في الاختيار بين الدنيا وما عند الله وقالوا لمن هددهم ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾

وهذه من أزكىٰ ثمار المعرفة وأشهىٰ قطوف العلم بالله

أن يستقيم الميزان وتبدو الدنيا بزينتها رخيصة إن وضعت في مواجهة مع إرضاء الله وما عنده

هنا يبدو القرار واضحًا وترجح كفة الآخرة حين تعلم قيمة الدنيا فيكون القرار

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾

افعل ما بدا لك

تخير أعلىٰ ما خيلك واركبه

اقض بقضائك واتخذ قرارك فلربما تستطيعه في تلك العاجلة الحقيرة التي تضاءلت في نظرهم وحقروها فهان عليهم ذهابها ولم يحزنوا علىٰ فواتها

وحينئذ يرتفع الشعار عاليًا خفاقًا نقيًّا رقراقًا يردده العارفون: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾

فقط العارفون

❁ ❁ ❁

ومهما كانت درجة الباطل التي عليها الإنسان

ومهما تردىٰ في هاوية الإجرام وتقلب في دركات الآثام فلا تفقد الأمل في هدايته

لا تقطع الأمل في إصلاحه

ليس لك من الأمر شيء

إن قومًا جمعوا كيدهم وأتوا صفًا واستعلوا وسحروا وكل ذلك في مواجهة من؟!

نبي مكلم ورسول من أولي العزم

تخيل المشهد . . .

قوم يضادون نبيًّا ويتحدون رسولًا ليكذبوا دعوته ويستعينوا بسحر أسود حالك يبغون دحره

ثم سجدوا . . .

بل ألقوا سجدًا

﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾

سجدوا لله وقد كانوا مذ لحظات يحاربون نبيه ويكذبون بدينه

سجدوا في الساحة نفسها التي كانوا يصدون فيها عن سبيله ويسترهبون الناس ليردوهم عن ملته

ثم اهتدوا

لم تصدهم آثام ولم تمنعهم تعاويذ ولم تعطلهم دركات طالما تقلبوا فيها ولم يغرهم منصب موعود ولا ثراء منشود

وسجدوا رغم كل شيء

فمن يجرؤ بعد ذلك النموذج علىٰ قطع الطمع في عودة إنسان لن يغرغر بعد؟!

❁ ❁ ❁

وتدبر بناء الفعل ﴿أُلْقِيَ﴾ للمجهول في قوله تعالىٰ: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾،

ويكأن قوة ما قد دفعت السحرة للسجود مضطرين ..!

قوةٌ تسرَّبت بشاشتها إلىٰ قلوبهم ثم لم تلبث إلا ونضحت علىٰ جوارحهم فلم يتمالكوا أنفسهم ولم تحتملهم أقدامهم فخرُّوا للأذقان سجدًا خاشعين ..!

تلك القوة التي اضطرت جوارحهم للسجود هي النابعة عن رؤيتهم آية معجزة من آيات الله جل وعلا حين تحوَّلت عروق الخشب في عصا موسىٰ إلىٰ عروق تنبض في جسد ثعبان مبين يلقف حبالهم وعصيهم ..

لم يتمالكوا حينئذٍ أنفسهم وأُلقوا سجَّدا بينما يرىٰ الواحد مِنَّا مثل تلك الآيات يوميًا، وربما لا يكون رد فعله قريبًا أو مشابهًا لرد فعل السحرة ولو

حتىٰ بسجود القلب مُسبِّحًا ومُعظِّمًا هذا الخالق الذي أبدع ذلك الذي يعاينه . .

يُعاين مثل ذلك في نطفة تتحوَّل إلىٰ مخلوق يسمع ويُبصِر ويملأ الدنيا صخبًا، ويراه أيضًا في تحوّل حبة في ظلمات الأرض إلىٰ نبتة مُخضَّرة يأكل منها الناس والأنعام . . . وغير ذلك من آيات الخلق وبديع التصوير الذي لا يقل عن آية العصا . .

ولولا إلف العادة ونقصان التأمُّل والتدبر في خلق الله؛ لَمَا وسع الناظر إلىٰ تلك الآيات الكونية إلا ما وسع السحرة فيُلقىٰ ساجدًا ومُسبِّحًا ومُعظِّمًا إلهًا أحسن كل شيءٍ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . .

❁ ❁ ❁

ومعرفة الله جل وعلا لها وسائل وسبل من خلالها يستطيع المرء أن يتعرف بها علىٰ مولاه وسيده ومليكه

وذلك من خلال ثلاثة سبل رئيسية:

١- أن يعرفك هو بنفسه من خلال وحيه أو آياته المقروءة.

٢- من خلال آياته المرئية.

٣- من خلال معاملته.

وتلك السبل والوسائل لا تخلو منها سورة طه

ففي السورة يعرفك الله بنفسه من خلال وحيه المنزل وآياته المقروءة التي فيها ذكر لأسمائه وصفاته ونعمه وآلائه

والسورة تحتشد بذلك النوع من أولها إلىٰ منتهاها

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾

وتختم تلك المجموعة من الآيات بتوحيده والإشارة إلىٰ مجمل أسمائه الحسنىٰ

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾

وفي السورة نجد أولىٰ كلمات الله لكليمه موسىٰ تعريف بربوبيته وقدوسيته

﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾

ثم تلاها تعريف بألوهيته واستحقاقه للعبادة وحده ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾

﴿أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا * وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ﴾

ويعرفك بقوته وجبروته من خلال مشاهد يوم القيامة المهولة في تلك السورة

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾

وثانيًا: يعرفك بنفسه من خلال آياته المرئية المبهرة

فتحول عصا موسىٰ واليد البيضاء من غير سوء تلك آيات مرئية معجزة

ومثله ما أجاب به موسىٰ حينما سأله فرعون عن ربه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾

فأجابه:

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾

إنه يلفت نظره لآيات مرئية غيبها إلف العادة لكنها لم تزل آثار تدل علىٰ خالقها

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ لما رأوا تحول العصا إلىٰ ثعبان

فما الفارق بين هذا التحول والتحول من نطفة إلىٰ إنسان؟!

إنه إلف العادة الذي يغفل المرء تدبر تلك الآيات المرئية التي من خلالها عرف موسىٰ سائله بربه

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾

وثالثًا: تجد في السورة تعريفًا بالله من خلال معاملته

وتحديدًا تلك المعاملة الخاصة التي يستطيع كل إنسان أن يتدبر فيها حاله

ولفهم هذا النوع من التعريف أضرب مثالًا

كلنا يعلم أن والدته تحبه

فكيف عرفنا ذلك؟!

هل قرأنا ذلك في كتاب أو سمعناه في موعظة أو أخبرنا به أحد أم أننا لمسناه من خلال حنانها وأفعالها

من خلال المعاملة

لا شك أنها الثانية

ولله تعالىٰ المثل الأعلىٰ

إن التعرف علىٰ الله من خلال المعاملة مشهود في سورة طه ومتكرر ويظهر في استحضار تلك المنن والفيوضات التي امتن الله بها علىٰ موسىٰ وآله

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾

إنه التذكير برحلة حياة اشتملت من صنوف المعاملة علىٰ ما هو كفيل بإذابة القلب شوقًا ومحبة لله المنان

ومن خلال تلك السبل الثلاثة يتعرف المرء علىٰ ربه ويزداد به علما ويتذوق الحياة في تلك الجنة الدنيوية التي أشرت إليها آنفًا

ومن ذاق عرف

ومن عرف اغترف

❀ ❀ ❀

وقد يعجب المرء حين يسمع ردود السحرة علىٰ تهديدات فرعون وحين يتأمل ذلك الانقلاب الجذري الذي طرأ عليهم بعد الإيمان وكيف أن عبارات من أروع ما قيل في الصدع والبيان عن الله والدار الآخرة قد خرجت من أفواههم التي كانت منذ فترة قصيرة تتمتم بتعاويذ السحار وطلاسم المشعوذين

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾

يالها من كلمات نورانية محكمة تضيء بالحكمة والفهم

كلمات لها ثمن باهظ ولقد دفعوا الثمن من دمائهم ليكللوا القول بالتضحية والبذل

كلمات لم يكن يتصور أحد أن تخرج منهم

لكنها خرجت

ولا عجب

فكذلك معرفة الله إذا استقرت في قلب عبد فإنها تهز -بل تزلزل- كل تصوراته الخاطئة ونظراته القاصرة فتسقط كافة أوثان النفس لتخر متهدمة علىٰ أنقاض سوء الظن والتعلق بالخلق

وكما رجف المنبر برسول الله ﷺ حينما تحدث عن الملك حتىٰ قالوا ليخرن به فإن قلب المؤمن وحياته وتصوراته ونظراته للأمور ترجف وتهتز وتنقلب رأسًا علىٰ عقب حين يعرف الله حق المعرفة فيرىٰ الأمور بقيمتها

الحقيقية ويزن الدنيا وما عليها بميزان المعرفة

معرفة الله

❁ ❁ ❁

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾

من القائلان؟!

من خافا؟

إنهما نبيان مكلمان أحدهما رسول من أولي العزم ومن أقوىٰ الخلق في الحق

نعم . . . لقد خاف موسىٰ وخاف هارون وخاف غيرهما من الصالحين لكن خوفهم لم يثنهم عن قولة حق وإقدام صدق

الخوف شعور إنساني منه ما هو جبلي فطري فليس كل خوف جبن وليس كل خائف خوار

فقط حين يكسر الخوف همتك ويخرس لسانك ويقمع صوتك يكون ذلك هو الجبن والخور

الخوف شعور معتبر خصوصًا ماكان منه جبليًّا لكنه إن عطل مروءة المرء وأكسبه جبن الضباع جنبًا إلىٰ جنب مع خستها ودناءة صنيعها لم يك معتبرًا ولا مقدرًا

لذلك ترىٰ النهي عن الخوف في أربعة مواضع من سورة طه

﴿قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ﴾

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾

﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾

ولما يعرف المرء ربه ويدرك عظمته وقوته وقدرته ويعامله فيدرك معيته

حينئذ يزول الخوف

ولو تدريجيًّا

❁ ❁ ❁

وقد يظن البعض أن ثمة تعارض بين الأمر بالقول اللين لفرعون أثناء دعوته والذي نصت عليه سورة طه

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾

وبين رد موسىٰ علىٰ فرعون في آية الإسراء

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ أي هالكًا يأخذك الله

ومثله الأمر بالإغلاظ علىٰ الكفار والمنافقين

والحقيقة أنه ليس هناك تعارض وذلك لفارق التوقيت والسياقات

إن سياق الآية الأولىٰ يشير إلىٰ بداية الدعوة

مفتتح تعريف فرعون بالله ودعوته ويناسب ذلك القول اللين المنتقاة ألفاظه إذ لا يعقل أبدًا أن يبدأ الإنسان دعوته بالإغلاظ علىٰ الناس

لا بد ابتداء من تعريفهم وبيان الحق لهم بلين ورغبة صادقة في الهداية

وهذا ما فعله موسىٰ فقال بدماثة ورفق: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾

لكن بعد الدعوة الدمثة والنصح الصادق المشفق اللين وإظهار الآيات والمعجزات ومقابلة ذلك كله بالجحود من فرعون والإيذاء والتوعد والوعيد كانت الأخرىٰ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾

فها هنا سياق متأخر بعد مراحل التكذيب الرهيب ومع اقتراب الإهلاك وعلم موسىٰ بذلك كان لا بد من إعلان وبيان للمصير الذي ينتظره

كان المقام قد تحول إلىٰ مقام مفاصلة وسياق تحدي لا يستعمل فيه اللين

ومثله سياق ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾

فها هنا سياق قتال ومجالدة لا يكون فيها إلا الإغلاظ ووضع النّدىٰ في موْضعِ السّيفِ بالعلىٰ مضرٌّ كوضْع السيفِ في موضع النّدىٰ.

فلا تعارض ولكن سياقات ومراحل والله أعلم

❁ ❁ ❁

﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾

السؤال واضح ومحكم ومختصر

لم يقل: ماذا تفعل بها يا موسىٰ؟

ولم يسأل عن استعمالاتها

فقط ما هي؟!

لكن إجابة موسىٰ كانت مختلفة

كان الممكن أن تنتهي عند جملة ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ وبذلك تكون إجابة تامة

لكنه اختار أن يزيد

وأن يفصل

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾

وكذلك حال المحبين

يهوون المناجاة ويرغبون في إطالة الحديث مع من يحبون

إنها المناجاة والاستزادة من الكلام معه

الكلام مع الله

❀ ❀ ❀

وبناء الباطل علىٰ شفا جرفٍ هار معرض للسقوط لدىٰ أول هزة

ولقد اهتز السحرة

آلاف السحرة (قيل أربعون ألف ساحر) منهم أمهر أبناء تلك المهنة في القطر كله وربما خارجه قد اهتزوا أمام رجل واحد

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾

قبل أن يروا ما عند موسىٰ

فقط سمعوا منه ورأوا آيات اليقين تبرق في ثنايا نبراته الصادقة قبل أن يروا آياته الإعجازية

مجرد أن تلقوا كلماته الحاسمة ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم

بِعَذَابٍۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾

مجرد أن لمسوا قوته في الحق وإصراره علىٰ ظهوره ارتبكوا

تنازعوا

والتنازع أول طريق الفشل

ولقد تصدعت أركان البنيان الهش وشارفت علىٰ السقوط واحتاجت إلىٰ أن يثبتوا بعضهم البعض أمام تلك القوة الكاسحة من رجل واحد

قوة الحق

❁ ❁ ❁

توبة وإيمان وعمل صالح وهداية

أركان قرآنية وشروط أربعة يرجو بها العبد مغفرة الله وترتبط بها المعاملة باسم الله الغفور والغفار

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾

المسألة إذا ليست مفتوحة وليس الأمر معلقًا بحبال الأماني القاصرة عن الفعل

بل هي أعمال قلوب وجوراح وسلوك طريق مستقيم يهتدي المرء به وإليه في الأولىٰ ليكون منتهاه جنة الأخرىٰ

❁ ❁ ❁

وطمأنة حامل الرسالة في مواجهة الطاغين تقوم علىٰ أساس المعرفة والمعية

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾

فمعرفة حامل الرسالة بأنه حين البلاغ يسمعه الله ويراه ويطلع علىٰ حاله ومكر الطغاة به تجلب الطمأنينة إلىٰ قلبه فمولاه يراقبه ويراقب خصومه وهو قادر علىٰ إنجائه إن شاء

وإدراكه معية الله لأوليائه ومولاته لهم تدفعه لتحصيل أسباب تلك المعية وهي متعددة متنوعة في كتاب الله منها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ وهو مع المؤمنين ومع الصابرين ومع المتقين كما في غير آية

فكيف يخاف؟!

❀ ❀ ❀

ومن قال أن في كل عجلة ندامة؟!

قد يكون ذلك في استعجال أمور الدنيا وكثير من شأنها

لكن هناك عجلة من نوع آخر

﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾

إنها العجلة إليه

المسارعة لإرضائه

المسابقة لنيل فضله

إنها فرع عن الشوق إليه ومحبته

فأنعم بها من عجلة وأكرم بصاحبها المشتاق

وصدق من قال: (التؤدة خير في كل شيء إلا في عمل الآخرة)

❁ ❁ ❁

وليداوم الإنسان علىٰ الطاعة ويباعد عن المعصية يحتاج إلىٰ أمرين رئيسين

الذكر

والعزم

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾

وكذلك جل المعاصي التي يقع فيها بنوه

سببها النسيان و -أو- قلة العزم والضعف

والنسيان هنا ليس نسيان الحكم أو الغفلة عن ورود النهي فالأصل أن ذلك معفي عنه

لكنه هاهنا نسيان المراقبة والغفلة عن الرقيب ويزول ذلك بالتذكرة الدائمة والحرص علىٰ ما يوقظ الضمير ويجدد الإحسان الذي هو معاملة الله كأن العبد يراه فإن لم يكن يراه بأن يتذكر أن الله هو من يراه

وأما عدم وجود العزم وضعف الإنسان عن القيام بالأمر والانتهاء عن النهي فمناطه علىٰ الإرادة وأصله معرفة العدو والتربص به كما يتربص بالعبد

ذلك أن الشيطان يسعىٰ دائمًا لإضعاف النفس إما بتخويفها أو بتزيين الشهوات لها فتنهار دفاعاتها أمام كيده وتستكين في حبائله فلا تستطيع القيام بالأمر

فإذا انتبه الإنسان لضرورة التذكرة المنافية للغفلة والنسيان وأهمية أخذ

الكتاب بقوة وعزم والإيواء إلىٰ ركن شديد والتقوي بالله صح سيره إلىٰ الله وثبت أمام دواعي المعصية ومن استعصم عصمه الله

سورة الأنبياء

ولعل من أكثر ما يلفت الانتباه في سورة الأنبياء ذلك المعنىٰ الذي تكرر في السورة مرارًا

معنىٰ التعبد والتقرب إلىٰ الله بالعمل الصالح

معنىٰ الصلاح الشخصي الذي ينصرف عن الاعتناء به وعن تقديره حق قدره كثير من المتصدرين للعمل العام

إن كلمة العبادة ومشتقاتها من أكثر الكلمات التي ذكرت في السورة

معنىٰ العبودية لله رب العالمين كان المعنىٰ الأكثر تكرارًا الذي ورد في السورة التي تتكلم عن خير من مشوا علىٰ الأرض وهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم حتىٰ سميت بوصفهم

ورغم أن ما قد يتبادر إلىٰ الأذهان حين الحديث عن الأنبياء واستحضار قصصهم معانىٰ التضحية والبذل لدين الله والبطولات الدعوية والإصلاحية والجهادية التي حفلت بها حيواتهم المباركة إلا أن الله اختار أن يتكلم في سورتهم عن معانىٰ عبوديتهم وصلاحهم بشكل أكثر تركيزا من الكلام عن معانىٰ الذل والإصلاح التي تكررت في سور أخرىٰ.

وكأنها إشارة لطيفة إلىٰ معنىٰ في غاية الأهمية يغفل عنه كثير من أرباب الهموم الجسيمة والمسئوليات العظيمة

معنىٰ أهمية العبادة وعظم شأنها في حياة العظماء والمغيرين.

ولو كان من أحد أولىٰ بأن يجد ما يشغله عنها أو يستبدله بها لكانوا هم فهم أكثر الناس شغلًا وهمًّا

لكنهم مع همومهم ومسؤولياتهم تجاه الأمم التي بعثوا إليها ورغم انشغالهم بجهادهم ودعوتهم إلا أن السورة العظيمة أظهرت بوضوح أنهم مع ذلك كانوا أعبد الخلق و أسرعهم إلىٰ الخيرات وأحرصهم علىٰ العمل الصالح .

فلنتأمل هذا المعنىٰ بينما نتلوا سورة الأنبياء متأملين تلك القيمة الجليلة

قيمة العبادة والصلاح جنبًا إلىٰ جنب مع الإصلاح لا يطغىٰ أيهما علىٰ الآخر ولا تشغلنا هموم أو مسئوليات مهما بلغت قيمتها وقدرها عن تلك القيمة مرددين آيات السورة الكريمة ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾

❀ ❀ ❀

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

إني كنت من الظالمين!!

ربنا ظلمنا أنفسنا

رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي

حين تخرج تلك الكلمات من بين شفتي أناس من أطهر وأفضل خلق الله

يونس وآدم وموسىٰ عليهم السلام

حين تخرج تلك الكلمات من فم نبي مكلم أو رسول ملهم فإن لها بلا شك طابعًا مختلفًا

بل هو طابع مذهل

إنها كلمات اخترقت حجب الظلمات المتراكبة لتفتح فيها طريقًا ينفذ منه نور النجاة وضياء التفريج مبددًا سواد الغم والهم وكاشفًا غيوم البلاء والكرب.

كلمات تلقاها خير البشر وسادات البرية وعملوا بها وصاحت بها قلوب صادقة عامرة بالرغبة والرهبة فتاب الله عليهم ووفرج وعفىٰ عنهم وفتح لهم

وكم كان الندم و الاعتراف بالذنب سبيلًا إلىٰ كشف البلاء وتفريج الكربات

وكم كان الاستكبار والإصرار والعناد والبغي حاجزًا عن الفرج حائلًا بين المرء وبين ما ينفعه ويصلح شأنه

اجعل هذه الكلمات في قاموس قلبك قبل لسانك وجنانك قبل أركانك وافترض ولو أحيانًا أنك أخطأت

أو حتىٰ ظلمت

لعلك حينئذ تنكسر لله وتصلح ما بينك وبينه فيستجب لك

ولعله يفتح لك ويفرج عنك وتنجو من الغم كما نجا صاحب العبارة الأولىٰ؛ يونس عليه السلام

﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

بين التماثيل العملاقة تقدم

ها هي تبدو مهيبة ونيران المشاعل تلقي بظلال متراقصة علىٰ طلائها اللامع قد علقت أمامها القرابين الغالية؛ من صنوف الطعام والشراب، وقد بدأت اللحوم في التعفن؛ من طول ما علقت من دون أن ينتفع بها مخلوق.

ألاَ تأكلون؛ صاح إبراهيم!

رددت جدران المعبد صدىٰ صيحته العالية،

إنه يسألكم فلم لا تردون؟

إنه يحاججكم فلم لا تدفعون؟

ما لَكُم لا تَنطِقون؟

لا مجيب ولا جواب إلا الصمت،

ولو كان للصمت لسان لصاح مجيبا:

لا فائدة يا إبراهيم،

لا فائدة ترجىٰ من تلك الأحجار المصمتة،

لا قيمة لتلك الآلهة المزعومة،

ولا عقول ولا حكمة لمن يظنون بها غير ذلك،

لم يتردد المقدام، ولم يتلكأ الخليل، الذي لم يعرف يومًا التراجع ولا التباطؤ ولا النكول،

لقد قال ووعد: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾

وسيوفي بوعده، ويبر قسمه، ولو كان الثمن . . حياته،

استل الخليل معوله،

وضرب،

بكل الغضب للحق، والغيرة التي تعتمل في نفسه . . ضرب،

بكل العزة والإباء الإيمانىٰ . . ضرب،

بكل البغض والاحتقار، لهذه الأحجار الفاتنة، ولهذا المنطق العليل . . ضرب.

لم تمر لحظات حتىٰ كانت الحجارة تتهاوىٰ عند قدميه الفتيتين،

لم تمر لحظات إلا وظهرت الحقيقة الجلية،

هؤلاء تراب،

لا يساوون شيئًا،

إنها ليست معركة متكافئة،

إن فأس الحق يطيح برءوس الطواغيت التي طالما سجدت لها جباه الأقوياء،

فلتهتز جدران معبد الكفر أمام ضربات العقيدة ومعاول الحق والتوحيد،

الآن صاروا جذاذًا وعادوا إلىٰ حقيقتهم،

هباءً منثورًا،

لقد ترك فقط كبيرهم

تركه وأهون عليه أن يلحقه برفاقه لكنها الحجة والبرهان،

هاهي أداة السحق لزملائك،

ادفع عن نفسك التهمة يا أبكم،

ادفع عن نفسك إن كنت تستطيع، ولن تستطيع، فما أنت إلا مثلهم

فقاعة لن تلبث إلا أن تنفجر

حين يقربها وهج الحق

❁ ❁ ❁

﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

صاح الحمقىٰ بعد عودتهم من حفلهم

صاح أصحاب العقول الخربة، وهم يرون كبير الأصنام سليمًا معافىٰ،

لم يدر بخلدهم أن الصنم الحجري الضخم هو من فعل هذا

لم يدر هذا بخلدهم ولو للحظة،

رغم أن التهمة ألصق به والفأس أداة التحطيم معلق علىٰ صدره المنحوت

لم يتبادر إلىٰ أذهانهم ولو لوهلة أنه قد يكون من حطم زملاءه ليتفرد بقرابينهم، رغم أنه المستفيد،

ولماذا؟

لأنهم يعرفون،

بل يستيقنون، لكنهم بما استيقنته أنفسهم يجحدون وعما يعلمونه متغافلون

فطرتهم تدرك أن هذا مجرد حجر، لا ينفع ولا يضر،

لكنه الكبر الذي يطمس البصيرة،

تسألون من فعل هذا بآلهتكم؟

وهل آلهتكم من الضعف بمكان لدرجة أن يفعل بها ولا تفعل؟

والله إنكم بهذا السؤال تحاجون أنفسكم

لو أنكم كنتم تعقلون

❁ ❁ ❁

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾

هكذا ردوا علىٰ إبراهيم حين قال أخبرهم أن من حطم آلهتهم هو كبير تلك الآلهة الصنم

نعم لقد علم،

فمتي تعلمون؟

أما تفكرون؟

ومتي لحالكم تتأملون؟

حق له الآن أن يطيح بمنطقكم المريض وحججكم العليلة،

فلينطلق الآن ليسمعك الحق الذي تأبون سماعه:

﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾،

﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾،

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾،

يا لقوتك وضعفهم،

يا لعزتك وهوانهم،

صدقت يا إبراهيم،

قلت ووفيت ونطقت فحججت،

لكن من يسمع ومن يعي؟

الآن بعد أن طاشت حججهم وضاع منطقهم؛ لم يعد متبقيًا أمام الطغاة إلا طريق واحد،

إنه طريق الضعفاء وإن تلبسوا بلأمة الأقوياء

أضعف حالات الطواغيت حين يضطرون إلىٰ ما سيفعله هؤلاء

سيحاولون جعله عبرة لمن يعتبر ويجترئ يوما علىٰ آلهتهم

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾

وكذلك الضعفاء من الظلمة والطغاة والمستبدين

حين لا يجدون أمامهم سبيلًا لإسكات صوت الحق الذي يؤرقهم إلا قمع حملة ذلك الحق ولا يملكون إلا عاجل إيذائهم وقتلهم أو عذابهم

فهل أسكتوا يوما صوت الحق بذلك أو طمسوا وجوده؟!

هيهات

بل زالوا جميعًا بقمعهم وبطشهم وحدهم وحديدهم

وبقي الحق الذي لا يزول

﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾

❁ ❁ ❁

وها هم قد نصبوا المنجنيق وأوقدوا النيران

وإنها ليست أي نيران

إنه جحيم يبني بنيانًا تتحاكىٰ عنه الأجيال

إنه لبنيان من اللهب ألسنته تتطاير حتىٰ تكاد تحرق ظهور الطير في كبد السماء، إذا ما مرت من فوق الجحيم،

﴿ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ . .

وها هو البطل يتقدم، رافعًا رأسه صابرًا محتسبًا، لم تحن رأسه أثقال القيود، ولا دفعات السفهاء،

وماذا يضيره إن مات فدىٰ ربه؛

إن قتل فداء للحق الذي يؤمن به؟

وهل ترهبه نيرانهم؟

وماذا عساها تكون في نيران الآخرة التي تنتظرهم؟

تقدم الفتىٰ العزيز إلىٰ المنجنيق، وليس علىٰ لسانه إلا كلمة واحدة،

حسبىٰ الله ونعم الوكيل،

يكفيه الله لا يريد سواه،

ترىٰ كيف كانت مشاعره وهو يقترب من النيران؟!

كيف كان إحساسه، وألسنة اللهب تبدو من بعيد، وهو يقترب منها بسرعة رهيبة؟!

حسبي الله ونعم الوكيل،

لا غير، ولا ضير،

لكن . . . ما هذا؟!

ما ذلك البرد؟!

ما أجمل هذا السلام الذي يشعر به!

سلام يشبه الذي يحويه قلبه العامر باليقين،

لقد تبدلت النواميس الكونية كرامة لك أيها المقدام،

لقد صار الجحيم بردًا وسلامًا لك أيها الخليل،

فلتذب النار القيود، وليخرج الخليل، وليمش بين الناس لم يصبه مس من لهيب!

نعم الرب ربك يا إبراهيم ونعم الدين دينك أيها الأواه المنيب

❁ ❁ ❁

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

مسَّني الضر!!

أكل ما مر بك تسميه مسًّا

ضياع مالك

زوال جاهك

اعتلال بدنك

وفقد عيالك، وهوانك علىٰ الناس

كل ذلك مجرد . . . مس؟!!

أي مقام هذا؟!

أهو مقام أدبني ربي، أم هو جميل الصبر، أم لعلها بشاشة الرضا؟

أو هو شهود القلب لأنعم الرب، التي تتضاءل إلىٰ جوارها البلايا،

وتتصاغرإلي جنبها النقم والرزايا!

﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

حتىٰ في ذلك الموطن العصيب وقد قررت أخيرًا أن تضرع إلىٰ سيدك، وترفع إلىٰ مولاك شكايتك

لم تنس الثناء

لم تنسك شكايتك حق ربك من شهود مقام الامتنان بعطاء الربوبية وسابغ النعماء،

ألا فليصدع ثناؤك في أرجاء الدنيا، لعله يبلغ من أساءوا بربهم ظنًّا

ها هو صاحب البلايا والأسقام والرزايا المريض المسكين، ينادىٰ أرحم الراحمين،

يقر له بالرحمة

بل تمام وكمال الرحمة،

الرحمة التي شكك بها البعض، وكادوا أن ينفوها، رغم أنهم لم يذوقوا معشار ما ذاق أيوب

❁ ❁ ❁

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

لكن مهلًا

هذا ليس دعاء

أو علىٰ الأقل ليست هي الصيغة الطلبية التي نعهدها في دعاء المسألة؟!

همسة مناجاة هي،

شكوىٰ حبيب لحبيبه،

أو هي نفثة مصدور، يكللها أدب، ويتوجها ثناء

بهذا اكتفي أيوب ﵇

لم يزد كلمة في تلك الشكاية المختصرة،

رفع حاجته، وأثنىٰ علىٰ ربه

وانتهىٰ الأمر

انتهت المعاناة الرهيبة التي تقلب فيها ما يقارب العشرين عامًا،

بهذه البساطة؟

نعم، وماذا يمنع،

ولم لا؟!

لقد سمعه القادر المقتدر، الذي إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون،

ولقد أبصر حاله من قبل، فوجده علىٰ حال يحبه ويرضاه، فشهد له الحق وقال:

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾،

فلم إذا لا يغير نواميس الكون له؟!

وما أسرع الجواب!

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾،

صدر الأمر، وأعلنت الاستجابة،

استجابة لماذا؟

وهل طلب؟ وهل سأل؟

المهم أنه تكلم وناجىٰ واشتكىٰ،

فاستجاب المولىٰ الجليل

لقد شفي أيوب،

وليس هذا فحسب،

إن الاستجابة كاملة، والضر لا بد له أن يزال كله، لن يبقىٰ منه أثر مسَّة،

ومن الضر فقد الولد،

وفقد المال،

ألا فلتصلح الزوج أيضًا، وليعد المال، ولتتم النعمة، وليرزق الصابر، بضِعف ما كان لديه من الولد،

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾،

يا له من كرم، كرم الحنان المنان

بل ياله من أمل، يلقىٰ في روع المبتلين!

لكأن سيرة أيوب لمن يتدبرها كواحة أمل ويقين، وارفة الظلال، مزهرة الأغصان، تنبت في قلوب رمىٰ الشيطان فيها بذور اليأس التي لا تنبت إلا في تربة السخط وسوء الظنون،

ومن ذا يسخط، بعدما رأىٰ ما حل بأيوب،

من يمكن أن يقنط، وهو يشهد بعين قلبه ما آل إليه الحال من حسن المآل؟!

فقط عليه أن يحقق الشرط، وأن يعي الدرس

يعىٰ أن كل ما فات، وكل ما هو آت من تقدير المضرات والبلاءات، إنما هو رحمة، وحكمة، وذكري،

رحمة من الرحمن الرحيم،

وحكمة من لدن الملك العليم الحكيم،

وذكرىٰ للعابدين

للشاكرين في السراء، والصابرين في الضراء، والعابدين الثابتين في كل الأحوال لرب الأرض والسماء،

أولئك يستحقون تلك الرحمات ويتقلبون هنالك في تلك الواحات

واحات الأمل وحسن الظن والعمل

* * *

ومآل الباطل إلىٰ زهوق ومصيره إلىٰ جفاء تلك سُنة ماضية لله في خلقه

لكن الباطل لا يزهق وحده بل لا بد من قذائف حق تدمغه

﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾

هو زاهق في النهاية تلك عقيدة متجذرة في قلب المؤمن

لكن السؤال هو أين نحن من قذائف الحق التي يزهق بها الباطل؟

وإن من الناس من هم قذائف حق وعدل وصدق يرمىٰ بها جدار الباطل

ولا يزال أهل الحق يصدعون به يقذفونه علىٰ جدر الزيف والبطلان حتىٰ

تتشقق تلك الجدر وتتصدع رويدًا رويدًا إلىٰ أن تنهار وتزهق بإذن الله

❁ ❁ ❁

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾

إنه المنهج القرآني المحكم الذي يقتضي الإتيان بالبرهان والبينة قبل المطالبة بالاتباع والتصديق

﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾

هذا برهاني وتلك بينتي

ذكر منزل ومصدق لما أنزل من ذكر قبلي

وهذا سبيل الضبط الذي لا يميل ولا يحيد عند من فضلهم الله بالعقل وشرفهم بالعلم والفهم

لا اتباع إلا ببينة ولا قبول إلا ببرهان

فما بال أقوام يطلبون اليوم اتباعا أعمىٰ وأتباعًا مغيبين لا يسألونهم عن دليل ولا يناقشونهم في حجة ولا يطلبون برهانًا

فقط عليهم أن يسمعوا ويطيعوا بصكوك ثقة مطلقة لا تستلزم بينة أو إقناع ولا تعنىٰ بحجة وبرهان

أين هؤلاء من المنهج القويم والسبيل المستقيم

منهج ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

❁ ❁ ❁

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾

إنها محكمة عظيمة من محكمات القرآن

محكمة تذيب تلك الحدود المفتعلة وتمحو من الفكر تلك الخطوط الوهمية المرسومة علىٰ خرائط قسمها الاستعمار ورسخها أذنابه حتىٰ انتقلت من تلك الخرائط إلىٰ عقول وقلوب المسلمين

إنها آية تنقض القوميات وتدحض العصبيات وتصحح تلك المفاهيم المغلوطة التي حرص أهل الحمية والشعوبية علىٰ غرسها

﴿هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾

والإشارة هاهنا تعود علىٰ ما سبق من ذكر للأنبياء والمرسلين

منهم العربي والأعجمي ومنهم المبتعث إلىٰ أجدادنا ومنهم المبتعث إلىٰ أجداد غيرنا

منهم من علمنا ومنهم لم يقص خبرهم علينا

لكنهم أمتنا

كلهم أمتنا

وأسلافنا

وقدواتنا

وأئمتنا

وقادة قافلة الإيمان التي نحاول اقتفاء أثرها

قافلة حوت إبراهيم العراقي وموسىٰ وعيسىٰ الفلسطينين ويونس النينوي ومحمد العربي

وتلك الألقاب لم تكن لتعرف بينهم

فكلهم عابدون

وكلهم موحدون

وكلهم أمتنا

ورغم اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأعراقهم هم أولياؤنا ومن تبعهم إلىٰ يوم الدين

﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾

أمة واحدة حدودها أحكام الله وانتمائها التوحيد والإسلام لله وتفاضل أهلها وموالاتهم علىٰ أساس الإيمان والتقوىٰ والعمل الصالح وليس الجنس واللون واللغة

أمة واحدة تتكافأ دماؤهم ويسعىٰ بذمتهم أدناهم ويجير عليهم أقصاهم وهم يد علىٰ من سواهم

أمة واحدة وجسد واحد وعقيدة واحدة

ورب واحد

فاعبدوه

سورة الحج

والناس مختلفون وفي طبائعهم متفاوتون

ولكل طبيعة مختلفة أسلوب يناسبها

ولقد راعىٰ القرآن ذلك التباين والتفاوت في خطابه بشكل ملحوظ

تأمل ذلك الفارق بين الخطاب القرآني في حال المتبوع المستكبر وفي حال التابع المقلد

تجد ذلك التابع المقلد الذي يسير خلف كل شيطان مضل قد تم ترهيبه من ذلك الاتباع وتحذيره من مشاركته مصير متبوعه في نهاية الأمر ثم تلىٰ ذلك حديث منطقي بديع لدحض شبهات البعث والنشور والاستدلال بخلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم من علقة وأيضًا ضرب المثال بالأرض الهامدة التي تهتز وتنبت من كل زوج بهيج حين يصيبها الماء

حديث مقنع يخاطب العقول والقلوب ويوقظ الأفهام مع المشاعر مثبتا حقيقة أن: ﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ .. ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾

بينما في حال المتبوع المستكبر الذي يضل الناس عن سبيل الله بغير علم ولا هدىٰ فيقتدون بضلالته ويتبعون باطله تجد الحديث مختلفًا

تجد مع ذلك الصنف ترهيبًا خالصًا وتخويفًا مزلزلًا من ذلك المصير

المرعب الذي ينتظره في الدنيا والآخرة

﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ .. ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾

هذا الفارق الواضح في الخطاب القرآني للمتبوع والتابع يبين مسألة مهمة وهي أن فكرة النموذج الخطابي الثابت للجميع هي فكرة غير صحيحة ولا يُتوقع أن تؤتي نفس الثمرة مع الجميع

لا بد من تفريق بين أحوال الناس والتنويع بين لغة الخطاب بما يناسب طبيعتهم

إن ما يناسب المتبوع المجرم الثاني عطفه متعاليًا ويلوي عنقه مستكبرًا ورافضًا لمجرد النقاش والدعوة والذي هو رأس داعي لضلاله وقائد موجه في باطله ليس أبدًا كالذي يناسب التابع المقلد الذي قد لا يعي تفاصيل الأمور وربما هو أحوج ما يكون لبيان ومنطق يأخذ بيده إلىٰ الحق الذي قد حجبه عنه متبوعه

قد يشتركان في المصير الأخروي إن أصرا علىٰ ما هم فيه لكن ذلك شيء لا يعلم مآله إلا الله الذي هو وحده يعلم غيب مصير العباد ومآل كسبهم ومن منهم سيؤوب ويتوب من سيصر فيموت علىٰ ذلك

لذا وجب علىٰ المصلحين المتدبرين في كتاب الله أن يحاولوا قدر وسعهم التفريق في خطابهم بين صنوف الناس ومخاطبة الناس بما يناسبهم وبما يعقلونه ذلك إن كانوا فعلًا حريصين علىٰ تغييرهم للأفضل والإصلاح ما استطاعوا وما توفيقهم إلا بالله

❁ ❁ ❁

ومع عقوبة المتبوع المضل المستكبر الذي يبذل وسعه لإضلال الخلق وصدهم عن سبيل الحق جاء نفي المبالغة في الظلم وليس نفي مطلق الظلم

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ﴾

كلمة ﴿ظَلَّامٍ﴾ صيغة مبالغة لفعل الظلم واسم الفاعل ظالم

والأصل أن أدنىٰ الظلم ولو كان مثقال ذرة منفي عن الله الحكم العدل

فلماذا هنا تنفىٰ المبالغة في الظلم وليس أدناه

تعرف الجواب حينما تتبع مواضع نفي المبالغة في الظلم في القرآن فتفاجأ أن جلها جاء مع جرائم عظيمة في حق الله وأوليائه ومع أكابر مجرمين فورد نفي المبالغة في الظلم مع من قالوا إن الله فقير وهم أغنياء وورد مع من قاتلوا المسلمين من أكابر وصناديد المشركين وورد مع الطغاة المعاندين مناعي الخير المعتدين الآثمين ومع ذلك المتبوع المجادل في الله بغير علم ليضل عن سبيله

ولأنها جرائم ضخمة واجتراء عظيم وتعد بشع علىٰ مقام الله وظلم لأوليائه كانت العقوبة في النار شديدة للغاية وكان عذاب الحريق الذي يلاقونه ضخمًا لدرجة قد تدهش من يعلمه ويظنها مبالغة في العذاب وليس فقط عذابًا

وهنا يسترجع بشاعة جرائمهم واستحقاقهم لما يمسهم من عذاب الله ويتذكر ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

❀ ❀ ❀

وفي سجدة من أطول وأعم سجدات القرآن بين الله جل وعلا شمولية

سجود المخلوقات من شمس وقمر ونجوم وجبال وشجر ودواب

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾

لكنه عند ذكر الساجدين من بني الإنسان لم يطلق فعل السجود علىٰ جنس البشر فللأسف هم ليسوا جميعًا من الساجدين

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾

ولاحظ أيضًا الآية بتلك القاعدة القرآنية المحكمة التي تقضي بأن من يُهن الله فما له من مكرم وذلك في ارتباط واضح وتلازم ظاهر بين ترك السجود وبين المهانة

ورغم أن العادة جرت بين الخلائق بأن من المهانة أن يحني الإنسان رأسه ليلامس بها الأرض إلا أن العكس هو الصحيح إن كان ذلك في حق الله جل في علاه

فالمكرم هو من سجد والمُهان هو من أبىٰ.

وكلما تذلل المرء له عزَّ وكلما انكسر له جُبر وكلما ناجاه اقترب وكلما عظمه اجتباه وفضله

لا تحرم نفسك من شرف المشاركة في تلك السجدة الكونية الشاملة وتلك الكرامة السرمدية الهائلة

ولا تكن من المهانين

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾

❀ ❀ ❀

وهناك من يهوىٰ الحياة علىٰ حرف..

يعبد الله علىٰ حرف

ويعيش علىٰ حرفٍ

ويكتب علىٰ حرفٍ

ويبني مواقفه ومبادئه وأحكامه علىٰ هذا الحرف الكائن علىٰ شفا جُرفٍ هارٍ يُوشك أن يخرّ به ويهوي إلىٰ أعماقٍ سحيقة ..!

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾

هذه النوعية من البشر تدمن الحياة علىٰ الحافة فلا يستطيعون الابتعاد عن حرف الهاوية الذي أَلِفوا التأرجح عليه وصارت أنفسهم تأنف المكث علىٰ الأرض الصلبة البعيدة عن ذاك الحرف!

إنه نمط تذهب به كلمةً وتأتي به أخرىٰ!

إنه نمط من الناس تذهب بهم كلمة وتأتىٰ بهم أخرىٰ وترتفع بهم الأهواء ثم تخفضهم الفتن والبلاءات وما إن يُصدموا في أنفسهم أو في غيرهم حتىٰ تبدأ (الولولة) والتباكي علىٰ الصدمة التي تلقوها وكيف أنها أثرت في أنفسهم المرفهة الهشة القابلة للكسر

أصحاب منطق معيب ونفسية متأرجحة لا تستقر علىٰ مبدأ ولا تبقىٰ علىٰ رأي!

ما أسرع أن تُكَوِّن هذه الطائفة حُكمًا وما أعجل أن تنقضه وما أسهل أن تتبنىٰ مُعتقدًا وما أهون أن تتركه فتظل هكذا متقلِّبة متأرجحُة بين المبادئ والقيم والأهواء والظنون!

إنها نفسيات (متلصمة) أقل فتنة تكسرها وأهون ابتلاء يزلزل أركانها وأي معصية أو غلطة تدمرها ويكأنها تتأرجح علىٰ حافة السقوط تنتظر دفعة يسيرة لتقع بعدها وتتهشم ثم تتردىٰ مهزومة أمام تلك المؤثرات بضعف منقطع النظير

ألا تعسًا لها من حياة! تلك التي تكون دومًا علىٰ حرف ..

❀ ❀ ❀

ومن أرق مشاهد الحنان والمحبة مشهد الأم التي ترضع وليدها

إنه مشهد ارتباط عميق ومودة فطرية راسخة

وإن أما تذهل عن رضيعها وتتركه علىٰ تلك الحال من الضعف والاحتياج إليها لهي بلا شك أم في حالة غير طبيعية

يصعب جدا أن يتحول هذا المشهد الفطري الرقراق إلىٰ نقيضه إلا بحدث جلل ومؤثر هائل يذهب العقل ويطيش لهوله الفهم والإدراك

وهذا ما يحدث في يوم القيامة

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾

تذهل المرضعة

وتضع الحامل حملها

إنها حالة عامة من فقدان التركيز لهول ما يرونه فما أشبههم بالسكارىٰ يترنحون دون فهم أو إدراك لأول وهلة الأمر الذي يؤدي إلا الذهول عن الرضيع والانشغال عن أقرب الخلق إلىٰ المرء

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾

إنه سكر بلا خمر

سكر بسبب هول الأمر وضخامته وخطورته

سكر يغفل المرأة عن رضيعها

فلمثل هذا الخطب الجليل فليعمل العاملون ويستعد المقبلون

يستعدوا ويعملوا لأجل النجاة من الزلزال

زلزال ذلك اليوم العظيم

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾

* * *

وإن من نعيم الجنة ما يمكن للعبد إدراك أصله وشىٰء منه في الدنيا

ومن ذلك النعيم الذي يمكن ادراك شيء منه في هذه الدار نعيم القول الحسن والكلم الطيب

﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾

والطيب من القول كلمة تشمل جميع الأقوال الحسنة والكلمات الطيبة وعلىٰ رأسها ذكر الله وفي مقدمته كلمة التوحيد

وتشمل كذلك لين الكلام وتخير الراقي من الألفاظ والنافع من الموضوعات

وإن أهل الجنة يهديهم الله إلىٰ سماع وقول الكلم الطيب ويعافيهم من سماع اللغو والكذب

يفهم من ذلك أن من الشقاء افتقاد هذا النوع من الكلم والابتلاء بسماع غليظ الأقوال وسيئ الألفاظ وبذءء الكلمات وفاحشها

فعجبا لقوم يستبشرون في الدنيا بما هو شقاء ويلتمسونه ويبحثون عنه وربما ينفقون من أوقاتهم وأموالهم لسماعه أو قراءته

بينما تجدهم يزهدون فيما هو نعيم حقيقي يستطيعون إدراكه في هذه الدار العاجلة

نعيم الطيب من القول

❁ ❁ ❁

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

التبشير أمر من الله لرسوله ﷺ كما أن إنذار القوم وتنبيههم أمر

لكن في جُل البشريات والوعود القرآنية لا تجد التخصيص لشخص معين أو طائفة بعينها ولكنها غالبًا ما تكون مرتبطة بصفات وخصائص من حققها استحق أن تشمله تلك البشريات

ففي سورة الحج تجد ترابطًا بين البشارة وبين مقام الإحسان وذلك في قوله: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

والمخبتون كذلك لهم نصيبهم من البشرىٰ كما في قوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ

وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾

وأيضا في سورة الأحقاف تجد التلازم بين البشرىٰ وبين الإحسان: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ . .

وفي سورة البقرة تلاحظ أن الأمر بالبشرىٰ خاص بالصابرين: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

وجاءت البشرىٰ كذلك لمن حقق الإسلام لله تعالىٰ كما في قوله: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾

وأيضًا تجد جمعًا من الصفات الرائعة ارتبط بها التبشير في سورة التوبة: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

فإيمان وعمل وصبر وإخبات وإحسان وإسلام لله جل وعلا

صفات وخصائص حري بمن حققها أن ينتصر ويمكَّن له

وهذا هو من يستحق أن يبشر

❁ ❁ ❁

والتقوىٰ ليست شيئًا خفيًّا مدفون بين جنبات الصدور ليس لها علامات ولا عليها أمارات

بل ضد ذلك هو الصحيح

نعم التقوىٰ هاهنا وأشار لصدره لكن متىٰ وجدت هناك ظهرت لها علامات

ولعل أهم تلك العلامات والنتائج تعظيم الحرمات والشعائر

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾

وإن تعظيم الشعائر نتيجة حتمية لتعظيم من شرعها فتعظيمها من تعظيمه وكذلك الحرمات

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾

إن من عظم الله حقًّا وكبره صدقًا يعظم ويكبر كل ما أمر به وتعظم في نفسه جدًّا معصيته أو انتهاك حرماته التي حرمها

حتىٰ وإن ضعف أو وقع فيها تحت أسر شهوة ونسيان وقلة عزم فإن التعظيم لا يلبث إلا ويشرئب علىٰ واقعه فيندم ويحزن علىٰ ذلك الانتهاك ويرجو العودة والأوبة

تأمل حال الغامدية التي وقعت في فاحشة إلا أن تعظيمها للحرمة التي انتهكتها ظهر علىٰ واقعها لشهور طويلة من خلال ندم في القلب مستعر لا تخبو جذوته حتىٰ جادت بنفسها لله كما شهد له رسوله ﷺ

إن ذلك موقف ينطق بالتعظيم للحرمات

وكذا كل من عظم نداء الله وأمره وشرعه

كل ذلك علامة علىٰ التقوىٰ وذلك خير له عند ربه

❁ ❁ ❁

﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾

وهل من وسائل إبلاغ في ذلك الوقت؟

وهل من مكبرات صوت أو وسائل إعلام؟

كيف سيصل الأذان ويعرف الخلق النداء إذن؟!

ليس شأننا

عليك فقط أن تمتثل وتبلغ

ولقد وعد الله بأنه صوتك سيصل

ولقد وصل

واستجابوا

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾

«بلغ ربي مني التحية وقل له أني قد مت مشتاقًا إلىٰ بيته»

كانت تلك الكلمات هي آخر ما سمعه الحاج عثمان قبل أن ينطق صديق عمره الشهادتين ثم يسلم الروح

الحاج عثمان هو رجل بسيط من أواسط أفريقيا -تحديدًا زامبيا- وكان الرجل قد قرر هو وخمسة من إخوانه في منتصف القرن العشرين أن يحجوا بيت الله ويجاوروا في رحابه مشتاقين إلىٰ حرمه المقدس

لم يثنهم عن تلك النية كسل ولم يخفف ذلك الاشتياق طول مسافة أو قلة ذات يد ولا حتىٰ مخاطر طريق

نحن في ريعان شبابنا وفي ذروة عنفواننا فإن لم نخرج الآن لتلك الرحلة فمتىٰ؟!

أوبعد أن يهن العظم ويضعف البدن ويخور العزم؟!

لا والله بل نخرج الآن ونعقد العزم ونبتغي من الله العون ونستعين به

علىٰ قلة الزاد ووعثاء السفر والظن فيه جميل وهو الرزاق ذو القوة المتين

هكذا دار الحوار بين الأصدقاء الأفارقة الذين خالط الشوق قلوبهم وهوت إلىٰ بيت الله المحرم أفئدتهم

وهكذا اتخذوا القرار

سيحجون سيرًا علىٰ أقدامهم وسيستعينون بالله ربهم في رحلتهم الطويلة من مجاهل وأحراش أفريقيا الخمسينات إلىٰ أرض الحجاز ومهبط الوحي ومهد الرسالة

لن تكون الرحلة سهلة ولن يكون الزاد ميسورًا

سيضطرون للوقوف في القرىٰ والمدن التي يمرون بها بين الفيافي والجبال والغابات والمستنقعات

وسيلجأون إلىٰ كل قرية أيامًا ولربما شهورًا ليَجِدُّوا السعي ويكدوا ويكدحوا لتحصيل زاد السفر ومؤونة الرحلة حتىٰ تنفد فيقفوا من جديد عاملين وكادحين بربهم مستعينين

طالت الرحلة ليالي وأيامًا ساروا فيها عازمين وبمخاطر السفر غير آبهين

سقط منهم عبر شهور سيرهم الواحد تلو الآخر

هذا بلدغة حيَّة

وذاك بضربة شمس

وثالث بملاريا حتىٰ لم يتبق إلا الحاج عثمان وصديقه

هاهما علىٰ متن عبَّارة تمخر بهم عباب ما سموه حينئذ ببحر جدة

وها هي جدة تلوح في الأفق لكن يبدو أن صديق الحاج عثمان لن

يتمكن من الصمود أكثر من ذلك

ها هو يلفظ انفاسه الأخيرة بعد رحلة دامت عامين ونيف كان الشوق فيها حاديه والحب قائده والاسترضاء بغيته ومنتهىٰ أمله

خرجت منه تلك الكلمات علىٰ بساطتها تحمل كثيرًا من عميق المعاني وصادق المباني

بلغ ربي مني التحية وقل له أني قد مت مشتاقًا إلىٰ بيته

يالها من زفرة محب وتنهيدة مشتاق صادق دلل علىٰ صدق حروفها بعمله وسعيه وها هو يجود في نهاية رحلتها بنفسه غير نادم ولا مستكثر لعمله

إنها تلبية عملية لنداء سيدنا إبراهيم عليه السلام

ذلك النداء الذي لم يخفت سطوعه رغم مرور القرون

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾

تلبية بالجوارح والأفعال وبالنفوس والأموال تصنع مشهدًا مهيبًا علىٰ ظهر ذلك المركب بعد تلك الرحلة الطويلة والشاقة التي لم يبلغ نهايتها إلا عثمان

عاش الحاج عثمان طويلًا بعد ذلك المشهد المهيب الذي أسلم فيه صديق عمره الروح بين يديه

مكث الحاج عثمان مجاورًا بيت الله الحرام عقودًا روىٰ فيها قصة أصحابه الذين هوت أفئدتهم للبيت وتاقت أنفسهم الشابة إلىٰ تلبية نداء ربهم فلبوا بأرواحهم قبل ألسنهم

تلك القصة ومثلها كثير لرجال ونساء هوت أفئدتهم إلىٰ البيت العتيق الذي جعله الله مثابةً للناس وأمنًا

رجال ونساء لبوا النداء وتعلقت قلوبهم بالسماء فلم يبخلوا بغالٍ ولا نفيس ليبلغوه من كل فج عميق يرفعون شعار «لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»

«لبيك إله الحق لبيك وسعديك والخير بيديك والرغباء إليك والعمل»

«لبيك حقًّا حقًّا تعبدًا ورِقًّا»

«لبيك مرهوبًا ومرغوبًا إليك»

لبيك . . . .

❁ ❁ ❁

وفي خضم التعبد والتنسك لم ينس البائس ولا الفقير

إنها ليست شريعة اعتزالية ولا شعائر أنانية تهتم بالمتنسك وتعنىٰ به بشكل فردي وحسب

ولكنه التوازن بين هذه وتلك

ففي أثناء عبادتكم العظيمة وفي خضم تبتلكم وذكركم وتعظيمكم وتضحيتكم لا تنسوا الفقير

﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾

ولا تفرقوا في العطاء بين القانع الذي لا يسألكم إلحافًا وبين الذي يسأل ويطلب

﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾

أعطوا الجميع وليطعم من هديكم البائس والفقير ولتحتو عبادتكم علىٰ التراحم والتكافل الذي لا ينبغي أن يفارقكم أو ينفصل عن عبادتكم وتقربكم

❁ ❁ ❁

واستمرار التمكين ومباركة الله له ونصرته لأصحابه مرتهنة بما بعد التمكين

والاختبار الحقيقي عند حدوث ذلك التمكين ماذا فعلتم بعده

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾

إقامة العبادة والحرص عليها

التكافل والتراحم وحق الفقراء من خلال الزكاة

الأمر بالمعروف والحرص علىٰ نشر الخير وأصل كل الخير في الشرع المنزل

النهي عن المنكر وإبطال الباطل وكف أهله

تلك هي أسس التمكين الشرعي

فإذا أردت أن تعرف مآل من مكن لهم فانظر إلىٰ ما أحدثوه بعد تمكينهم وتأمل تلك الخصائص التي سارع إليها إليها من مدح تمكينهم وقس عليها فعل كل ممكن متغلب تعلم بإذن الله عاقبة أمره

ولو بعد حين

سورة المؤمنون

وصلاح الصالحين حجة في الأرض علىٰ الفاسدين

تلك حقيقة بينها رب العالمين في كتابه الكريم وذلك في رده حين يصرخ أصحاب الجحيم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾

فيجيبهم ويقيم عليهم الحجة بفعل الصالحين: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

إن صلاح هؤلاء وثباتهم دليل دامغ علىٰ أن الأمر ممكن

أن الشقوة لا تغلب كما تزعمون

ها هم مؤمنون صالحون مستمسكون لربهم داعون راغبون

ها هم يثبتون أن الأمر لم يكن مستحيلًا كما تدعون

فهل اعتبرتم بهم أو اقتديتم بشأنهم

العكس هو ما حدث

﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾

بدلًا من اقتفاء أثرهم والاقتداء بهم سخرتم واستهزأتم وربما آذيتم وتطاولتم

فماذا كانت النتيجة وأين هؤلاء وأين أنتم

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾

❁ ❁ ❁

ولقد ورد ذكر الفردوس فقط في موضعين من كتاب الله

والموضعان يقترنان بعلو الهمة في طاعة الله والترقىٰ في مقامات الدين المتنوعة

فيرد ذكر الفردوس في سورة الكهف التي تمتلىٰء بالحركة والبذل لدين الله ﷻ والتضحية لأجله وفيها نماذج لعلو الهمة المذهل تحت مختلف الضغوط في أي ظرف كان

وتجد أبطال قصص سورة الكهف يضربون أروع الأمثلة في التضحية والبذل والدعوة وطلب العلم ونصرة المظلومين إلىٰ آخر تلك الخصائص التي استحقت لأجلها تلك السورة بقصصها المبهرة وهمم أبطالها أن تشرف بذكر الفردوس

بينما يأتىٰ الموضع الثاني لذكر الفردوس بعد صفات المؤمنين في سورتهم التي سميت باسمهم وافتتحت بصفاتهم وأخلاقهم وعبادتهم المختلفة من خشوع وعطاء وإنفاق وعفة وحفظ فرج وإعراض عن اللغو وأداء للأمانة ووفاء بالعهود وحفاظ علىٰ الصلوات فاستحقوا بذلك التكامل بين الخلق والعبادة والعمل أن يكونوا الوارثين

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

والفردوس هو أعلىٰ الجنة وأفضلها لذا يناسبه أصحاب تلك الهمم

العالية والأعمال الفاضلة

والنبي ﷺ يوصينا حين نسأل الله الجنة أن نطلب فردوسها فالمسلم الحق لا يرضىٰ بالأدنىٰ -وليس في الجنة دني ولكن الأمر نسبي- لكن المسلم المسدد يسعىٰ في أمر الآخرة للأعلىٰ والأكمل ومن ثم يحرص علىٰ بلوغ ذلك الكمال بما يناسبه من عظيم الأعمال وعالي الآمال وإن امتطىٰ لأجل ذلك الصعاب وارتقىٰ في سبيله الجبال التي من لم يهو صعودها يعش أبد الدهر بين الحفر

رزقنا الله وإياكم الفردوس الأعلىٰ من الجنة

❁ ❁ ❁

ورغم أن الأصل في التكذيب هو التكذيب بالبعث ولقاء الآخرة وليس التكذيب بالموت فإن ذكر الموت قد ورد في سورة المؤمنون بثلاثة مؤكدات لفظية بينما أكد البعث بمؤكد لفظي واحد

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾

ففي آية الموت تم التأكيد عليه بـ(إِنَّ) و(اللام) التي سبقت كلمة ميتون وأخيرًا بالجملة الخبرية وورد الموت كاسم وليس كفعل وهذا أشد توكيدًا في اللغة من قوله تموتون

أما في آية القيامة والبعث فقد تم التأكيد بـ(إِنَّ) وحسب دون باقي المؤكدات في الآية التي تسبقها

والسؤال: لماذا؟

وهل هناك من يكذب بالموت ليتم التأكيد علىٰ وقوعه بهذه المؤكدات الشديدة؟

لو سألت أبعد الناس وأشدهم غفلة عن الموت لقال عبارات تفيد تصديقه الشديد من نوعية (الموت علينا حق) و(ما دايم إلا وجه الله) و(ما حدش واخد منها حاجة) و(الكفن مالوش جيوب) و(آخرتها متر ط متر) وسائر تلك الأمثال التي تقطر باليقين في حدوث الموت

لماذا إذن احتجنا لتلك المؤكدات

الجواب: لأن تصديق كثير من الناس بالموت رغم كل تلك الأمثال تصديق نظري

كلام وحسب

مجرد ألفاظ تتردد علىٰ الألسنة مع مصمصة الشفاه بحزن عند ذكر الموت أو الموتىٰ

لكن للأسف التصديق العملي مفتقد عند كثير من الخلق إلا من رحم الله

التصديق العملي ليس معناه الحزن المستمر والكآبة والفزع من هاجس الموت

ولكنه الانتباه

اليقظة

ثم الاستعداد لتلك اللحظة الآتية لا محالة

والعمل لما بعدها

لذلك يعد أصل تذكر الآخرة هو هذا الأمر

الموت والاستعداد له

لهذا والله تعالىٰ أعلم احتجنا لتلك المؤكدات اللفظية

لننتبه

ولنستفيق

ونستعد

فهل فعلنا؟!

❀ ❀ ❀

صاحت كل ذرة من ذراته بهذه الصيحة التي لم يسمعها الجمع الملتف حوله

إنها صيحة صرخت بها كل خلية في جسده الواهن

لم يسمعها أحد ممن حوله

فقط سمعها ذلك الضيف الذي لم يره أحد؛

ضيف جاء دون أن تشعر به الأسرة المكلومة ولم يلتفت إليه الأصدقاء الدامعون،

ضيف لا يحتاج إلىٰ استئذان ولا يطرق الأبواب،

فقط يدخل . .

هو يعرف طريقه جيدًا،

رغم أنه ربما لم يدخل من قبل هذا المكان،

لكنه يعرف طريقه ويعرف هدفه،

ويعرفه المضيف المعنىٰ بتلك الزيارة التي لا بد منها،

يعرفه ويعرف لماذا جاء،

هذا البرد الذي يسرىٰ في أوصاله، ويتصاعد ببطء إلىٰ تراقيه، ثم إلىٰ حلقومه، يجعله يدرك جيدًا لماذا جاء الزائر الآن؟

بالنسبة له هو زائر غير مرحب به، وغير مرغوب فيه، ورغم ذلك هو لا يملك طرده، ولا تأجيل موعد تلك الزيارة!

البعض يرحب بهذا الزائر ويسعد به،

بل هناك من صاح فرحا به عند لقائه قائلًا: زائر مغب وحبيب جاء علىٰ فاقة!

هناك من صاح شوقًا لما بعده، وقال: واطرباه وافرحاه بهذا الزائر،

لكن ليس هو،

ليس وهو يسترجع شريط حياة مدنسة بالآثام وملوثة بالمعاصي والمظالم والإجرام

ليس وهو يتذكر الفظائع التي ارتكبها، والمحارم التي انتهكها، والأهواء التي عبدها،

ليس وهو ينتبه فقط الآن، من غفلة طويلة، وسكرة مديدة، لم تستجب قط لكل محاولات التنبيه والإفاقة والإفهام،

علىٰ الأقل ليس الآن،

ليس قبل أن يأخذ فرصة أخيرة،

فرصة واحدة فقط

﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ . .

صاح بها من أعماق نفسه، بصوت لم يجاوز حلقه، وقد اصطدم بمرارة السكرات، وغرق في متلاطم الغمرات،

أرجع فقط ولو ليلة،

ولو ساعة،

ولو بمقدار ركعتين خفيفتين، أتوب فيهما وأنيب إليك يا مولاىٰ،

ولو بمقدار عمل صالح يختم لىٰ به،

بسجدة أجيب الزائر وأنا فيها، لعلي ألقاك وأنا عليها

﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾

الآن؟!

الآن تذكر الأعمال الصالحة؟

الان يتكلم عن المسارعة إلىٰ الخيرات، وهو الذي طالما تباطأ عنها؟؟

الآن علم أن له ربا يدعوه ويسأله؟

الآن يرفع عقيرته المكتومة بدعاء تعجز يداه عن الارتفاع معه، وهو الذي كان من قبل في أوج قوته يتكاسل عن رفعهما بمثله؟!

الآن يخاطب ربه بصيغة الجمع التعظيمية ويقول ارجعون، وهو الذي لم يعظمه ولا عظم حرماته ولا شعائره في حياته؟

الآن؟؟!!

❁ ❁ ❁

﴿كَلَّآۚ﴾

كلمة من ثلاثة حروف، لكن ما أثقلها علىٰ سمعه الآن،

ربما لن يسمعها في تلك الساعة،

ربما يترك ليكررها عقودًا،

وربما قرونا كما قال البعض،

ربما لن يسمع الرد علىٰ طلبه الذي سيكرره في كل موطن إلا بعد مئات السنين!

سيظل يكرر تلك الكلمة التي هو قائلها الآن في كل مرحلة يمر بها في رحلته الأخيرة،

سيقول بعد قليل: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

سيقولها كما قالها أمثاله في كل زمان: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾

وسيقول يوم يأتي تأويل ما أنذر به: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾

وسيقول وهو ناكس رأسه عنده: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾

وسيصرخ حين يرىٰ ما حذر منه: ﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾،

وسيجأر حين يجد نفسه حبيس ما قد رهبوه منه طويلًا: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾

ارجعون ، أخرجنا ، أخرنا، أخرتني، فارجعنا ، نرد، مرد

لكنها مجرد كلمات

لا رجوع، لا عودة، ولا تخفيف،

فقط دونهم السداد؛

سداد ثمن تأخرهم عن الإجابة،

سداد ثمن سخريتهم وتعاليهم،

سداد ثمن تغافلهم عن تلك الأمنية التي كان ينبغىٰ لها أن تقال وأن يعمل بها مبكرًا،

أمنية ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾،

❀ ❀ ❀

وستخفت أصواتهم بعد حين

وستتدنىٰ آمالهم وتتحطم أمنياتهم فيتضرعوا قائلين: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾

لكن كل هذا ستطيشه عبارة واحدة،

﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾

أتدري لماذا؟

لأن ما يقولوه مجرد كلمة،

ما يقولوه مجرد صياح عند الاضطرار، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون،

نعم كاذبون ولو كانوا صادقين لقالوها مبكرًا

لقالوا ذلك حال صحتهم وقوتهم وبطشهم

لقالوا ذلك وهم ما زالوا فيها،

لكنها عادتهم؛

أقوال لا أفعال وشعارات بغير أعمال،

ارجعون ، أخرجنا ، أخرنا ، نرد

وبعد كل هذا الكلام،

ماذا كانت النتيجة؟

رد واحد سيكست كل ما نطقوا به متأخرين،

رد واحد سيخرس كل الألسنة التي لا تجيد إلا فارغ الكلام،

عبارة واحدة ورد واحد، ولكنه ليس أىٰ رد،

إنه رد من ينادون،

كلمة ربهم الذي طالما نسوه،

الذي طالما سخروا من أوليائه، وتعالوا علىٰ أحبائه

فليسمعوها ساحقة لأمانييهم الجوفاء: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾

لا تكلمون..

كفاكم كلامًا، فاليوم لا يقبل منكم عذر، ولا تؤخذ منكم شفاعة

قد قضي الأمر

وانتهىٰ الكلام،

لم تعد لحروفهم قيمة، ولا لجدالهم معنىٰ

لم يعد لندمهم لزوم، فاليوم لا ينفع الندم

لقد قضىٰ الله في أمرهم وحكم عليهم، وهو أحسن الحاكمين

فالبدار البدار

البدار البدار

❀ ❀ ❀

﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾

تخيل نفسك في هذا المقام قائلًا هذا الكلام، راغبًا في عودة لاستدراك ما فات واستنقاذ ما هو آت

تخيل أنك تتمنىٰ العودة للدنيا ولو لدقائق معدودة تدرك فيها توبة وتحسن فيها أوبة

تخيل ذلك

ثم ارجع ..

الحمد لله

ها قد رجعت . . . . .

فماذا أنت فاعل؟!!

❁ ❁ ❁

ولقد كانت الشبهة الدائمة التي يصدرها المترفون لكل رسول يأتيهم كونه بشرًا مثلهم

ولقد تكررت تلك الشبهة في كل قصص الأنبياء التي وردت في سورة المؤمنون

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ * وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرًا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ دائمًا المشكلة لديهم أنه بشر مثلهم

ولو تأملت جيدًا لوجدت أن أصحاب تلك الشبهة في كل مرة هم المترفون والملأ المستكبرون ومن يسمون بعلية القوم

ذلك أن الطبقية والمادية تتفشىٰ في هؤلاء بشكل أكبر وأكثر وضوحًا

إنهم يقيمون كل نبي يأتيهم بمنطق مادي قح ويتعاملون معه بمعطيات الدنيا الجامدة وبالتالي لا يجدون مبررًا لاتباعه فهم يريدون بزعمهم خلقًا مختلفًا ولا يقتنعون إلا بمن يفضلهم ماديًّا

لكن مع ذلك حين جاءهم بشري مختلف ولمسوا آية في خلقه لم يؤمنوا به بل وحاولوا قتله

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾

ها هو ابن مريم عليه السلام آية في مولده بغير أب وآية في كلامه في المهد

ها هو بشر مختلف المنشأ والطفولة

لكن مع ذلك لم يرضوا

ولم يكتفوا

ولو أنزل الله ملائكة يمشون مطمئنين لطالبوا ببشر رسول

القضية لديهم مجرد ستار

ستار للكبر والجحود والتكذيب

ستار يتغير ويتلون بمختلف ألوان الشبهات ليخفي من ورائه نفس الإشكالية

إشكالية الهوىٰ والاستكبار في الأرض

❀ ❀ ❀

ومن أعجب شبهات الصادين عن سبيل الله قولهم: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾

وما أنتم إذا؟!

هل أنتم أيها المضلون من جنس آخر أو خلق مختلف؟!

ألستم بشرا مثلهم؟!

إن إجابة شبهتهم تكمن بين ألفاظها

فإن أطاعهم الناس في دعواهم وتركوا الأنبياء فقد أطاعوا في النهاية بشرا أيضًا

وذلك دأب شبهات القوم

واهية ضعيفة وإن بدت غير ذلك

❁ ❁ ❁

وتكمن أهم إشكاليات التفرق والتحزب المذموم في إنشاء ولاءات متعددة داخل إطار الأمة الواحدة والجسد الواحد

تلك الولاءات والتعصبات غالبًا ما تتبع ذلك التفرق والتمزق وتزيده تمزقًا علىٰ تمزقه

وذلك حين توالي كل مجموعة وحزب بعضها البعض وتفرح بما عندها وترىٰ لنفسها وأفرادها فضلًا علىٰ غيرها

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾

فيكون ذلك استبدالًا لمحل الفرح الصحيح ومعقد الولاء السليم الذي ينبغي أن يكون لدىٰ المسلم

وهو الفرح بفضل الله ورحمته والموالاة علىٰ طاعته ومحبته وليس طاعة تلك الراية أو الحزب

وكلما تعددت معاقد الولاء ومنابع الفرح والخيلاء كلما ازدادت الأمة الواحدة تشرذمًا وازداد الجسد الواحد تمزقًا وإنا لله وإنا إليه راجعون

فإن لزم العمل الجماعي والتعاون علىٰ البر فإن علىٰ سالكي هذا الطريق الحذر كل الحذر من ذلك المآل وليراقبوا دومًا محل فرحهم ومعقد ولائهم ليدركوا هل وقعوا في المحظور أم أنهم فقط علىٰ البر والتقوىٰ يتعاونون وليسألوا أنفسهم دوما هل لازلنا علىٰ ذلك المعتقد والفهم أم أننا بدلناه

معتقد: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾

سورة النور

الله نور السماوات والأرض

نوره علىٰ نور

وبريقه له سطوع ووهجه يبهر الأبصار الصحيحة وينتشر في جنبات القلوب الطاهرة ويضيء الأنفس الطيبة

لكن رغم سطوعه وإبهاره هناك من يلحظه بصعوبة متقطعًا متفرقًا كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا وهناك أبصار لم تلحظه أصلًا وقلوب عميت فلم يصل إليها ضياؤه ولم يغشاها بريقه

فسل الله أن يصلح عين قلبك لتبصر هذا النور وتضرع إليه ليجعل لك نورًا فمن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور

❊ ❊ ❊

إن سورة النور تعطي مثالًا علىٰ المنهاج القرآني المتوازن والمتكامل في التعامل مع المشكلات المجتمعية والقنابل الاجتماعية الموقوتة وتعرض سبلًا قويمة لعلاجها بشكل تتضافر فيه العقوبات الترهيبية جنبا إلىٰ جنب مع سد ذرائع المعصية وذلك كله إلىٰ جوار تربية المجتمع تربية إيمانية ومراعاة الوازع الديني في معالجة تلك المشاكل

والمشكلة المطروحة في السورة هي مشكلة الفاحشة وانتشارها وكيفية معالجة ذلك في مجتمع حديث عهد بالرايات الحمراء وخيمات الزنا والفجور وسيطلب منه الكف عن ذلك وسيوصف بأنه فاحشة ومقتًا وساء سبيلًا

ومن خلال علاج السورة لتلك المشكلة يتبين المنهج السديد للتعامل مع تلك التحديات فليس الأمر عقوبة وحسب ولكن هناك

إجراءات متعددة

منها إجراءات احترازية لسد الذرائع والتي تشمل الأمر بالستر وضرب الخمر علىٰ الجيوب وعدم التبرج والتكشف تقليلًا لدوافع الشهوة ومثيراتها وأيضًا الأمر بغض البصر وكذلك تيسير الزواج حتىٰ للفقير والحض علىٰ الاستعفاف لمن لم يجد زواجًا وكذلك وضع أسس للآداب الأسرية التي تعين علىٰ التعفف وتجعل للبيوت وحجراتها حرمة وحفظًا

وهناك الإجراءات العقابية الرادعة التي تأخذ علىٰ يد من وقع في تلك الفواحش ومن ساعد علىٰ ذلك بنشره للفاحشة وتهوين قدرها في القلوب من خلال قذف الناس بها واستسهال تردادها أو من خلال إثارة مكامن الشهوات وفتنة الخلق بالمغريات التي توقظ دوافع الفاحشة في نفوسهم

وقبل كل ذلك والأساس الذي يبنىٰ عليه علاج المشكلة التوجيه الإيماني والموعظة البليغة التي ترسخ الوازع الداخلي وتؤصل للضمير العقدي الذي يرفض المعصية ابتداء لأنها معصية ويبغضها لأنه تبعده عن نور السماوات والأرض وتغرقه في بحر لجي من الظلمات المتراكبة وتحجب عنه ضياء الطاعة والقرب

ذلك الضياء الذي يلتمس في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه

إنها الحصانة الإيمانية قبل الحصانة العقابية أو الاحترازية

حصانة يحصلها المجتمع من خلال التعبد وتسبيح الله بالغدو والآصال في تلك البيوت العامرة التي تتشرب فيها القلوب نورًا وطهرًا يزيل منها أدران الفحش والتفحش

بذلك التوازن والتكامل تعالج المشاكل المجتمعية وليس فقط بسوط عقاب أو سد ذريعة واحتراز

فسبحان من هذا كلامه ومنهجه

❁ ❁ ❁

والزوج الذي ادعىٰ علىٰ زوجه وقوعًا في الفاحشة عياذا بالله استحق اللعن ونادىٰ علىٰ نفسه بتلك اللعنة

﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾

ورغم أن الكذب عمومًا معصية وليست كل معصية موجبة للعنة فإنه في ذلك المقام يلعن إن كان كاذبًا لأنه جمع إلىٰ جوار الكذب والافتراء ظلمًا وجورًا عظيمًا بفضح زوجه

وهو هنا ظلم لا تبرره الكراهية إن وجدت فهو قادر إن كرهها أن يطلقها وليس الانتقام منها بهذه الطريقة البشعة

وهو إن كان يكذب فقد ضم أيضًا إلىٰ كذبه مجاهرة بالفضيحة وإيذاء لمسلمة علىٰ الملأ وهذه أمور ضاعفت من بشاعة الكذب وجعلته موجبًا للعن وبلسانه

لكن لأن احتمال وجود الظلمة قائم وفكرة الانتقام الجائر نتيجة كراهية أو حقد فكرة واردة؛ فإن للمرأة فرصة تدفع عنها العذاب في الدنيا إن كانت مظلومة ولن يمسها سوط أو يقربها حجر بمجرد أن تشهد بالله خمسًا أنه كاذب

﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

فإن قيل كما في المثل العامي: «قالوا للحرامي احلف قال جالك الفرج»

وأن المرأة لو كانت هي الكاذبة فهي هنا لن تعاقب قيل أن الغضب أعظم من اللعن على الراجح: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾

وهي في القسم الخامس دعت على نفسها بالغضب وليس اللعنة غضب الله جل وعلا

﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

والغضب على الراجح أشد من اللعنة وقيل أنه أعجل وآثاره ترى في الدنيا والآخرة بينما اللعن خروج من رحمة الله في الآخرة بل ورد في الأثر عن وهب بن منبه أن اللعنة أثر من آثار الغضب: (وإذا غضبت لعنت)

فهي تشهد بالله كذبًا لتدفع عنها عذاب الدنيا فيغضب الله عليها في الدنيا والآخرة لتعامل بنقيض قصدها

والغضب نتيجة للادعاء الباطل رغم معرفة الحق ولذا كان اليهود مغضوبًا عليهم

وقد يلتبس على الرجل أو تعميه الغيرة فيسارع للملاعنة بظاهر من النظر

المصحوب بالغيرة التي ألهته عن التبين بينما المرأة تعلم علم يقين حقيقة وقوعها في الفاحشة من عدمه لذا فهي مستحقة للغضب لأنها خالفت الحق رغم علمها اليقيني به متشبهة في ذلك باليهود المغضوب عليهم

أعاذ الله بيوت المسلمين وعافاهم من تلك الفواحش الظاهرة والباطنة

❁ ❁ ❁

ولماذا التغليظ الشديد علىٰ قاذف المحصنات؟!

لماذا زجره وردعه لدرجة أن يكون حده قريبا من حد الزناة أنفسهم بل وتسقط شهادته ويسمىٰ فاسقًا ويلعن في الدنيا والآخرة وله عذاب عظيم؟!

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

إن المتأمل في عقوبة القاذف دون أن ينظر إلىٰ مآلات فعله علىٰ المجتمع ربما يراه فقط كذب أو تفحش في الكلام لذا قد يستعظم تلك العقوبة

لكن إذا أرجع البصر كرة أخرىٰ إلىٰ مجتمع يتهاون مع القاذفين فتتفشىٰ فيه الفاحشة وتصير هينة علىٰ الألسنة والصدور لغير رأيه لا محالة

فلانة عاهرة

فلان ساقط

علانة زنت مع علان

وترتانة ترافق ترتان

تخيل مجتمعًا تنتشر فيه أمثال تلك العبارات التي لا يجد الناس حرجًا

من ترداداها دون عقوبة تردعهم وترهيب أخروي يزجرهم

تخيل كم الأذىٰ والفضائح السهلة لأي أسرة تقع في مشكلة مع أخرىٰ أو بين المختلفين أو حتىٰ الأعداء فتصير الأعراض كلئا مباحًا يفعل به قليلو الورع ما شاءوا وينال منه الفجار ليلًا ونهارًا

تخيل هوان الفاحشة علىٰ الناس في مجتمع مثل هذا الذي يصير فيه القذف والرمي بالعهر نوعًا من الهزل والمزاح

لذا كان لا بد من ردع هؤلاء بشكل حاسم بحد قوي زاجر وبترهيب أخروي حازم قاصم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾

﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾

❁ ❁ ❁

ولماذا يحب البعض أن تشيع الفاحشة في المؤمنين؟!

قبل أن تفكر في الإجابة دع عنك الإغراق في نظريات المؤامرة ورغبة أعداء الخارج في إضعاف المسلمين فهي وإن حملت وجها من الحقيقة إلا أنها أحيانا تكون رمالًا ندفن فيها رؤوسنا لكي لا نرىٰ الحقيقة كاملة

حقيقة أن من بيننا من يحب أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين

يحب أن تشيع الفاحشة كي لا يكون وحده

يحب أن تشيع الفاحشة كي يرضىٰ عن نفسه ويسكن بقايا ضميره

يحب أن تشيع الفاحشة لكي يقول لنفسه ها قد عمت البلوىٰ وكل الناس مثلي (واللي زي الناس ما يتعبش)

وربما كان يحبها لأسباب تآمرية أخرىٰ

المهم أن غايته كقدوته وهدفه مثل هدف إمامه حين غوىٰ وعصىٰ فقال ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

إنه رد فعل نفسي في أصله يميل فيه الساقط لئلا يكون وحيدًا في تلك الدركات التي يعلم بينه وبين نفسه أنها دركات

فلماذا يهوي فيها وحده

لسان حاله فليسقطوا معي جميعًا ويهووا كما هويت ولا أحد أحسن من أحد

ولأن ذنبهم لم يعد قاصرًا وصاروا متعدين مفسدين لغيرهم ولأن من علامات الإيمان محبة الخير للغير كما يحبه المرء لنفسه بينما هؤلاء المفسدون يحبون الشر للناس ويدلونهم عليه فإن ذلك دل علىٰ نقص إيمانهم وانعدام ضميرهم فاستحقوا لأجل ذلك العذاب في الدنيا والآخرة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

❀ ❀ ❀

وليعفوا وليصفحوا

ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟

طبعا نحب . .

ومن لا يحب؟

ربما لا أكون مبالغًا لو قلت بيقين جازم أنني لا أتصور مسلمًا صحيح الإسلام تام الأهلية يعي معنىٰ هذا السؤال ثم يملك أن يجيب بإجابة غير تلك التي أجاب بها الصديق ﭬ

تلك الإجابة التي كانت دائمًا محل تفضيل من الدعاة والمصلحين والمربين حين يعظون الناس في شأن العفو والصفح والتغافر

بلىٰ واللّٰه إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا

رجل أنفق عليه الصديق أعوامًا وقيل أنه قد تربىٰ في حجره يتيمًا ثم يكون المقابل أن يخوض في عرض ابنته وزوجة نبيه مع من خاضوا في الإفك المبين ومع ذلك يتناسىٰ الصديق كل هذا ليعود إلىٰ عطائه والإغداق علىٰ مسطح من جديد

ويعفو . .

أمر مذهل يقف المرء طويلًا أمامه مشدوهًا متأملًا

كيف فعلها؟!

كيف استطاع تحملها وحمل نفسه عليها وإنها لكبيرة إلا علىٰ من وفقه الله لاحتمالها؟!

كيف قابل هذه الإساءة البشعة بإحسان فضلًا عن صفح وغفران؟!

الإجابة عن تلك الأسئلة التي تتبادر إلىٰ الذهن تكمن في أولىٰ كلمات تلك العبارة

كلمة: بلىٰ . .

وهي إجابة السؤال الرباني الذي نزل به الوحي مخاطبًا كل من له حق يمكن أن يصفح عنه

ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟!

وهل يتصور أحد أن تكون إجابة مسلم عن هذا السؤال نعم يا رب لا نحب أن تغفر لنا؟!

هل يتخيل مخلوق أن يجرؤ مؤمن بالله واليوم الآخر علىٰ رفض المغفرة؟!

أعتقد أن ذلك مستحيل عقلًا وشرعًا

إذن فما السبب الذي يؤدي لهذا البون الشاسع بين رد فعل عموم المسلمين تجاه تلك الآية ومثيلاتها وبين رد فعل الصديق؟

إنه إدراك حقيقة الخطاب ومن ثم التفاعل معه

ذلك هو الفارق وتلك هي المشكلة

إن مناط الإبهار فيما فعله الصديق يكمن في أنه تفاعل . .

في كونه تعامل مع السؤال القرآني علىٰ أنه موجه له

علىٰ أنه مخاطب به

وهنا أجاب . .

وكانت الإجابة متوقعة والمنطقية: (بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي)!

ثم أعاد إِلَىٰ مِسْطَح نَفَقَته الَّتِي كَانَ يُنْفِق عَلَيْهِ وَقَالَ: وَاللَّه لا أَنْزِعهَا مِنْهُ أَبَدًا

وهكذا دائمًا كانت ردود الأفعال عند أولئك الذين أدركوا تلك الحقيقة وعاشوا بتلك القيمة

حقيقة أن الله يتكلم وقيمة أنهم مخاطبون بكلامه

من يدرك ذلك لا بد أن يتفاعل وأن يجيب ويستجيب

وهناك نماذج متعددة لتفاعلات وتجاوبات مع سؤالات المولىٰ ﷿ ونداءاته كانت رد الفعل الطبيعىٰ من أهل الفضل الذين أدركوا ما يدركه العقلاء حين يُنَادَون أو يوجه إليهم الكلام فيجيبون ويستجيبون ويتفاعلون ممن يدركون قيمة النداء الرباني ويعون حقيقته ويستشعرون مخاطبتهم به

وذلك هو الفارق الرئيس بيننا وبينهم

الفارق الرئيس بيننا وبين سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومسارعته بالإجابة والعفو

والفارق الرئيس بيننا وبين سيدنا أبي الدحداح الذي تخلىٰ عن ثروته المتمثلة في حديقته الغناء امتثالًا لآية من كتاب الله

والفارق الرئيس بيننا وبين الفضيل بين عياض الذي تغيرت حياته بالكامل بعد أن سمع النداء وأجاب واستجاب

إن الفارق الرئيس بيننا أو بين كثير منا وبين هؤلاء أنهم قد أجابوا واستجابوا

الفارق أنهم تعاملوا مع القرآن علىٰ أنه كلام الله لهم.

أنهم تفاعلوا مع القرآن ونظروا إليه نظرة سديدة دقيقة ظهر أثرها جليًّا في ردود أفعالهم

نظرة مفادها وخلاصة أثرها: أن الله يكلمنا

هذه الآيات كلام الله لنا

ملك الملوك يخاطبنا نحن

هذه النداءات والسؤالات والأوامر والنواهي والتوجيهات موجهة لنا لك ولي ..

كيف إذًا لا أرد؟

كيف إذًا لا أتفاعل؟

وهل يسعني أن أعرض وألا أجيب ولا أستجيب؟

هذا هو الفارق المحوري بيننا وبينهم

للأسف الشديد الحقيقة أننا كثيرًا ما نتعامل مع القرآن علىٰ أنه فقط كتاب شعائر تعبدية محضة أو أنه وسيلة لتحصيل الحسنات وجمع الثواب في المواسم التعبدية وحسب، بينما ننسىٰ أو نتغافل عن تلك الحقيقة العظمىٰ

حقيقة أنه كلام الله

أنه حبله الممدود طرفه بأيدينا كما وصفه رسوله ﷺ

أن ربنا يتكلم ..

لقد انصرف كثير من الناس عن الاستمتاع بالتعبد لله ومعاملته بهذه الصفة والإحساس بآثارها وتدبر تجلياتها فكانوا كمن ظل يثبت عظمة وجلال كتاب وينفق الأوقات علىٰ إثبات نسبته لصاحبه ثم لم يجد الوقت لفتحه أو قراءته

أو كمن دعي إلىٰ وليمة فظل يتحدث عن جمالها وفخامتها دون أن يمد

يده ليطعم منها ويتلذذ بطيباتها.

ولله المثل الأعلىٰ

إن صفة الكلام من أجمل الصفات التي تتعرف بها علىٰ الله جل وعلا وتتقرب إليه بمعاملته بها واستشعار آثارها

ورغم أن حل كثير من مشكلاتك ومفاتح نفسك وتذكرة أوبتك قد تكمن في آية واحدة

في كلمة أو كلمات ربانية تقرأها أو تسمعها فتشعر أنها موجهة لك أنت

تنتشلك معانيها ..

تشفيك موعظتها ..

وتضيء توجيهاتها طريقك

..

حاول تتعامل مع القرآن من هذا المنطلق

حاول أن تتفاعل معه ..

أن تجيب عن سؤالاته

وأن تمتثل لأمره

وتنتهي عن نهيه

حاول استشعار أنك أنت المخاطب

أنت ..

نعم أنت ..

القرآن كله يحتشد بالنداءات والسؤالات والأوامر والنواهي الموجهة لك أنت

كل كلمة ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ أو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ تشملك أنت

الله ينادي ويدعو عباده

وأنا وأنت من عباده

يدعوك أنت ويدعوني أنا وهو الغني عنا ونحن الفقراء إليه

يدعوك ليغفر لك من ذنوبك

يدعوك لدار السلام والجنة والمغفرة بإذنه

يدعوك لما يحييك ويناديك لما فيه خيرك

كم امتلأ كتابه بالنداءات التي لم ترعها سمعك

كم مرة سمعت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ و ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾

نعم هذا أنت

أنت المنادَىٰ وهو المنادِي

هل لا بد أن ترىٰ اسمك مكان كل كلمة عبادي أو الذين آمنوا أو الناس وسائر تلك الكلمات التي تأتي بعد النداء لكي تشعر أنك أنت المخاطب والمنادىٰ؟

لماذا لا تحاول أن تتجاوز الأسماء والألقاب وتغوص بقلبك في حقيقة المعنىٰ

وتستمتع بشعور جديد

شعور أن ربك يناديك

يكلمك . .

يسألك . .

ويدعوك ليغفر لك

حاول

وصدقني إن شاء الله ستشعر بفارق كبير

وستلمس بإذن الله تغيرًا واضحًا في علاقتك بالقرآن

تغيرًا للأفضل

فقط إذا ترسخت في نفسك تلك القيمة

قيمة أن الله يكلمك

وأنك تجيب وتقول: بلىٰ يا رب

نحب أن تغفر لنا

❀ ❀ ❀

وكم من مصائب وجرائم تقترف بكل أريحية وسلاسة ودون ذرة ندم في قلوب أصحابها

كم من كوارث غلفها الاستخفاف وكم من انتهاكات بررتها الاستهانة

ولقد بين الله سبب ذلك الاستخفاف جليًّا واضحًا فقال:

﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾

هذه الجملة تعد من أكثر الجملة القرآنية التي تؤثر في نفسي

وهو عند الله عظيم

ما أدراني أن ذلك الذنب ليس عنده عظيمًا

وما أدراني أن تلك الكلمة البسيطة ليست عنده عظيمة

وكذا وكذا من المحقرات والآثام التي نستقلها نحسبها هينة وهي ليست كذلك أبدًا

فهي عنده . . .

عظيمة

❁ ❁ ❁

وعندما يأتي الأمر إلىٰ قذف الأعراض والخوض في الحرمات فإن هناك خطوطًا حمراء يقف عندها المسلم أو ينبغي له

هي خطوط كالحواجز والأسوار لا تهدمها خصومات ولا تزيلها مشاعر وأحقاد

يتجلىٰ الاعتناء بتلك الخطوط الحمراء من خلال أمرين

حسن الظن بالمؤمنين

وكف اللسان عنهم

إنه منهج نقاء القلب وطهارة الفؤاد الذي لا يحمل في الصدر غلا للمؤمنين وبالتالي يحسن الظن فيهم

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾

وبعد حسن الظن وهي الخطوة الباطنة كي لا تكره أخاك تأتي الخطوة التالية وهي الكف

كف اللسان عن الخوض في تلك المسائل الشائكة

إنه منهج

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾

هكذا كانوا وبتلك الأخلاق سادوا

ظن الخير وقول الخير والسكوت عن الشر

فأين نحن منهم؟!

❀ ❀ ❀

وبعد ذكر النهي عن النظر المحرم والأمر بغض البصر جاء التوجيه الشامل بالتوبة العامة التي تشمل جميع المؤمنين

وكأنها إشارة لكون هذا الذنب -النظر وخائنة الأعين- ذنبًا عامًّا يندر الاحتراز منه بالكلية ولا يكاد يسلم مؤمن من مستصغر شرره

وبالتالي يحتاج الجميع إلىٰ توبة نصوح خصوصًا من هذا الذنب النظر المحرم

❀ ❀ ❀

والغفلة مذمومة في جل مواضع ذكرها في كتاب الله بينما في سورة النور جاءت صفة للمؤمنات المحصنات ولم تأت في معرض الذم أو النقصان وذلك قوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾

والغفلة هاهنا غفلة عن الفحش وسوء القول من قذف ورمي للأعراض أو سفول خلق وساقط طبع لذا لم تأت في معرض الذم في هذا الموضع

فأنعم بها من غفلة بريئة حيية تزين المؤمنة المحصنة ولا تنقص من قدرها وبعدًا لعلم يلوث فطرتها وينكس سلامة طبعها ويعكر صفو حيائها

سورة الفرقان

ومن كمال التوبة أن يعزم المرء علىٰ التغير بعدها ويتقرب إلىٰ مولاه بنية صالحة وهمة عالية وعزم جديد فيقرر أن يتبع تلك التوبة بالعمل

وليس أي عمل

بل بمعالي الأمور وعظائم الطاعات

ولقد بيَّن ربنا ذلك في سورة الفرقان أن عباد الرحمن التائبين عن كبائر الذنوب والذين تبدل سيئاتهم حسنات إنما يتبعون توبتهم بعمل صالح وهو من المواضع النادرة في القرآن الذي خص فيه اتباع فعل العمل بمصدره كمفعول مطلق ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ بينما في جل مواضع ذكر العمل يأتي وصفه بالصلاح بعده مباشرة دون تكرار جذر الكلمة بذكر المصدر

ولعل في ذلك إشارة لعظمة ورقي هذا العمل الذي جاء تابعًا للتوبة عن عظائم الذنوب والآثام

وإن لنا في نبي الله موسىٰ عليه السلام أسوة طيبة إذ قال بعد استغفاره وتضرعه بالتوبة من قتل المصري: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فأتبع استغفاره وتوبته وعدًا طيبًا وقطع علىٰ نفسه عهدًا راقيًا

وما أحسن عزم وحشي رضي الله عنه عند إسلامه وندمه علىٰ قتل سيدنا حمزة حيث أصر علىٰ تعويض فعلته بقتل مسيلمة الكذاب وقال: (قتلت

خير الناس وقتلت شر الناس)

فاجعل لنفسك أيها التائب عزما تنتوي به تعويض ما فاتك ومحو سيئاتك وإثبات حسن توبتك ومآبك

❁ ❁ ❁

ومن صفات أهل الغرف العلا من الجنان أنهم يداومون علىٰ دعاء الرب المنان

فتجدهم تارة يتعوذون من عذاب النيران وتارة أخرىٰ يطلبون إقرار العين بصلاح الأهل والولدان وتارة ثالثة يبتغون الإمامة والترقي في مقامات الإيمان

فهم إذا ذكروا بآيات الملك الديان لم يخروا عليها كالصم والعميان

بل هم يدركون أنه لولا دعاء بني الإنسان ما كان ليعبأ بهم الرحيم الرحمن وذلك كما ورد في سورة الفرقان من ذكر حال عباد الرحمن

عسىٰ الله أن يجعلنا منهم ويجمعنا بهم في صحبة النبي العدنان

❁ ❁ ❁

وسورة الفرقان من أكثر السور التي تكرر فيها لفظ «وقالوا»

وبعد هذا اللفظ يأتي بيان مفصل لشُبهات المشركين واستهزائهم بالنبي ﷺ وتشكيكهم فيه من خلال الحرب الإعلامية والهجوم القولي الكاسح

وفي مقابل ذلك تجد توجيهين في غاية الأهمية لذلك النوع من الحرب الفكرية

ستجد توجيهًا للرسول ومن اتبعه للجهاد بالقرآن ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾

إنه جهاد الكلمة والحجة والبيان

جهاد إظهار الحق الذي يزهق به باطلهم وتدحض به شبهاتهم

وقد دله مولاه علىٰ سلاحه وعتاده في هذا النوع من الجهاد فقال: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾

والضمير هنا عائد علىٰ كلام الله الذي هو أمضىٰ ما تواجه به الشبهات وأقوىٰ ما تدحض به الافتراءات

ثم تختم السورة العظيمة بالتوجيه لصناعة النموذج القرآني البديع

حينما تتأمل سورة الفرقان وتجد كم الشبهات والتشكيك والاستهزاء الرهيب الذي تعرض له النبي ﷺ ثم تتأمل خاتمة السورة التي أجمل لنا فيها ربنا صفات عباد الرحمن

فىٰ تلك اللحظة يتبين لك أن أبلغ رد علىٰ التشكيك والإهانة وحملات التشويه التي تشن علىٰ الدين وأهله هو في إقامة النموذج العملي للدين

إقامة نموذج مجتمع يتصف بتلك الصفات الراقية والأخلاقيات الرفيعة المذكورة في ختام السورة العظيمة

مجتمع عابد خاشع متوسط لا يسرف ولا يقتر

لا يشهد زورًا

ولا يقتل ولا يزني

وقبل ذلك هو موحد صحيح المعتقد

صفات رائعة لمجتمع مثالي

ذلك هو النموذج المتكامل الراقىٰ الذي يُلجم رونقه، ونضارة وحيوية أخلاقه، وفكره، ومعاملاته، وعباداته، ألسن الخراصين، وابتذال المغرضين

نموذج عباد الرحمن

نموذج المجتمع المسلم المترابط الذي يُعنىٰ بمعالىٰ الأمور، ويترفع عن سفسافها قائلًا للجاهلين سلامًا، هذا النموذج المبهر الذي يجمع بين إخبات العُبَّاد ونقاء الزهاد، وبين اعتدال الناجحين وقصد المقسطين الذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كرامًا إلىٰ غير ذلك مما ذُكر من الأخلاق العظيمة، والصفات الجليلة لهذا المجتمع الراقي بخصاله الحسنة، وبمعاملاته، وعباداته وعدله، وإقساطه محققًا ذلك النموذج الذي إن أقيم في الأمة عمليًّا فقد يشكل ردًّا أقوم للحجة من عشرات المعارك الجدلية والمراء العقيم الذي قد تنفق فيه أعمار دون جدوىٰ

بل إن هذا هو مبتدأ الرد العملي علىٰ من ينتقصون مِن مُعلم هذه الأمة ويشككون في وحيها

أن تكون الأمة عنوانًا وضيئًا لخاتمة الرسالات

أما والحال علىٰ ما هو عليه الآن، والجفوة القائمة بين مجتمعاتنا وبين تلك التعاليم والأسس التي يقوم عليها هذا النموذج، فللأسف ربما تكون الأمة قد شاركت من حيث لا تدري في تلك الإهانة لدينها وهي تصر أن تكون أسوأ عنوان لرسالة نبيها.

ما أحوج الأمة اليوم لإقامة هذا النموذج

ما أحوجها إذا أرادت أن تغير الواقع للأفضل أن تكون هي أولًا واقعًا أفضل

❀ ❀ ❀

ومن أبشع ما يلقاه أهل النار بداخلها عذاب اليأس

حين تتدنىٰ آمالهم رويدًا رويدًا وتضمحل تدريجيًّا حتىٰ تصل إلىٰ أدنىٰ درجاتها فيدعون علىٰ أنفسهم بالثبور أي الهلاك

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾

قد كانوا يوما يقولون ربنا أخرجنا ثم تدنت آمالهم حتىٰ طلبوا تخفيف يوم من العذاب ثم تدنت حتىٰ صار غاية مطلبهم شربة ماء يسقيهم إياها أهل الجنة

ثم انهارت الأماني والآمال حتىٰ صارت فقط الرغبة في الهلاك

ولقد طلبوها من قبل من مالك خازن النار: ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾، فكان الرد: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾

هنا لم يتبق بديهم إلا الدعاء بالثبور ولن ينفعهم فلطالما تم تحذيرهم من تلك العاقبة وذاك المآل

﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ ومهما كثر دعاؤكم بالثبور فلا إجابة فقد فات وقت الدعاء والآمال

فاللهم أجرنا من ذلك المآل

❀ ❀ ❀

وفي جل مواضع السير في الأرض والمشي في مناكبها في كتاب الله استعمل حرف الجر (في)

لكن مع مشي عباد الرحمن استعمل حرف الجر (علىٰ)

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾

فعباد الرحمن لا ينغمسون في شهوات الأرض الفانية ولا يخلدون إلىٰ متاعها الزائل

إنهم يستعلون علىٰ سفسافها ويتعالون علىٰ معاصيها ومهلكاتها

لكنهم مع ذلك العلو علىٰ الشهوات والمتاع الزائل فإنهم لم يستعلوا علىٰ الناس ولم يستكبروا علىٰ خلق الله فيها

بل مشوا عليها لكن هونًا

بتواضع في غير منقصة وإخبات في غير مذلة

فعلوهم علىٰ الشهوات محمدة ولينهم وإخباتهم وتواضعهم لخلق الله يزيدهم رفعةً وعلوًّا

فأنعم به من علو وأجمل به من هون

❀ ❀ ❀

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾

هكذا كان الأنبياء والمرسلون

وهكذا ينبغي أن يكون وارثوهم من العلماء وطلبة العلم

بشر يتبسط للخلق ويلين جانبه لهم

و ذلك لا يقلل من هيبته وحشمته ووقاره

الذي يحفظه سمته وترسخه مروءته وليس علوه علىٰ الناس واعتزاله إياهم فلا يعرفهم ولا يعرفونه

بل هو يألف الخلق ويألفونه ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف

وهو يعلم الناس من خلال سلوكه وكلماته وحاله جنبًا إلىٰ جنب مع مقاله

وهو في عدم تكلفه يقتدي بمورثه الذي ما كان يومًا من المتكلفين وكان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ولا يعرف مجلسه بين أصحابه رضوان الله عليهم أولئك الذين شهدوا له أنه كان أرأف معلم بأبي هو وأمي ﷺ

كان يأكل كما يأكل العبد ويجلس كما يجلس العبد ويقول: إنما أنا عبد

اختار أن يكون في بيته في مهنة أهله يرقع ثوبه ويخصف نعله ويحلب شاته ولا يقف علىٰ بابه حارس ولا حاجب

يركب بغلته ويحج علىٰ رحل رث ويفترش حصيرًا خشنًا يؤثر في جنبه الشريف

يأبىٰ أن يقوم له أحد ويحرص أن يجلس حيث انتهىٰ به المجلس حتىٰ أن الأعرابي من هؤلاء كان يأتيه بين أصحابه لا يعرفه فيقول: أيكم محمد؟

كان دومًا مثالًا للتواضع وخفض الجناح وعدم التكلف

ما يترك يد أحد سلم عليه حتىٰ يكون هو نازعها أولًا وما نحّىٰ رأسه عن

أحد تيمم أذنه يحادثه في أمر أهمه حتىٰ يفرغ وما صعَّر يومًا خده لصغير ولا كبير

يمزح مع هذا ويبسط وجهه في وجه ذاك ويلين لأولئك

لو شاء لكان أغنىٰ الناس وأعلاهم ملكًا وأرفعهم مجلسًا ومع ذلك يجيب دعوة خادمه أنس ليطعم من طعامه البسيط في بيت جدته مليكة ثم يقوم ليصلي بهم علىٰ حصير بالٍ قد اسودَّ لونه من كثرة الافتراش

هذا هو ما ينبغي أن يكون عليه العالم الحق والمعلم القدوة بفعله قبل قوله وببساطته وتواضعه وليس بتكلف واستعلاء يظن البعض أن العلم الواسع يبرره وكثرة الحفظ تسوغه

وهذا التكلف والاستعلاء للأسف هو من أكثر الأشياء التي تصد الناس عن العلم وقبول الدعوة

استعلاء البعض بعلمهم بل وبدعوتهم وشهرتهم

وإن العالم الحق لا يزداد بعلمه إلا تواضعًا وانكسارًا ويحب للناس ما يحبه لنفسه

العالم الحق يخالط الناس ولا يخاطبهم من فوق أبراج عاجية

هو الذي يجدونه بينهم في الشدائد والأزمات

هو الذي يشعرون بقربه منهم

من مشكلاتهم

من همومهم

يحيا حياتهم

ويأكل من طعامهم

ويمشي في أسواقهم

هو أحد أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾

تأمل ..

هونًا ..

وسلامًا ..

❀ ❀ ❀

وليست كل شبهة تطرح أو سؤال يبدو ظاهره الاستفهام حقيقة المرض وأصل المشكلة

بل كثيرًا ما تكون الشبهة مجرد ستار يُخفي حقيقة مختلفة هي أصل المشكلة وموطن الداء

شبهات كثيرة جدًّا قالوها عن النبي ﷺ وذكر الله بعضًا منها في سورة الفرقان

شبهات يطال بعضها شخص النبي وشبهات يطال بعضها ما أرسل به

وتنوعت طرق العرض

فما بين شبهة تطرح كأنها سؤال وما بين تكذيب صريح أو ادعاء كاذب

إفك،

أساطير،

افتراء،

أعانه عليه قوم آخرون،

تملىٰ عليه،

لولا نزل عليه جملة واحدة،

أهذا الذي بعث الله رسولًا؟

أبشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟

لولا ألقي عليه كنز

إن تتبعون إلا رجلًا مسحورًا

شبهات وراء شبهات

ولا مانع من الرد

لكن الأهم هو تشخيص المرض تشخيصًا صحيحًا

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾

هكذا جاءت الحقيقة كاشفة فاضحة لأصل المشكلة

القضية ليست في كونك بشرًا أو أنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق أو أن القرآن ليس جملة واحدة ولا أي من تلك الشبهات والاستشكالات

القضية قضية تكذيب

قضية رفض لما بعد الموت ولفكرة الحساب والجزاء والعقاب التي تقتضي عملًا وإعدادًا

والعلاج الصحيح لا يكون إلا بتشخيص صحيح

ليس هذا معناه ألا ترد الشبهات ويجاب عن السؤالات

لكن المقصد هو تقديرها قدرها وإدراك موطن الخلل لمخاطبته في الأساس

فتأمل

❁ ❁ ❁

ومن أوسع مفاهيم التعبد والتي تشتمل علىٰ رد واضح علىٰ أتباع نظريات قصر العبادة علىٰ الشعائر والأنساك ذلك المفهوم الذي ترسخه آية اتخاذ الهوىٰ إلهًا

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾

فمعلوم ومحكم وظاهر أن الهوىٰ ليس كيانًا ماديًّا ولا حتىٰ صنمًا حجريًّا أو خشبيًّا سيركع الإنسان له ويسجد

الهوىٰ هو ميل النفس للشيء وإرادته والرغبة في فعله أو التلذذ به والوقوع فيه

الهوىٰ شعور ومراد ورغبة

فكيف إذا يتحول إلىٰ إله إلا إذا كان للألوهية مفهوم مختلف عن ذلك الذي يصر علىٰ غرسه التغريبيون

ربما يتضح المعنىٰ أيضًا من خلال الحديث الصحيح: (تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار)

فهذا أيضًا يقينًا لا يسجد للدراهم ولن يتوضأ ويصلي ركعتين للجنيهات!

وقطعًا هو لا يعتقد أن من خلقه هو الدولار ومن يحييه ويميته هو الريال والدينار!

من يظهر للعبادة مفهوم أشمل وأعم يضايق أهل العلمنة وعزل الدين داخل جدران المساجد وتفاصيل المناسك

إنه مفهوم الطاعة والاتباع الكامل والتوجه المطلق لتحقيق مراد الإله

فمن اتخذ إلهه هواه يحركه الهوىٰ يمنة ويسرة ويتحكم في تصرفاته وأخلاقه ومعاملاته

يُعادي هذا علىٰ أساس الهوىٰ ويأكل حق ذاك لأجل الهوىٰ وينهش عرض أولئك أو يعتدي علىٰ حرماتهم لأن هذا مراد إلهه

مراد هواه

بذلك يكون عبدًا للهوىٰ كما هناك عبد للدرهم وللدينار وحديثًا عبد للمأمور وذي الصولجان

يفهم من ذلك أن تلك الأمور التي اعتبر توجيههًا للهوىٰ تأليها له وتعبد إليه لا بد من توجيهها لله كما توجه إليه الصلوات والأنساك

وهذا هو المفهوم الصحيح والشامل للعبودية وليست تلك المحدثة التي تختزل ديننا في العبادات وتعزله عزلًا عن الحياة والممات

بينما تعطي وتوجه ما ينبغي لله وحده إلىٰ قيصر الهوىٰ وكسرىٰ المال والشهوة ونمرود الجاه والسلطان

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

❁ ❁ ❁

ومن الطبيعي في السورة التي سميت باسم من أسماء هذا الكتاب

العظيم أن نجد عرضًا مميزًا لكتاب الله وخصائصه

ولعل أبرز تلك المعاني التي تظهر في السورة وتصحح النظرة إلىٰ القرآن العظيم هو معنىٰ الاحتياج الكامل للقرآن

في كل شيء

في كل المحكات والنقاط المحورية في حياة الفرد المسلم فإنه يحتاج إلىٰ القرآن كما يتضح في سورته

سورة الفرقان

فمن أراد الدعوة وإنذار الخلق فعليه بالقرآن

﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾

ومن أراد الذكر والتذكرة فعليه بالقرآن

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾

ومن أراد الثبات فعليه بالقرآن

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا﴾

ومن ابتغىٰ الحق فعليه بالقرآن

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾

بل ومن أراد تفسير الأمور وبيان حقيقتها فعليه بالقرآن

﴿إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾

ومن أراد الجهاد فعليه بالقرآن

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾

هنا وجهتك وبين صفحاته بغيتك والحل الذي تنشد

هكذا ينبغي أن تكون النظرة للقرآن

وأن يكون هذا دافعًا للتفلت من مقتضىٰ تلك الشكوىٰ الرهيبة الموجهة من خير الخلق إلىٰ خالقه

شكوىٰ هجر ذلك المعين الذي بينت في السطور الماضية مدىٰ الحاجة إليه

هجر القرآن

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا﴾

سورة الشعراء

حين قال له فرعون: وفعلت فعلتك التي فعلت كان من الممكن لنبي الله موسىٰ عليه السلام أن يرد بردود كثيرة ويبرر مقتل الرجل المصري

كان من الممكن أن يبين أنه قتل خطأ وأنه لم يكن يقصد قتله

كان من الممكن أن يوضح أن الرجل كان معتديًا صائلًا وأنه كان يدفعه

كان من الممكن أن يربط الأمر بجرائم فرعون الكثيرة في حق قوم موسىٰ من تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم

كان من الممكن أن يقول الكثير والكثير

لكنه لم يفعل

لم يستدرج إلىٰ مراء التبرير ولم يضيع الوقت في متاهات الجدال

إنه صاحب رسالة جاء لمهمة ولديه هدف عليه أن يحققه

لقد تجاوز تشغيب فرعون باعتراف مباشر بسيط قائلًا: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾

نعم قد فعلت ولن أقف طويلًا مع هذا الأمر أو أدفع عن نفسي شيئًا قد حدث وقد نُفيت بسببه سنين عددًا بعد أن تآمرتم لقتلي دون تحقيق أو تبين

فعلها وتاب عنها واستغفر في حينها ودفع الثمن من سنين غربته وإبعاده

فعلها إذا ولم يبررها أو يزينها

لكنه عبر إلىٰ الأهم

لم يضيع الوقت في غيابات التبريرات ليذهب مباشرة إلىٰ هدفه الذي يعلو علىٰ الاشخاص والأحداث ويسمو علىٰ التفاصيل والزلات

وكذلك حامل الرسالة

لا ينشغل طويلًا إلا بهدفه ولا ينفق وقته ويضيع حياته القصيرة في التبرير الذي يصل أحيانًا إلىٰ تزيين الخطأ وتحسينه لدرجة قد تؤدي في النهاية إلىٰ ضياع الهدف الأصلي وطمس الثوابت وتواري الحق

وكثيرًا ما يكون الطريق الأقصر هو اعتراف المرء بالخطأ والسعىٰ لإصلاحه ثم الانتقال إلىٰ الأهم والأنفع بدلًا من تضييع الأعمار والثوابت في التبرير والتزيين

لكن هذا حال أصحاب الرسالة وذوىٰ الأهداف السامية الذين ليس لديهم ترف تضييع الوقت والجهد

أما بالنسبة لأصحاب الفراغ والبطحات علىٰ الرؤوس فلهؤلاء شأن آخر واهتمامات أخرىٰ . .

❁ ❁ ❁

﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾

هذا ما كان يشغل السحرة في تلك اللحظة

الأجر الدنيوي والعائد المادي والقرب من السلطان

ولقد قرأ فرعون هذا الطمع في سؤالهم فزاد في إجابته علىٰ مطلبهم بأن

طمأنهم علىٰ موقعهم منه فقال: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾

ستكونون قريبين من السلطان

ستكون له حظوة لديه وزلفىٰ عنده

سيكون لكم «ظهرًا» فلن يجرؤ أحد بعد اليوم علىٰ ضرب بطونكم

يالسعادتهم وحماستهم بعد هذا الوعد من الطاغوت ذي الأوتاد

لكن هذا كان قبل السجود

قبل أن تخالط قلوبهم بشاشة الإيمان بالرب المعبود

وبعد أن كان كل همهم الدنيا وأجرها قبل لحظة الشهود لآية الرب الودود قالوا لمن هددهم بزوال تلك الدنيا بل بزوالهم عنها:

﴿لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾

﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾

وهذه من أزكىٰ ثمرات المعرفة وأشهىٰ قطوف العلم بالله

أن يستقيم الميزان وتبدو الدنيا بزينتها رخيصة إن وضعت في مواجهة مع إرضاء الله وما عنده

حينئذ يرتفع الشعار عاليًا خفاقًا نقيًّا رقراقًا يردده العارفون: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾

ويُنظر عندها إلىٰ كل تهديد وتخويف بمنطق: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾

هذا ما حدث حين عرف السحرة مولاهم الحق فتكشفت لهم تلك القيمة

الحقيقية للأشياء وبدت لهم المعايير الصحيحة فما ترددوا في الاختيار بين الدنيا وما عند الله

إن معرفة الله إذا استقرت في قلب عبد فإنها تهز -بل تزلزل- كل تصوراته الخاطئة ونظراته القاصرة فتسقط كافة أوثان النفس لتخر متهدمة علىٰ أنقاض سوء الظن والتعلق بالخلق

وكما رجف المنبر برسول الله ﷺ حينما تحدث عن الملك حتىٰ قالوا ليخرن به فإن قلب المؤمن وحياته وتصوراته ونظراته للأمور ترجف وتهتز وتنقلب رأسًا علىٰ عقب -بل هي في الحقيقة تعتدل- وذلك حين يعرف الله حق المعرفة فيرىٰ الأمور بقيمتها الحقيقية ويزن الدنيا وما عليها بميزان مختلف

ميزان المعرفة

❁ ❁ ❁

وإن المستبد لا يسعىٰ فقط لأن يكون ندًّا لله في نفوس العباد بل هو في الحقيقة لا يرضىٰ حتىٰ أن يكون الله له ندًّا

المستبد لا يقبل إلا أن يكون وحده ملء الأسماع والأبصار والقلوب عند أتباعه

أن يكون وحده محل خشيتهم ومحبتهم ورغبتهم ورهبتهم

﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾

هكذا قطعية صريحة معلنة محكمة قالها رمز الاستبداد فرعون

وهكذا فرق بينها وبين مقام الربوبية فهو في قرارة نفسه يدرك أنه ليس

خالقهم ولا رازقهم ومدبر أمرهم فلم يفرد ذلك المعنىٰ لنفسه بل ذكره بصيغة التفضيل التي لا تنفي وجود رب غيره وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾.

لكنه حين تحدث عن الألوهية والتعبد والطاعة والولاء لم يقبل إلا إفراده وحده

هو وحسب

﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾

ولا يكتفي المستبد بتقرير ذلك المبدأ نظريًّا بل هو يفرضه عمليًّا ويجعل علىٰ ضده العقوبة فيبطش بمن لم يقبل بالعبودية له ويقمع من تحرر منها ووحد خالقه وأفرده بالعبادة

﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾

فعبودية المستبدين بالإكراه وألوهيتهم سبيلها البطش والبغي والتعذيب وبديلها عندهم السجن بل وأحيانا القتل وتقطيع الأوصال

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾

كذلك المستبدون

وكذلك يفعلون

❊ ❊ ❊

ولقد اختار الله جل وعلا أن يكون محل تلقي وحيه وموضع نزول كلماته هو القلب

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾

القلب . . .

ذلكم العضو القيادي الذي إن صلح صلح الجسد كله وإن فسد فسد صاحبه والذي لا ينفع المرء مال ولا بنون إن لم يأت ربه بهذا العضو سليمًا مطهرًا من الآثام والأحقاد والأمراض والآفات

ولأن هذا القلب هو المحل الأصلي لتلقي الوحي ابتداءً، فإن تمام الذكرىٰ وكمال التأثر والفهم لهذا الوحي لا يكون بمعزل عنه ومن هذا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾

فإن اعترىٰ ذلك المحل الخلل ولم يكن به من الحياة ما يجعله أهلًا لتلقي الوحي وفهمه أو بمعنىٰ أبسط: لم يكن له قلب متجهز ومستعد لتلقي تلك المعاني فلا مناص حينئذ من أن يجاهد المرء نفسه ويكون حاله كحال من ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

ومن خلال إلقاء السمع والتدبر والتأمل وشهود المعاني الإيمانية وملامسة الكلمات الربانية والحروف القرآنية فإن الظن بالله أن يأتي اليوم الذي يرزق فيه من داوم علىٰ ذلك البذل قلبًا

لكن ليس أي قلب

بل قلب يتذكر ويعي . .

قلب حي

❁ ❁ ❁

لماذا اختلف رد فعل السحرة علىٰ وعيد فرعون عن رد فعل موسىٰ عليه السلام علىٰ نفس الوعيد والتهديد؟

فرغم أن المعين واحد والمعتقد واحد والتهديد في الحالتين مؤكد إلا أننا نلاحظ فارقًا ظاهرًا بين رد فعل السحرة حين قرر فرعون تقطيعهم وتصليبهم وبين رد فعل موسىٰ عليه السلام حين التقىٰ الجمعان وقال أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾

لقد جزم موسىٰ أنه لن يُدرك ولن يتمكن فرعون من إيذائه جزمًا تلخص في كلمة: كلا

بينما استقر قول السحرة علىٰ إمكانية إلحاق الأذىٰ بهم لكن ذلك في الدنيا ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وبينوا أن هذا لن يضرهم إلا في تلك الحياة الفانية لكنهم بعدها إلا ربهم ينقلبون

الفارق ببساطة هو طبيعة الوعد الرباني في الحالتين

فمع اعتبار فارق مقام النبوة إلا أن موسىٰ عليه السلام كان لديه وعد قطعي محدد فيه جزم بأن الله تعالىٰ معه هو تحديدًا .. ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾،

وأنه لا محالة غالب عدوه

﴿بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾

لذلك كان رد فعله يقينًا قاطعًا في وعد محدد له هو بعينه وفي حياته

هنا قال للمشككين والمهتزين والمرجفين بجزم قاطع: ﴿كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

قضية منتهية لا يوجد لديه ذرة شك فيها

أما السحرة فلم يكن لديهم مثل ذلك الوعد القطعىٰ المحدد لأعيانهم

وشخوصهم والذي يقطع لهم من الله بالنجاة الدنيوية من قبضة الطاغية

لكن مع ذلك كانت هناك نقطة التقاء وتشابه رئيسية بين رد فعلهم ورد فعل مويىٰ

إنه الثبات في الحالتين

سواءً كان الوعد المعين أو يكن

لذا كان رد فعل السحرة رغم معاينة العذاب الدنيوي الصدع بالحق والثبات عليه ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ جنبًا إلىٰ جنب مع التسليم الكامل لقضاء الله في عزة واستعلاء علىٰ الباطل بلا أدنىٰ ذلة أو استكانة أو وهن ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ فإن غاية أمانيهم ليست في تلك الحياة ولكن رغبتهم كانت فيما عند الله وجزائه الذي هو خير وأبقىٰ ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾

ولذلك ثبتوا وأقدموا وأمَّلوا خيرا عند من هم إليه راجعون معلنين: ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾

الخلاصة أنهم لم يجزموا بنجاتهم في الدنيا لكنهم التزموا حدودهم البشرية ولم يتألوا علىٰ رب البرية بأن ينسبوا إلىٰ أنفسهم ما لم ينسب لها، أو يخصوها بخصوصية زائدة، أو يقيدوا وعدًا أطلقه الله سبحانه

ألا رحمهم الله ورحم من كان علىٰ دربهم من الشهداء الثابتين علىٰ الحق وألحقنا بهم علىٰ خير

❁ ❁ ❁

كلا ..

قالها الكليم وضيئة تتلألأ بأنوار العقيدة،

كلا ..

قالها حاسمة قاطعة لا شك فيها

كلا ..

صفعة يقين علىٰ قلب كل مرجف واهن أكد بيأس أنهم مدركون،

صفعة بكلمة من ثلاثة أحرف بددت بنور الثقة بالله غيابات الإرجاف البادئ من صياحهم

وكيف لا يقولها وهو من ارتقىٰ علىٰ درجات الثقة درجة تلو أخرىٰ،

كيف لا يقولها وقد تعلم الدرس مرة بعد مرة،

تعلم أنه لا يخاف لدىٰ الله المرسلون،

تعلم ألا يخاف وهو الأعلىٰ بإيمانه،

تعلم أنه بآيات ربه ومن اتبعه الغالبون،

وتذكر الوعد الربانىٰ؛

الوعد الذي كلمه به ربه منذ أعوام مخاطبًا إيَّاه وأخاه:

﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾،

هذا الوعد الذي وجد قلبًا خصيبًا لتنمو فيه جذور الثقة المطلقة في مآل الأمر وتنبت منها شجرة طيبة من يقين راسخ أصلها ثابت ووفرعها في السماء تؤتىٰ أكلها كل حين بإذن ربها.

وكان من أُكُلِها أن قال بعد حرفه الحاسم:

﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾،

إنه يدرك معنىٰ المعية؛ معية الملك الحق،

فكيف يخاف أو يشك؟!

إن معه ربه يسمع ويرىٰ،

لا شك إذًا أنه سيهدي،

لذا قالها بحزم نافذ: ﴿سَيَهْدِينِ﴾

لكن كيف؟!

لا توجد أسباب

من أمامهم بحر لجىٰ ثائر لا يأمن أصحاب السفن علىٰ أنفسهم فيه، فما بالك بقوم قد أجهدهم طول المسير في صحراء مصر الشرقية وقد جفت حلوقهم وجلودهم تحت حر شمسها، ولا مركب لهم إلا أقدام قد كلت من عناء الرحلة،

و من خلفهم طاغوت وجيش هادر لا هم لهم ولا غاية إلا إفناءهم،

من أين أتيت بهذا اليقين يا موسىٰ؟!

دلنا إذا علىٰ المفر وخبرنا بربك عن طريق النجاة.

ومن أدراكم أنه يعرف بعد؟!

إنه يصدق ربه، وهذا قد يسبق علمه بالتفاصيل لكنه يوقن أنه سيعلم في الوقت المناسب،

وها قد علم،

قد جاء الوحي،

وصل روح القدس القوىٰ الأمين،

ها هي العصا ترتفع من جديد لا لتتحوَل هذه المرة إنما لتحوِّل

لتحول مغرقًا عميقًا، إلىٰ ملاذ آمن، وسبحان من جعل المغرق ملاذًا، والملاذ مغرقًا!

نعم؛

لقد كان الملاذ يومًا مغرقًا لولد نوح ﷺ، فلم ينجه جبل آوىٰ إليه ولم يعصمه ارتفاعه من أمر الله،

وها هو المغرق يتحول إلىٰ الملاذ الوحيد الذي سيأوىٰ إليه موسىٰ وقومه،

مشهد مهيب لم تر الدنيا مثله

جبلان عظيمان من الماء كأنهما شلالان يهدران عن اليمين والشمال وبينهما أودية ضيقة يختلط طين أرضها بشعب مرجانية حادة يجاهد القوم في تفاديها والمرور من خلالها،

يا له من مشهد ويا لها من آية!

لقد انشق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم،

مر بنو إسرائيل يسارعون الخُطا، ولو نظر أحدهم إلىٰ جبل الماء بجواره لربما أفزعه ظل قرش يتجول، أو سرب مخلوقات بحرية يسبح بحثًا عن رزقه، ولا تفصل بينهم وبينه إلا أمتار.

لكن الله أراد لهم أن يمروا،

و أن يأمنوا وينجوا.

وقد فعلوا

❀ ❀ ❀

وغالبًا لا يعترف المستبد علىٰ الملأ بأنه مستبد

بل ربما ارتدىٰ ثياب المصلح، أو تدثر بدثار الواعظ المشفق، أو تستر برداء المشاور المتقبل لرأي غيره الحريص علىٰ مشاركة عبيده القرار،

وليس أدل علىٰ ذلك التستر وأنه سلوك معتاد من الطغاة مما فعل فرعون إمام الطغاة ونبراس المستبدين، حين تدثر بدثار المشاورين المتقبلين لآراء الآخرين فقال: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾

فالمستبد يحلو له اكتمال المنظر وتمام الزينة، فيبدي من قوله ما يخالفه بعمله، ويظهر من حرفه ما يكذبه فعله؛ لكنه يظل في النهاية مستبدًّا طاغيًا وإن تجمل وتزين، فإنه تجمل لإتمام زينة المشورة الصورية، ولإكمال قشرة الموضوعية الزائفة، وهو يجمع حوله من يصلحون لتلك المهمة الرخيصة ممن لم يلحظوا أنه قد حكم ابتداء وقرر دون بينة أو دليل أن عدوه ساحر أو مفرق لجمع الأمة مريد لإخراج أهلها منها ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾

أليس هذا حكم قد صدر وقرار قد اتخذ؟

فما قيمة قوله ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ إلا إكمال الزينة والصورة الفارغة للحاكم الحريص علىٰ الشورىٰ

وحين الجد فإنه يقرر البطش

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾

هكذا حقرهم وسفه من شأنهم أمام قومه

وهكذا قرر مرة أخرىٰ أن يحكم عليهم بكلمة

ثم جاء وقت التحريض،

إنه لم يزل بعد حريصًا علىٰ أن يبدو في مظهر الحريص علىٰ الجماعة والذىٰ لا يتخذ قرارا بمفرده

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾،

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾

لقد تحدث بلسانهم وسيطر علىٰ أفكارهم بشكل جمعي من خلال الحديث بتلك الصيغة الجماعية التي تبث في الشعب أنهم جميعًا لهم نفس القرار والرؤية والحقيقة أنه ما أراهم إلا ما رأىٰ وما هداهم إلا سبيل الضلال

ويا ليتها حتىٰ كانت خطبة عصماء طويلة،

إنها بضع كلمات تأثيرية خدع بها شعبًا من المستخفين الذين استحقوا ذلك الخداع فقد كانوا كما قال الله فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

❁ ❁ ❁

وإن المحب إذا سُئل عن حبيبه فإنه يبدع في الكلام عنه حتىٰ وإن كان اللسان معقودًا والبيان كليلًا فإن محبته تظهر وصدقه يصل ورسالته تجد طريقها إلىٰ القلوب وما كان من القلب وصل إلىٰ القلب وليست النائحة الثكلىٰ أبدًا كتلك المستأجرة

فمن عرف الله حق المعرفة وأحصىٰ أسماءه وصفاته ومننه وآلاءه وأحبه

وامتلأت نفسه بتعظيمه وإجلاله فإن قلبه يفيض بتلك المعرفة والمحبة والتعظيم وسائر تلك المقامات التي أدركها من خلال المعاملة والمعايشة

تأمل قول إبراهيم عليه السلام لقومه:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ﴾

﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾

﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ﴾

﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾

إنه كلام المحب

إحساس يفيض علىٰ كل حرف نطق به الخليل عليه السلام

وكذلك معرفة الله إذا خالطت بشاشتها القوب وعاينت بهجتها النفوس ولاطفت نسماتها الأرواح فإن ذلك يظهر لا محالة علىٰ الجوارح واللسان

وإن أقواما عرفوا أعراضًا من الدنيا وزينتها وأحبوها فأجادوا الكلام عنها وبرعوا في تعريف الخلائق بها وعظموا شأنها رغم هوان قدرها

فما بالك بمن عرف الله وأحبه كيف يكون شأنه وكيف يكتم خبره ولا يحب لأخيه ما يحب لنفسه؟!

المحزن أنك تجد كثيرًا من الناس يعرفون عن كل شيء شيئًا لكن إذا جاء الأمر لذلك النوع من المعرفة تجد المأساة

لو فتح موضوع عن الأحداث تجده ينطلق

ينقلب الكلام عن كرة القدم تجده وكأنه المدرب العالمي والحكم

الدولي والخبير الرياضي

فتنتقل به إلىٰ السيارات وموديلاتها فلا يمانع

فىٰ الفن فهامة

وفىٰ الطب علامة

وفىٰ الموضة أستاذ وأستاذة

لكن لو احتاج لأن يتكلم عن ربه ولو لدقائق أو طُلب منه أن يعرف أحدًا علىٰ مولاه فلربما لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة

لماذا؟

الجواب ببساطة؛ لأنه عايش كل ما سبق

فعرفه

وفهم عنه

والمعايشة أساس الفهم

والمعاملة أصل المعرفة

فهل عرفنا الله حقًّا؟!

❁ ❁ ❁

﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾

من هذا الذي يطمع في مغفرة خطيئته؟!

إبراهيم!!

الخليل

الذي وفىٰ

الذي ابتلي بكلمات فأتمهن

تأمل . . فأتمهن

ورغم ذلك يرجو المغفرة

ويخشىٰ الخطيئة

ويتمنىٰ اللحاق بالصالحين

﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾

فكيف بي وبك؟!

❁ ❁ ❁

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾

هكذا بدأ فرعون رحلة التحريض الفكرىٰ لأتباعه ضد موسىٰ عليه السلام وقومه

لم تكن هذه هي المرة الأولىٰ التي يلبس علىٰ الناس تصوراتهم من خلال المصطلحات

لقد استعملها كثيرًا من قبل

فتارة هي مؤامرة وهو كبيرهم الذي علمهم إياها

وتارة أخرىٰ هو مجنون

وتارة هم شرذمة قليلون هم له غائظون

وتارة أخرىٰ هم أراذل القوم بادي الرأي

وتارة هم سفهاء ماكرون

وتارة هم مفسدون يريدون تبديل الدين وإظهار ذلك الفساد

وهكذا

يغلف الطغاة قمعهم لمعارضيهم بوصفهم وتسميتهم بمستبشع الألفاظ ومستقبح النعوت وقميء الأوصاف

وهذا دأب معروف في صراع طويل بين الحق والباطل

لم يحدث في التاريخ قط أن سمىٰ طاغية معارضيه باسم مستحسن أو حتىٰ غير مستقبح

ولقد كانت دائمًا من أهم أساليب واستراتيجيات أهل الباطل تسمية الأشياء بغير مسمياتها وترسيخ المفاهيم المغلوطة وتكرارها حتىٰ تصير هي الأصل بينما تضمحل الحقائق وتنزوي بعيدًا رويدًا رويدًا حتىٰ تكاد تختفي خلف غبار الكذب والتحريف

❁ ❁ ❁

صوت يغرغر مختنقًا بعبرات تختلط ملوحتها بملح البحر وطميه الذي يدسه جبريل في فمه الفرعونىٰ المنعم،

﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾،

يا لها من عبارة طويلة بالنسبة لهذا الموقف العصيب،

كل تلك الحروف والكلمات وليس فيها الكلمة الأعظم،

ليس فيها اسم الله!

ألهذه الدرجة ثقل لسانك الأثيم عن النطق باسم الله؟!

تدعىٰ الإيمان الآن؟

﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾،

وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتىٰ إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن.

ازداد الاختناق وتوالت السكرات والحسرات والندم علىٰ ما فات،

لكن هيهات هيهات،

لقد هلك،

ومات،

مات أفجر طاغية عرفته البرية،

مات من قال أنا ربكم الأعلىٰ وما علمت لكم من إله غيري،

مات الذي قال أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي،

ها هي تجري من فوقه البحار ولات حين مناص،

ها هو يغيب رويدًا رويدًا تحت الأمواج،

ولكن كلَّا،

لا بد أن يكون آية،

لا بد أن يعرف الخلق أنه قد هلك لا يقولن أحدهم إله علا في سماء،

لا بد أن يروه والطين في فمه والرعب علىٰ قسماته،

﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾،

اليوم،

يوم عاشوراء،

الذىٰ ظننت يا فرعون أنه سيكون يومك وعيدك الذي سيتحاكىٰ فيه الناس عن بطولاتك وأمجادك،

لقد ظل يومًا مشهودًا،

يومًا من أيام الله الذي جحدته واستكبرت علىٰ عباده

يومًا أظهر الله فيه عبده عليك، وتركك آية لمن خلفك

وصدق الموقن الكليم في حرفه الواثق

﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾

فها هو قد هداه ونصره

سورة النمل

﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾

لماذا؟

ماذا فعلوا؟

ما الجرم الذي اقترفوه؟!

ما الخطيئة التي تلبسوا بها؟!

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾

هكذا فقط؟!

يتطهرون!!

أتلك هي مشكلتهم وهذه هي جريمتهم وذاك وحسب هو ما تنقمون عليهم؟

نعم

هكذا كانت الإجابة

ولقد ودت العاهرة لو أن كل النساء زواني

ذلك هو المناط وتلك هي الحقيقة الواقعية المؤلمة

حقيقة أن انقلاب المعايير وتحول الحق إلىٰ باطل والباطل إلىٰ حق

لا بد أن يؤدي لهذه النتيجة

لا بد أن يؤدي إلىٰ إخراج آل لوط من القرية

ومن كل قرية

(يُخَوَّن فيها الأمين ويُؤتَمَن فيها الخائن ويُكَذَّب فيها الصادق ويُصَدَّق فيها الكاذب وينطق الرويبضة)

بهذه الكلمات الجامعة وصف رسول الله ﷺ تلك الحالة التي تنقلب فيها المعايير وتتصدع القيم وتنهار المبادىٰء وتستحق تلك السنوات ذلك اللقب الذي أطلقه عليها النبي

لقب السنوات الخداعات

وهكذا نرىٰ مصداق كلماته يوميًّا ونشهد حقيقتها صارخة جلية من حولنا وتنضح بها التجارب الإنسانية السابقة واللاحقة ترفع ذلك المبدأ المعكوس والمنكوس

مبدأ أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون

والحقيقة التي ينبغي أن ندركها أن بداية انهيار أي تجمع بشري تكون بتصدع القيم التي قام عليها ذلك التجمع

لكن الأمر لا يحدث بغتة ولا تنقلب تلك المعايير بين عشية وضحاها

الأمر يستغرق وقتًا بلا شك

والانهيار يسبقه تصدعات وتشققات في جدر تلك القيم والمبادئ

ثم تتسع تلك الشقوق تدريجيًّا حتىٰ تصير النفوس القابعة خلفها عرضة لكل عوامل الإضرار بها والتأثير عليها

ثم ينكس الجدار وينهار بناء القيم بعد حين

إن الطريق من كون الخطأ خطئًا إلىٰ كونه أمرًا طبيعيًّا أو عاديًّا بل وربما مستحبًا ليس طريقًا قصيرًا أو سريعًا لكنه يمر بدروب التوارث ومسالك التطبيع التدريجي مع ذلك الخطأ

ولقد ظهر ذلك جليًّا في آية من سورة الأعراف حيث سبق وصف القوم للفاحشة بأنها أمر من الله قولهم ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾

لقد حدث التطبيع التدريجي مع الخطأ وتمت شرعنته وتسويغه بل وتزيينه

ربما تطلب الأمر عقودًا طويلة وأجيالًا تلو أجيال حتىٰ صار الخطأ في النهاية دينا يتدين به هؤلاء لدرجة أن قالوا عن الفاحشة بلا استحياء: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾

..

هنا كان لا بد من البيان القاطع: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

إن التطبيع والتصالح مع الخطأ وتوارثه الأعمىٰ قد يؤدي في النهاية لتلك المصيبة

أن تتحول الفاحشة إلىٰ طاعة وأصل وأن تنطمس حقيقة كونها في النهاية فاحشة

أشياء كثيرة نتعامل معها اليوم بشكل عادي وطبيعي كانت بالأمس أمورًا مستقبحة مستنكرة

قيم وأخلاق كانت طبيعية وغير متكلفة صارت اليوم نادرة وشاذة وصار ينظر للداعين إليها باستهجان ودهشة ويكأنهم يغردون خارج السرب أو يؤذنون في مالطة

أمور كان بعضنا لا يتخيل -مجرد تخيل- أن يشهدها صار اليوم يقترفها أو يشهد اقترافها بكل أريحية بل وينكر علىٰ من لم يزل علىٰ عهده الأول ومبادئه القديمة

أناس كانوا علىٰ حال ثم صاروا إلىٰ نقيضه فلا تدري حقًّا هل يعرفون تلك الوجوه التي يطالعونها في مراياهم أم تراهم ينكرونها وتنكرهم

ثم ماذا بعد؟!

ماذا يبقىٰ لنا بعد أن تذهب قيمنا ومبادئنا؟!

وإلىٰ ماذا سيؤول حالنا وقد تصدعت أصولنا وبدأت الشقوق تتسع؟!

ترىٰ هل سننتبه إلىٰ تصدعها مبكرا أم سنتركها تنخر في جدر مبادئنا وأصولنا حتىٰ تنكسها وتقلبها رأسا علىٰ عقب ويصير الشعار بصورة أو بأخرىٰ في النهاية هو أخرجوهم من قريتكم

إنهم أناس يتطهرون

❁ ❁ ❁

﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾

تلك حقيقة لا تغفل عنها أبدًا

هم يمكرون

ومكرهم شديد تكاد الجبال أن تزول من جرائه

لكن مهما بلغ مكرهم وتعاظم في نظرك فلا تنس بقية الآية

﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

وراء مكر يمكرونه وكل كيد يكيدونه مكر من الله بهم

وشتان الفارق بين المكرين فليس كمثله شيء

فانظر

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

فانظر

وانتظر

***

والعبد المسدد هو من يرىٰ الاختبار في كل ما يحدث حوله سراء كانت أو ضراء

هكذا كان سليمان عليه السلام وهكذا بين أن معنىٰ الابتلاء معنىٰ شامل جامع وليس كما يظن البعض أنه مقتصر علىٰ البأساء والضراء وحسب

هكذا نظر إلىٰ قوته ومدىٰ القدرة التي وصل إليها جنوده والتي أهلتهم للإتيان بعرش سبأ قبل أن يرتد إليه طرفه

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾

تأمل كل كلمة في عبارته الجامعة

هذا من فضل ربي

اعتراف بالفضل وعدم نسبه للنفس أو الأسباب المادية رغم توفرها

لم يقل أوتيته علىٰ علم ولم يقل هي قوتي وتقدم دولتي ولم يقل هي قدرات الجن الذي يأتمرون بأمري

بل هو فضل ربي

وهذا الفضل يحمل مع كرمه بلاء

والبلاء هنا هو الاختبار والإجابة النموذجية هي الشكر

ليبلوني أأشكر

أم أكفر

والكفر هنا هو كفر النعمة وجحد الفضل وتلك هي الإجابة الخاطئة التي يرسب صاحبها في ذلك الامتحان

امتحان السراء

لكن البداية في أن يعرف حقيقته

حقيقة البلاء والامتحان وأن ينظر إليه نظرة مسددة واعية وحينئذ حري به أن يشكر

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾

❁ ❁ ❁

أحطت بما لم تحط به

هاهنا خطاب من الأدنىٰ وهو الهدهد إلىٰ الأعلىٰ قدرًا والأسمىٰ مكانًا والأكثر علمًا وهو سليمان عليه السلام!!

إن آصار التكلف وقيود العنت التي حالت بين عقول وقلوب كثير من

الناس وبين إظهار تلك الحقيقة بوضوح وثبات لا ينافي الاحترام ولا ينقص من قاعدة إنزال الخلق منازلهم لم تمنع الهدهد من أن يستعلن بهذا الخطاب الصريح الثابت مبينًا تلك الحقيقة الناصعة

حقيقة أن الأدنىٰ قد يحيط علمًا بما لم يحط به من هو أعلىٰ منه مقامًا وأكثر علمًا

حقيقة تحتم علىٰ الأعلىٰ مقامًا حينئذ أن يتواضع ويستمع بل ويضع ما عنده بعين الاعتبار كما فعل سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

بل ويتحرك بناء علىٰ تلك الحقيقة

تلك الحقيقة التي جعلت موسىٰ عليه السلام لا يستنكف ولا يجد حرجًا أن يقطع المسافات ويجوب الفيافي وهو النبي المكلم والرسول صاحب العزم الذي لم يثنه مقامه ولم تعطله مكانته عن التواضع والاستماع والتعلم ممن اطلع علىٰ علم لم يبلغه وأحاط بحقائق لم يدركها وهو الخضر عليه السلام

حقيقة أنه لا مجاملة في العلم والمعرفة ولا محاباة في الفهم وأنهما ليسا حكرًا علىٰ أحد

❁ ❁ ❁

وخطاب الهدهد ومشاعره الإيمانية تجسد ما ينبغي أن يكون عليه قلب المؤمن الذي عامل الله وعرفه وأحبه فغضب له وغار علىٰ حرماته وأراد الهداية لخلقه

ليس بشريًّا .. نعم

ولكنه ليس جاهلًا ولا غافل

بل إن وعيه وفهمم وإدراكه علا عن كثير ممن يستعلون بعقولهم وأفهامهم

لم تبهره كثيرًا زخارف ملك سبأ ولم يلتفت طويلًا لأسبابها العظيمة ولا عرشها المزين

فقط أشار إليه إشارة عابرة

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾

ثم التفت طويلًا لما أهمه ولما يشغل قلب وفكر العارف

التفت للدين

للتوحيد

لمعرفة الله

عن ذلك تكلم وفي ذلك فصل وبين

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾

ولقد غضب وغار

ومستنكرًا تساءل واستفهم

﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾

كيف لا يسجدون له

كيف يستبدلون عبادة الشمس بعبادته

كيف لا يعرفونه

إنه ربي

﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

يخرج رزقي ورزقكم حتىٰ وإن كان مخبوءا تحت الثرىٰ

ويهديني ويهديكم لإيجاده

هكذا عاملته وبذلك عرفته

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾

كذلك يتحدث العارف عن ربه

وهكذا يغضب لحرمته

وهكذا يعرف الناس به ويحرص علىٰ هدايتهم لما اهتدىٰ إليه وتعريفهم بما عرف

هكذا العارف

ولو كان هدهد . .

❁ ❁ ❁

وتأمل عزة سيدنا سليمان عليه السلام المتمثلة في غضبته الشديدة حين أرسلت له ملكة سبأ بالهدية

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾

إن سبب غضبة سليمان عليه السلام ليس الهدية في ذاتها فالهدية أمر مشروع

لكنه سياق تلك الهدية والمراد الواضح من إرسالها

وإن صاحب الرسالة لابد أن يكون لديه قدر كاف من الانتباه لمثل تلك التصرفات التي يبتغىٰ بها كسر نفسه والنيل من عزته وكرامته حين يمد يده ليأخذ فيتصور من أعطاه أنه قد صارت له عليه بذلك يد

لذا أصر سليمان علىٰ رد الهدية والتعزز عن قبولها في هذا السياق الواضح فيها ما يتلوه من تنازلات تبتغىٰ بمثل ذلك

وما أعان سليمان علىٰ ذلك هو استغناؤه بالله رب العالمين واكتفاؤه الذاتي بفضل الله عليه

وهكذا ينبغي أن يكون أصحاب الرسالة

ينبغي أن يكون لديهم قدر من الاستغناء بالله وأن يكون لديهم ما يغنيهم عن السؤال المورث لانكسار الإرادة وسلوك سبيل التنازل التدريجي عما يحملونه من الحق ثم المجاملة فيه والتفريط في بيانه وإظهاره

فانتبه

❀ ❀ ❀

ومهما أحاط المُزينون بالفرعون وحُشر حوله فقهاء السلاطين السحَّارون المدلسون، وتكالب عليه المداهنون والمطبلون، الذين هم لفتات الموائد آكلون، ممن يجعلون رزقهم أنهم يُكَذِّبون ويَكذبون ولظلم المستبد هم يشرعنون فإنه يظل في نفس المستبد وميض معرفة يوقن من خلاله أن كل هذا التطبيل والتزيين والنفاق والتأويل، ما هو إلا قشرة زائفة تحيط بحقيقته القبيحة التي يدركها جيدًا ويراها في مرآة نفسه واضحة جلية

مهما جحدها في الظاهر

﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾

هذا الوميض إن لم ينتصر في نفسه ويعيد الظالم إلىٰ رشده، فإنه يظل مصدر عذاب له في الدنيا، وإن أنكر وادعىٰ السعادة والهناء، ولعذاب الآخرة أشق وأخزىٰ.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

سورة القصص

ولقد اجتمعت علىٰ موسىٰ أسباب الهلاك وهو رضيع لا يملك دفع ضر عن نفسه

موجة عالية كانت كفيلة بإغراق تابوته

ومن قبلها جنود لدىٰ الباب يريدون ذبحه

ومن بعدها وقوع بيد من أمر بذبحه وذبح كل رضيع مثله

وزد علىٰ ذلك تحريم المراضع عليه واحتمالية الهلاك جوعًا

لكن كل تلك المهلكات طاشت بوعد رباني

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾

لقد صدر الوعد وقضي الأمر

فلتجتمع الدنيا كلها علىٰ أن تضره لو أرادوا

لن يفعلوا

ولن يستطيعوا

ولقد حان وقت الوفاء بالوعد ومن أوفىٰ بعهده من الله

فرجعناك إلىٰ أمك كي تقر عينها ولا تحزن

أن يوجه الودود نواميسه ويحرك مخلوقاته ويسبغ جميل فضله ليقر عين عبده أو أمته

أن يعيد رضيعًا إلىٰ حضن أم مكلومة أو ينطق وليدًا ويفجر عينًا ويقرب رزقًا لكي يسعد ويقر عين من يحبهم ويحبونه

تتأمل ذلك فلا تملك حينئذ إلا أن تذوب شوقًا لمثل هذا المقام الكريم والمكانة الجليلة

مقام أن يحبك الودود حتىٰ يصير إقرار عينك وإسعاد نفسك مرادًا له ﷻ . .

حينئذ أبشر بنجاة ونصر

ومهما كانت التحديات

ومهما كثرت المهلكات

فهيهات هيهات

هيهات أن تضار وقد قضىٰ لك الودود بإقرار العين

❀ ❀ ❀

ولا يكفيك فقط ألا تكون مجرمًا أو ظالمًا . .

بل عليك أيضًا ألا تكون ظهيرًا أو عونًا للمجرمين . .

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾

❀ ❀ ❀

خائفًا يترقب

هكذا كان حاله حين خرج منها
لا يأمن علىٰ نفسه
مطاردًا مستهدفًا مهدور الدم
طريق طويل من مصر إلىٰ أرض مدين وصحراء قاحلة عبرها وحده
ترىٰ هل سيلحقوا به؟
هل ستمضي مؤامرتهم لقتله والخلاص منه؟
وكيف سيعيش هنا
وأين المأوىٰ ومصدر الرزق وهو الذي عاش حياته لا ينشغل بكل ذلك وقد كان في مكانة أمير في البلاط الملكي
الآن هو طريد شريد بلا مأوىٰ أو ملاذ
الأمور صارت معقدة والأسباب تكاد تكون مغلقة
ما هذا التجمع الذي يبدو من بعيد؟
أخيرا سيشرب إذن
بعد تلك الرحلة الطويلة ها هو ماء مدين يتزاحم عليه الناس
لم تزل به قوة وعنفوان رغم الرحلة الشاقة التي دامت أيامًا وليال
سيستطيع أن يرتوي ويملأ سقاءه
لكن مهلًا
ما لهاتين الفتاتين تذودان
ضعيفتان هما لا تستطيعان مزاحمة الرعاء الذين لم يرحموا ضعفهما

ما الذي يدفع بامرأتين لهذه المخاطرة وتلك المهمة القاسية

ما خطبكما

﴿لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾

إذن فهذا هو السر

الأمر اضطراري والمهمة القاسية لا مناص عنها

وإن المروءة خصلة متجذرة فيه والشهامة طبع لا يفارقه

ها هو يزاحم الرعاة الغلاظ الشداد ويتحمل تدافعهم رغم إرهاقه الشديد بعد عناء السفر

لم تمض دقائق إلا وقد عاد بسقاء الفتاتين ممتلئًا عن آخره

انصرفت المرأة وأختها في حياء ممتن

الآن قد اجتمعت كل عوامل الإرهاق والنصب البدني جنبًا إلىٰ جنبٍ مع هموم الإغلاقات التي تتكالب عليه

إغلاقات لم تتسرب إلىٰ قلبه المترع بأمل في الله

ها هو يتولىٰ إلىٰ الظل في تسليم وافتقار وعلىٰ لسانه مناجاة لا يملك غيرها في تلك الظروف القاسية

رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير

إلىٰ غناك هو مفتقر

وإلىٰ قوتك هو ضعيف

وإلىٰ فضل جودك وسعة رحمتك هو راغب مضطر

فهل تراك تخيب ظنه؟!

حاشاك حاشاك أن ترد سائلًا مفتقرًا

ها قد جاء الفرج وهلَّ الخير علىٰ قدم الواردين

ها قد جاء الفتح من عند خير الفاتحين

فتح لكل المغاليق السابقة

فتح في الأمن وفتح في الرزق وفتح في المأوىٰ والسكن والمودة والرحمة

فتح تحدوه خطوات حيية جاءت تحمل البشرىٰ

﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ﴾

فتح لمغلاق الرزق الآني هو إذن ذلك الذي تبشر به تلك الفتاة الحيية

﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

فتح لمغلاق الأمن يتبدىٰ من كلمات الرجل الصالح والد الفتاتين وقد سمع منه القصص وأدرك ما ألم به من الظلم فأمنه وطمأنه

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾

لن تعود وحيدًا يا موسىٰ فقد جاء فتح المودة والرحمة والسكنىٰ لزوج حيية أكرمك الله بها وفتح لك

﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾

عقد هو إذًا

وظيفة مستقرة وعمل ثابت لسنوات تحددها أنت يا موسىٰ

أي فتح هذا وأي فضل

منذ ساعات كنت خائفًا تترقب تأوي إلىٰ الظل مفتقرًا

الآن قد أجرت وزوجت ووظفت وأمنت ونجوت

وفتح لك

لأنه الفتاح

الفتاح الذي يفتح مهما بلغت المغاليق ويفرج مهما ضاقت واستحكمت حلقاتها

يفتح حتىٰ لو ظن كل الخلق أنه لا يفتح أبدًا

حتىٰ لو بلغ الاستيئاس مبلغه وظن الرسل أنهم قد كذبوا وتقطعت بهم الأسباب فإنه يفتح

إنها الصفة التي تتجلىٰ في تلك النهايات السعيدة

نعم

مع الفتاح النهاية سعيدة في الدنيا أو في الآخرة

كربات وأحزان وتضييقات وإغلاقات ثم يأتي الفتح من خير الفاتحين فتزول جميعًا بإذنه ومنه

المهم أن يعاملك بالفتح

فإذا فتح كان فتحه مبينًا عظيمًا

فاللهم فتحك ونصرك ونورك وبركتك وهداك

❁ ❁ ❁

وإن مآل إرادة الطغاة إلىٰ نقيض قصدهم ونهاية مطامع المستبدين هي ضد هدفهم وعكس مطلبهم ولو بعد حين

وإن ممتطي الباطل ومنتعلي البغي وراكبي الظلم ظنًّا منهم أن تلك هي الوسائل الموصلة لعلوهم المبتغىٰ سيفاجأون أن السحر ينقلب علىٰ الساحر وأن يومًا سيأتي يقع فيه بهم ما كانوا يحذرون ومن جنس ما كانوا يحذرون

ولقد وعد الرحمن عباده الذين استضعفوا أن مآل بطش فرعون بهم وعاقبة ظلمه لهم ستكون أيضًا وقوع ما يحذر

وبشرهم بأن الطاغية مدعي الألوهية سيرىٰ ما كان يتقيه ويهرب منه من خلال هذا البطش والقمع

سيراه منهم

ممن كان يحذرهم ويقتل أبناءهم خوفًا من تلك اللحظة

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾

تدبر الكلمة مرة أخرىٰ

منهم ..

وعلىٰ أيديهم

وستشفىٰ صدور المظلومين

ويقع ما كان يحذر

هكذا طرقت الكلمة مسامع ملك الأخدود بعد أن قتل الغلام ليكتم صوت الحق المنبعث من بين شفتيه الصادعتين

فكانت دماء الشهيد نورًا يضيء للناس درب يقينهم برب الغلام وصاحوا: آمنا برب الغلام

هنا قالها رجل من بطانته مُقرًّا بذلك المآل الحتمي: أرأَيْتَ ما كُنْتَ

تحذَرُ قد واللهِ نزَل بكَ حَذَرُكَ

أجزَعتَ أن خالفَكَ ثلاثةٌ، فَهَذا العالمُ كلُّهم قد خالفوك

قد آمَن النَّاسُ . .

لقد قتله ليمنع إيمانهم فكان ذلك طريقا لإيمانهم ووقع ما كان يحذر وبما كان يحذر

وكذا كل من طغىٰ وتجبر

سيرىٰ ما كان يحذر

وسيلاقي ما كان منه يهرب

وسيبور ما كان له يمكر

وسيعامل بنقيض قصده

ولو بعد حين

* * *

ثم تولىٰ إلىٰ الظل . .

لم يمن بعمله

لم يباهي به الخلائق

لم يتكبر ولم يعجب بعمله أو يغتر

فقط . . . تولىٰ إلىٰ الظل متواضعًا

وآب إلىٰ ربه مفتقرًا

ركن إلىٰ مولاه مخبتًا منكسرًا

وقال: رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير

فقير إلىٰ فضل جودك

محتاج إلىٰ واسع كرمك

مضطر إلىٰ عونك

راغب في فتحك

هكذا فكن مع ربك وكذلك فانظر لحالك وعملك.

واعلم أن من كان عمله لله خالصًا زاده العمل رغبةً وقربًا وافتقارًا وتواضعًا

ومن اختلط عمله ولم يخلص لم يزده إلا غرورًا وعجبًا وتيهًا واستعلاء علىٰ الناس

❁ ❁ ❁

ولقد صرح موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن علة مطلبه بإشراك أخيه هارون في أمره وإرساله معه ردًّا أنه أفصح منه لسانًا

وبخلاف تواضع موسىٰ وتجرده المبهر فإن في هذا المشهد إشارات وضيئة اعتقد أن من أهمها حرص موسىٰ علىٰ تمام الأمر وتفانيه وصدق رغبته في بلوغ الرسالة إلىٰ القلوب والعقول والأفهام به أو بغيره

من هنا آثر أن يتقدم الأكفأ في هذا المجال والأقدر علىٰ البيان والتبليغ بجميل اللفظ وجلي المعنىٰ وراسخ المبنىٰ

لذا قالها بتجرده الرائع: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾

ومن الإشارات الهامة أيضًا قيمة الفصاحة وحسن البيان وأهمية ذلك في شأن الدعوة والبلاغ عن الله فلا ينبغي لأحد التقليل من تلك القيمة ولا التهوين من شأنها بل ينبغي تطويرها والحرص علىٰ أدواتها ومناسبتها لحال المخاطب وقدرتها علىٰ تحريك قلبه وبلوغ عقله بما يواكب المكان والزمان: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾

❀ ❀ ❀

ولقد أثبتت صفة هداية الغير للنبي ﷺ في موضع ونفيت عنه في موضع آخر

أثبتت في قول الله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

ونفيت في سورة القصص: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾

ولا يوجد تعارض بين الأمرين ذلك لأن الهداية هدايتان

هداية إرشاد وتوجيه ودلالة إلىٰ الخير وصراط الله المستقيم وتلك هي المثبتة للنبي وإخوانه الأنبياء ثم من سار علىٰ نهجهم وتلك التي رفضها أهل الباطل دومًا وقالوا: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾

وهناك هداية شرح الصدر للحق وقبول تلك الدلالات وتلك التي لا يملكها مخلوق ولا يطلع علىٰ وجود استحقاقها في نفس المدعو إلا الله الهادي سبحانه وتلك التي ينبغي للعبد أن يفتقر ويضرع لربه داعيًا أن يرزقه إياها

❀ ❀ ❀

وللطغاة وسائل ثابتة من خلالها يسيطرون علىٰ شعوبهم ويرسخون علوهم وإن فرعون كنمط واضح نموذجي للشخصية المستبدة الطاغية يعد مثالًا واضحًا لاستعمال تلك الوسائل

سورة القصص في آية منها تبين جوانب مهمة من مناهج الطغاة في السيطرة علىٰ شعوبهم وتثبيت عروش علوهم في الأرض

وذلك من خلال عرض لمنهج فرعون في ذلك

وهو منهج قائم علىٰ:

١- التفريق وبث الانقسام.

٢- استضعاف طائفة منهم وليس كلهم.

٣- القتل والإذلال.

٤- الإفساد في الأرض.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

ففرعون لم يكن ليعلو في الأرض من دون تلك الخطوات التي تبدأ بقاعدة فرق تسد

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾

أحزابًا متناحرةً وفرقًا منقسمةً يبغض بعضها بعضًا وينشغل بعضها ببعض

ومن خلال التفرق والتشرذم والتنازع الذي هو أو طريق الفشل يخلو الجو للطاغية ويضمن استمرار كونه الأقوىٰ بين تلك الشيع المتحاربة التي يضعف بعضها بعضًا

لذلك فهو حريص علىٰ استمرار الانقسام وترسيخ الكراهية المتبادلة بين أبناء الشعب والتي تجعل أولويات العداوة والبغضاء بينهم وبين بعضهم وليس بينهم وبين من يذلهم ويبطش بهم جميعًا

وهو يحرص علىٰ استضعاف بعض الطوائف التي تشكل خطورة علىٰ استبداده وترفض طغيانه أو حتىٰ يمكنها أن ترفضه مستقبلًا

لكنه لا يستضعف الجميع بل البعض وليس الكل

﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةً مِّنۡهُمۡ﴾

وفي ذلك فوائد حيث يزيد ذلك التفريق في المعاملة من ترسيخ كراهية المستضعفين المظلومين للآخرين الذين لم يستضعفوا وأيضًا يزيد من حرص الذين لم يستضعفوا علىٰ مزيد من التملق والنفاق أو الانبطاح والسكوت عن ظلم الطاغية حتىٰ لا تزول عنهم امتيازاتهم ويضمهم الطاغية إلىٰ قوافل المستضعفين

والاستضعاف له أشكال مختلفة ويحرص المستبد علىٰ ترسيخ قاعدة من الخوف لا سقف لها ف﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾

إنه بذلك يرسل رسالة ضمنية أنه قادر علىٰ الأسوأ وأنه حتىٰ الأطفال والنساء لم ينجوا من قبضته الباطشة وتنكيله البغيض فما بالك بغيرهم

ثم يأتي الإفساد في الأرض ومن أهم أهدافه الإلهاء وبث روح الغفلة بين الشعوب لكن تنسىٰ ما تلاقيه من الآلام والظلم عن طريق الإغراق في الشهوات والملذات وتيسير الملهيات والمفسدات التي تنشئ جيلًا ضعيفًا غافلًا لا يعني إلا بشهواته ولا يعرف شيئًا عن قضايا أمته

لكن كل ذلك يطيش بكلمة واحدة

ونريد . .

إرادة الله فوق إرادة المستبد وكل مستبد

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾

وهذه المنة لها خطوات أيضًا أولها الإمامة

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾

أن يوجد في الأمة الأئمة والقادة والقادرين علىٰ رفض الظلم والإصلاح في الأرض

من هنا تأتي الوراثة

﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾

ثم التمكين وإهلاك الظالمين

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾

لكن كل ذلك يبدأ بإرادة المن وهي مرتبطة بوجود الاستحقاق

أما عن الوسيلة فلا تدري

لعلها بأهون الأسباب

ربما بمشهد رضيع لا حول له ولا قوة

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾

وفي هذا المشهد تكون البداية

بداية المن

والفتح

❁ ❁ ❁

ومن كمال شكر الله علىٰ نعمه ومن تمام التوبة علىٰ التقصير أن يعزم المرء علىٰ التغيير للأفضل

وأن يتقرب إلىٰ مولاه بنية صالحة وهمة عالية وعزم جديد فيقرر أن يتبع تلك التوبة ويجمل ذلك الشكر بمعالي الأمور وعظائم الطاعات

ولنا في نبي الله موسىٰ ﵇ أسوة طيبة إذ قال بعد استغفاره وتضرعه بالتوبة من قتل المصري: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فأتبع استغفاره وتوبته وعدًا طيبًا وقطع علىٰ نفسه عهدًا راقيًا

﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾

(لن يكون عونا للظالمين)

(ولن يركن للمفسدين)

وذلك من تمام شكر الله ومن أصول التوبة والأوبة

ألا يستعمل المرء نعم الله عليه في نصرة الباطل وأهله وألا يكون لهم ظهيرًا ومعينًا

فتأمل

❁ ❁ ❁

وإن من أعظم الفوارق بين العبد الشكور والعبد الكفور هو إحساس القلب بنعمة الله واعترافه بها

فالشكر ليس فقط كلمات يتمتم بها اللسان دون ان يدرك لها معنىٰ أو يستشعر لها أثرًا

الشكر حالة وشعور يملأ كيان العبد ويسيطر علىٰ وجدانه ويخفق به قلبه وتتسامىٰ به نفسه وتهفو به روحه

والاعتراف بالفضل هو أول درجات تلك الحالة النورانية

ولذلك تجد أخطر ما وقع فيه قارون كنموذج لعبد كفور جاحد هو رفض هذا الاعتراف وإنكار ذلك الفضل الذي تجلىٰ في قوله ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾

وشتان الفارق بينه وبن عبدآخر شكور كيوسف عليه السلام حين شكر في موضع ابتلاء وهو خلف جدران السجن إذ يقول: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾

لقد نظر يوسف دومًا للنعمة حتىٰ في خضم النقمة ونسب الفضل لصاحبه حتىٰ آخر لحظة وبعد موجات الابتلاء المتوالية تجده لا يقول مثلًا : وقد ابتلانىٰ -ولو قال لما جاوز ما حدث- لكنك لا تجده إلا معترفًا بالفضل لله لا يرىٰ فضلًا لسواه قائلًا : ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾

وكذلك فعل سليمان عليه السلام حين عاين النعم فقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ﴾

وإبراهيم عليه السلام تجده في عين البلاء وهو يترك امرأته ومعها فلذة كبده في صحراء قاحلة امتثالًا لأمر مولاه وإذ به لا يترك الحمد ولا ينسىٰ النعم قائلًا في هذا المقام الصعب -مقام مفارقة الأهل والولد- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ

لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ﴾

وكيف لا تخرج من مثله تلك الكلمات وهو القائل من قبل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾

ولمثل هذه المشاعر والمعانىٰ كان الحبيب ﷺ يقول معترفًا بالفضل في كل صباح ومساء: (اللهم ما أصبح بىٰ من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر)

هؤلاء جميعًا لم يتكلفوا تلك الكلمات وإنما خرجت من قلوب لم تر للنفس فضلًا ولم تشهد إلا فضل الله ونعماءه

كم نحن بحاجة لشهود نعمة الله بقلوبنا ونسبة الفضل إليه وحده وهجران ذاك الخلق القارونىٰ الذميم الذي تسرب لنفوس البعض دون أن يشعروا

خلق ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ﴾

كم نحن بحاجة لأن نحيا بقول الله جل وعلا: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾

❀ ❀ ❀

﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ﴾

ماذا تقول يا رجل؟

ويحك، ويلك

تمهل، توعظ،

انسب الفضل لربك،

أنت كلك نفحة من نفحات عطاء وفضل ربك،

وإلا فمن علمك؟

ومن وهبك عقلًا تتعلم به؟

ومن خلق ذلك العلم أصلًا؟

أوليس الله رب العالمين؟!

ألا تعلم أن الفضل كله بيده يؤتيه من يشاء؟

أولم تتدبر ما حل بمن هم أقوىٰ منه وأغنىٰ وأكثر؛

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ﴾

لكنه الإجرام إذا بلغ بالعبد درجة التعالىٰ علىٰ مولاه وخالقه، فكيف يُسأل عن باقىٰ طوامه وآثامه؟

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾

خرج قارون في زينته، واستمر في تفاخره، غير مبالٍ بوعظ الواعظين متكررًا عليه في كل طريق يسلكه متعاليًا علىٰ أهله المساكين،

خرج علىٰ قومه في زينته، لينعم بمشاهدة تمنيهم مكانه اليوم، وهو لا يعلم أنهم عما قريب سيحمدون الله أنهم ليسوا مكانه،

فلن يتمنىٰ أحد بعد اليوم مكانه،

ولن يطيق أحد ما حل به،

لقد زال وزال معه قصره وأبهته

كل شيء ضاع!

ابتلعته الأرض

الخزائن

الأموال

الحلىٰ والجواهر

الجاه والسلطان

كل شيء في لحظة زائل

خسف به!

فأين هو الآن؟

وأين كل من تكبر وعلا

إنهم هناك

تحت التراب حيث لا ينفعهم إلا العمل وابتغاء تلك الدار التي لا يجعلها الله إلا للذين لا يردون علوًّا في الأرض ولا فسادًا والعاقبة للمتقين

❁ ❁ ❁

﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

الآن قلتموها؟!

أوقد عرفتموها؟!

الآن فهمتم يا من تمنيتم مكانه بالأمس، وسال لعابكم لما رأيتم؟

أوقد أدركتم معنىٰ قول الذين أوتوا العلم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ

ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾

أين ماله؟

أين ملكه، أين عزه أين كنزه؟

هل نفعه؟!

وهل سينفعه فيما هو مقبل عليه؟

هل سينفعه في الدار التي لم يؤمن بها ولم يبتغها فيما عنده؟!

لا

أبدًا

إن فاقد الشيء لا يعطيه، والسماء لا تمطر ذهبًا ولا لبنًا

ماذا زرعت، وماذا أنت حاصد غدًا؟!

المعيار هنالك واحد، والمقياس متفرد، عادل،لا يحابي، لا يتبدل ولا يتغير، وليس له ولا لأمثاله فيه مكان

ولا لامتداد عظيم شأنه في الدنيا وجود ولا كيان

فهل تجد هناك غير ما هنا كان؟

دونك الميزان يا عبد فزن في الدنيا وقدر قبل فوات الأوان:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

سورة العنكبوت

هذه فتنة

ألا فاعتزلوها

لسان حال البعض كلما سمعوا كلمة فتنة

وما قالوا بذلك إلا لأن أذهانهم انصرفت مباشرة إلىٰ نوع معين ووحيد من الفتنة

التباس الحق والباطل واختلاطهما

وهذا بلا شك نوع من الفتنة

وهي فتنة حين تشتد يتوارىٰ معها سطوع الحق ويغيب عن البعض نوره فلا يتبينوه ومن ثم قد تجوز في حقهم العزلة حتىٰ يتبينوا الخيط الأبيض من الأسود ويبصروا مواضع أقدامهم

لكن هل هذه فقط هي الفتنة؟؟

هل هذا هو النوع الوحيد والمعنىٰ الفريد؟

الجواب: لا

ليس هذا معنىٰ الفتنة وحسب

إنما الفتنة اختبار وامتحان وابتلاء

الفتنة سراء وضراء

نعيم وضيم

أمر ونهي

شهوة وشبهة

مال وولد

الفتنة تهديد وزلزلة وبارقة سيوف طواغيت علىٰ رؤوس الثابتين

(كفىٰ ببارقة السيوف علىٰ رأسه فتنة)

قاعدة نبوية مشهورة بين بها الحبيب ﷺ السبب الذي جعل من خصال الشهيد أنه لا يفتن في قبره كسائر المؤمنين

فكفىٰ ببارقة السيوف علىٰ رأسه فتنة . .

الفتنة هنا اختبار وبلاء وامتحان وتمحيص

والشهيد قد نجح في هذا الامتحان واجتاز ذلك الاختبار فكان من حسن جزائه أن عافاه الله من امتحان القبر وفتنته

فكفىٰ ببارقة السيوف علىٰ رأسه فتنة

الفتنة صقل وتمييز

فرز و تمحيص

تربية وتوجيه

وبهذا المعنىٰ فالكل سيفتن لا محالة: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾

تأمل الكلمة: الناس

فقط إذا أعلنوا الإيمان أتىٰ الامتحان

والامتحان طويل ينتهي بنهاية فتنة المحيا ليختم بفتنة الممات

هل يعقل أن تكون إجابة كل أسئلة امتحان الفتنة تتلخص في أمر واحد فكلما واجه المرء سؤالا ألقاه في ورقة الإجابة قائلًا: هذه فتنة ينبغي اعتزالها

ولو كان ذلك هو الحل دائمًا وأبدا فأين الصادعون في كل زمان

أين من حفظ الله بهم الحق ومكن بهم للملة وسالت في سبيل ذلك دماؤهم وهشمت عظامهم

هل كانت إجابتهم دوما نعتزل لأنها فتنة؟!

نعم إنها فتنة

لكن أي فتنة

وهل كل مزاعم وجود الفتن معتبرة أم أن هناك دعاوىٰ ترد علىٰ أصحابها كما في سورة التوبة لما قال بعضهم: ﴿ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾، قال الله: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾

إنه اختبار وقد رسبوا فيه وسقطوا

هو امتحان فهل إجابته الدائمة هي الاعتزال؟

أم أنها إجابة سؤال واحد فقط في ورقة الامتحان الطويل بطول الحياة الدنيا

سؤال الالتباس وعدم وضوح الفارق الحق والباطل

في الحقيقة هي إجابة ذلك السؤال الأخير وحسب

بينما تأتي إجابات باقي أسئلة امتحان الفتنة مختلفة

فالامتثال للأمر والانتهاء عن النهي إجابة

والشكر علىٰ النعماء والصبر علىٰ البأساء والضراء إجابة

والثبات علىٰ الحق إجابة

والصدع به إجابة

والظهور عليه ونصرته إجابة

والتضحية والبذل في سبيل إحقاقه إجابة

وأي إجابة!!

وإجابات أخرىٰ كثيرة تظهر من خلالها نتيجة الامتحان لتعلن في ملأ كريم حين يعلمها رب العالمين علما تقوم به الحجة علىٰ الأولين والآخرين ..

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

❁ ❁ ❁

هؤلاء تحصنوا بمالهم

وأولئك تقووا بعلاقاتهم

وآخرون ظنوا أنهم مانعتهم حصونهم

ومنهم من احتموا بمناصبهم

ومنهم من لجأوا إلىٰ نسبهم وحسبهم

ومنهم من استعانوا بأوليائهم وظهيرهم

ولقد اطمأنوا بما وبمن توكلوا عليهم وظنوا أنهم قد آووا إلىٰ ركن شديد

وحصن حصين حتىٰ جاءت اللحظة وأتىٰ البأس فإذا بتلك الجدر تتهاوىٰ والأسوار تنهار والحصون تخر بهم ليفاجأوا أنها لم تكن كما تصوروا

لم تكن إلا خيوطًا واهية يقوم عليها بيت واهن

بيت عنكبوت

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾

❁ ❁ ❁

وماذا بعد أن ألقي الخليل في النار؟!

وماذا بعد أن بلغوا منه ذاك المبلغ ووصلوا إلىٰ تلك المرحلة - التحريق؟!

وماذا بعد هذا البطش العظيم والبلاء المبين والأذىٰ المستحكم؟!

هل سكت الخليل؟

هل توارىٰ بدعوته وتوقف عن الصدع برسالته؟

هل أحبطه إيذاء أعدائه فيأس من بلاغ عقيدته؟

هل داهن في الحق الذي يحمله أو تنازل عن الصواب الذي يدين به؟

هل ذلَّ أو كلَّ أو ملَّ؟

تأتيك الإجابة في سورة العنكبوت في الآية التالية مباشرة لآية التحريق والإيذاء:

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ

ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضًا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

هكذا كان قوله:

مباشرة بعد خبر إيذائه

وهكذا أصحاب الرسالات الحريصون علىٰ البلاغ في كل حال وتحت أي ظرف وفي كل زمان ومكان

❁ ❁ ❁

ورغم أن القاعدة المطردة أن الوازرة لا توزر وزر الأخرىٰ وأن كل نفس مرتهنة بكسبها فقط فلا تحاسب إلا علىٰ ما اقترفت ولا تعاقب إلا بذنوبها فإن لتلك القاعدة استثناء

﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾

هؤلاء لن يحاسبوا علىٰ ذنوبهم فقط ولكن ستضاف إليها أثقالًا أخرىٰ ربما لم يعرفوا شيئًا عن تفاصيلها لكنها في موازينهم دون أن تنقص موازين الخطاة الأصليين كما كانوا يعدون المؤمنين

﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾

سيحملون خطايا من انخدع بدعواهم وصدق زعمهم دوت أن ينقصوا منه شيئًا فيا لجرأتهم وياالاستهانتهم بذلك المرتقىٰ الصعب الذي قرروا ارتقاءه

﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

❁ ❁ ❁

وتعرض لنا سورة العنكبوت تفصيلًا دقيقًا لنمط مشاهد ومألوف ونراه بشكل مطرد في حياتنا

إنه نمط الجبان الجشع

قد تأتي كل صفة منهما منفردة في بعض الشخصيات لكن النموذج الذي تعرضه العنكبوت يلخص مدىٰ دناءة اجتماع الصفتين معًا

إنهم قوم يزعمون الإيمان ويتلبسون بزيه ويتسننون بسمته

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾

لكنه إيمان مشروط بالأمن والأمان والسلامة الكاملىٰ وهو اتباع مؤقت وادعاء لا يلبث إلا وينكشف عند أول محك من محكات الأذىٰ في سبيل ما يؤمن به

﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾

إنه لا يطيق الأذىٰ العاجل ويرسب في ابتلاء فتنة الضراء وينسىٰ أن تنازله عن الحق الذي عرفه سيورث عذابًا من نوع آخر لا يمكن مقارنته أبدًا بما جبن عن مواجهته عاجلًا ولم يستطع الصبر عليه

المشكلة أنه لا يكتفي بجبنه ولا يتوارىٰ بخذلانه وضعفه بل سرعان ما يزاحم الصابرين عندما يتبدىٰ المغنم ويأتي النصر فيحرك مكامن الطمع في نفسه ويوقد نيران الجشع في قلبه

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾

معكم!!

ألم يكن مختفيًا حال المغرم لم يسمع له أحد صوتًا ولم يرع الحق الذي كان يحمله؟!

بلىٰ

لكنه الطمع حين يلتقي بالجبن فيورثا مزيجًا قميئًا من الخسة التي ربما لا تظهر للعامة لكن ..

﴿أَوَ لَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾

سورة الروم

ولقد افتتحت سورة الروم بالوعد الرباني وتأصيل عقيدة أن الله لا يخلف وعده وختم أيضًا بترسيخ تحقق وعد الله

لكن الختام اشتمل علىٰ أمور ينبغي أن تقترن بتصديق الوعد

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾

الصبر والتصديق وعدم الانسياق وراء خفة غير الموقنين

تلك هي أهم الآداب مع وعود الله

التصديق أنه حق هو الأصل

لكنه قد يتأخر

فيأتي الصبر والمصابرة

إلا أن هناك من يتعجل ومن لا يوقن إلا بما يلمس ويرىٰ فيضغط ويستخف الموقنين ليشغب علىٰ صبرهم

فيأتي التوجيه القرآني محذرًا من خفة هؤلاء ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾

فتلك حقيقة خفتهم

أنهم لا يوقنون

أما من يجيدون التعامل مع الوعد الرباني فهم صابرون مصدقون مستيقنون سواء رأوا

أو لم يروا

❁ ❁ ❁

تعالت الصيحات في شعاب مكة وطرقاتها الضيقة: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ﴾

- من هذا؟!

- الصوت ليس غريبًا

- لماذا يصيح ابن أبي قحافة بهذا الشكل؟

- وكيف علم أن الروم قد غُلبت؟

- إن بيننا وبين الفرس والروم ومعاركهم مئات الأميال!

- وكيف علم أنهم سيغلبون من جديد بعد بضع سنين؟

- لا بد أنها تلك الكلمات التي يرددها صاحبه علىٰ مسامعه صباحًا ومساءً

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾

استمرت الصيحات تجلجل بثقة في أرجاء مكة

كرر الصديق أبو بكر -رضي الله تعالىٰ عنه- صيحاته المستبشرة بالآية الكريمة في طرقات مكة والملأ من المشركين يضربون كفًّا بكفٍّ

كانت فارس يوم نزلت هذِه الآيةُ قاهرينَ للرومِ وكانت قريشٌ تحبُّ ظُهورَ فارسَ لأنَّهم وإيَّاهم قوم وثنيون ليسوا بأَهلِ كتابٍ ولا إيمانٍ ببعث ولا نشور لذا فقد وقفوا لأبي بكر مشككين يقولون: فذلِكَ بينَنا وبينَكُم زعمَ صاحبُكَ أنَّ الرُّومَ ستَغلِبُ فارسَ في بضعِ سنينَ

أفَلا نراهنُكَ علىٰ ذلكَ؟

قال بيقين المؤمن المصدق بموعود الله الذي لا يهزه تشكيك ولا يزعزعه مراء أو تسفيه: بلىٰ.

قبل الصديق رهانهم وكان ذلك قبل تحريمِ الرِّهانِ

فارتَهنَ أبو بكرٍ والمشرِكونَ وتواضَعوا قيمة الرِّهانَ لكنهم طلبوا منه تحديدًا قاطعًا يجزم فيه بالعام التذي تنتصر فيه الروم علىٰ عدوها

وهنا كانت الزلة

ولا معصوم إلا نبي

لقد كان الوعد الرباني في الآية علىٰ التراخي ولم يك علىٰ التعيين والتحديد لكن أبا بكر رضي الله عنه سمَّىٰ أجلًا وحدد موعدًا وما كان له أن يفعل لكن يقدر الله أن يزل تلك الزلة وليتعلم المسلمون درسًا ما أعظمه

لقد حدد البضع هنا بست سنين وراهنهم الصديق علىٰ ذلك

ومضت الأعوام وحدثت المتغيرات ووقعت الوقائع ثم جاء أجل الرهان

ولم تنتصر الروم

ليس بعد

رغم مضي الأعوام الستة كما وعد أبو بكر لم ينتصروا بعد

تهلل المشركون وظنوا أن قد أثبتوا خللًا في وعد الله فأخذوا رَهنَ أبي بكرٍ فرحين بباطلهم مستبشرين بتكذيبهم ودخل علىٰ الصديق يومئذ غم عظيم

لكن اليقين بموعود الله أبدًا لم يهتز

إن الذي زل هو الصديق وهو بشر يخطئ ويصيب علىٰ مكانته وقدره ولعله تسرع لشدة يقينه وتصديقه

لكن المسلمين -كما في رواية الأثر عند الترمذي بسند صحيح- قد عابوا عليه تحديده

فما هكذا تعامل الوعود الربانية والبشريات النبوية

خصوصا تلك التي بغير تعيين وتحديد وقد جاءت علىٰ التراخي

صحيح أنه ما دخَلَتِ السَّنَةُ السابعَةُ إلا وقد ظهرَتِ الرُّومُ علىٰ فارِسَ وتحقق موعود الله وآمن خلق كثير بعد تلك الآية والنبوءة القرآنية المتحققة

لكن ما يعنينا هنا أن أبا بكر كان قد وعىٰ الدرس

تمر الأعوام ويأتي موقف الحديبية ويعلن وعد نبوي آخر بالاعتمار ويستبشر المسلمون وتتهلل أساريرهم

ها قد حان الوقت لنرىٰ بيت الله الحرام وكعبته المشرفة من جديد

ها قد آن الأوان لنلبي النداء ونهل محرمين مكبرين مهللين ولنطوف بالبيت العتيق

فلنسق الهدي ولتسابق قلوبنا لتهفو إلىٰ أم القرىٰ

لكن جاء المنع وعاند أئمة الكفر

ثم كان الصلح في الحديبية

لا عمرة إذًا هذا العام!!

(أليسَ كان يُحَدِّثُنَا أَنَّا سنَأْتِي البيتَ ونَطُوفُ به؟)

هكذا صاح الفاروق عمر في صاحبه ورفيق كفاحه الصديق

ألم يعدنا رسول الله أن نأتي البيت محرمين محلقي رؤوسنا ومقصرين

فيجيب بيقين الواثق الذي وعىٰ الدرس وفهم كيف التعامل مع الوعود والبشريات: بلىٰ، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّك تَأْتِيه العامَ؟

- لا.

أجاب عمر نافيًا التحديد.

هنا صدع بها أبو بكر بحسم لا يساوره الخلل ولا يأتيه الملل ولا الزلل: (فإنك آتِيه ومُطَوِّفٌ به)

وهكذا يعامل الوعد.

تصديق ويقين ولو بعد حين.

تبشير مطلق كما علمنا الله وعلمنا رسوله ﷺ

وإن الاستثناء لهو التحديد بزمان أو لشخص معين وهذا لا يكون إلا بوحي

لكن إياك أن تجزم بتحديد ما لم يحدده الله جل وعلا وإياك أن تتألىٰ علىٰ غيب أو تضيق واسعًا أو تقطع بما لا تعلم

❁ ❁ ❁

وهؤلاء الذين خطفت أبصارهم أضواء المادة وأبهر نفوسهم بريقها وما لفت انتباههم إلا وهجها الساطع حتىٰ لم يدع مجالًا لشيء آخر يرونه إلىٰ جوار تلك الأضواء المادية، يحتاجون إلي تذكرة عاجلة تربت معانيها علىٰ أكتافهم منبهة إياهم أن أفيقوا وأدركوا موازينكم التي مالت وطفت أو كادت دون أن تلحظوا بسبب ذلك الوهج الدنيوي الساطع الذي يكاد يعمىٰ أعينكم

ذلك التنبيه والمعاني التي تربت علىٰ أكتاف المنبهرين بأضواء الدنيا البراقة تتجلىٰ في آية محكمة مقسطة عادلة متوازنة

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾

إنه ميزان حساس تنبههم الآية إليه برفق حازم أن تأملوا معاييركم وأدركوا تقييمكم

لا تجعلوه تقييمًا دنيويًّا قحًّا ولا تشغلنكم أضواء دنياهم الباهرة عن معيار الحياة الآخرة

ميزان يضبط الحكم علىٰ الأشخاص والمجموعات من خلال التكامل بين العاجلة والآجلة، وبين الظاهر والباطن، وبين النجاح الروحي والمادي

ومن خلال هذا التكامل يستقيم النظر ويصح التقييم وينضبط الميزان

ميزان الدنيا والآخرة

❀ ❀ ❀

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾.

فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِهَا من حولك

انظر إلىٰ آثارها في الكون

انظر إلىٰ آثارها في خلقك

وانظر إلىٰ آثار الرحمة في دين الرحمة الذي ارتضاه لك

انظر إلىٰ آثارها في كل ما يحيط بك

مليارات الأمهات والآباء من كل المخلوقات يرحمون

ملايين الأطباء الشفوقين

آلاف الراحمين والمنفقين والساعين علىٰ الأرامل والمساكين

كل أولئك يذكرونك الرحمة

كل أولئك من آثار الرحمة

وتلك الآثار الهائلة للرحمة هي جزء واحد من مائة جزء

رحمة واحدة هي تلك التي نشهد كل آثارها وبها يتراحم الخلائق .

أي مظهر رحمة ينبغي أن يذكرك برحمته فكل هذا جزء يسير من تلك الرحمة الإلهية

وكما أنه ليس كمثله شيء فإن رحمته ليس كمثلها شيء ولا نستطيع أن نتخيلها أو نحيط بها علمًا

ما نملكه فقط هو أن ننظر إلىٰ آثارها ونشعر بجمالها

﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

ولقد وجه الله الأنظار في هذه الآية إلىٰ التأمل في مشهد كوني بديع ربما يمر أمام أعيننا كثيرًا دون أن نلقي له بالا أو نأبه به ذلك لأن إلف العادة وقلة التدبر قد يجعله مشهدًا تقليديًّا في نظر البعض وينزع عنه ذلك الإبهار

المفترض لمن شاهده لأول مرة

لمن شاهد أرضًا جرداء متشققة قاسية تلقىٰ إليها حبة بيضاء وتسقىٰ بسائل لا طعم له ولا لون فتهتز وتربو وينبت منها زرع مختلف ألوانه بديع منظره طيب أكله

لولا ذلك الإلف والتعود لفغرت الأفواه ولاتسعت الأعين ولخفقت القلوب إجلالًا وتعظيمًا وانبهارًا بهذا المشهد

بل وبكل مشهد يحمل في طياته شيئًا من آثار رحمة الله التي تحول القسوة إلىٰ لين والشدة إلىٰ يسر والجفاء إلىٰ خير وبر

لو أردت أن أضرب لذلك مثالًا تقريبيًّا لضربت مثلًا بسهم المعادلات الكيميائية التي يدرسها الطلبة

ذلك السهم الذي يوضع فوقه رمز المُعامل أو المحفز الذي يجعل ما علىٰ يمين السهم يتحول إلىٰ صورة مختلفة في الجهة الأخرىٰ منه

وكذلك الرحمة

لو وضعت فوق سهم التفاعل مع أي شيء في هذه الحياة القاسية الجافة لوجدنا علىٰ الجهة الأخرىٰ شيئًا آخر مختلفًا تمامًا

لوجدنا آثار تلك الرحمة

ضع معاصٍ وخطايا وقسوة قلب وآثامًا وغلظةَ طبعٍ وحدةَ خصالٍ، ثم اجعل علىٰ سهم التفاعل رحمة الله ينتج لك علىٰ جانب المعادلة الآخر توبة ومغفرة وتغيير للأفضل ودمع من خشية الله وحسن خلق ولين جانب.

ضع عذابًا ومرضًا وبلاءً وبُعدًا وضيقًا وكربًا، ثم اجعل علىٰ سهم

التفاعل رحمة الله يأتيك علىٰ الجانب الآخر فرج وشفاء ويسر وخير وبركة.

تأتيك آثار الرحمة.

إن أي مظهر من مظاهر وآثار بديع صنع الله ينبغي أن يوقظ في القلوب تلك المشاعر مشاعر الإحساس بالرحمة والفرح بها وشوق القلب لآثارها لتسبح الروح حينئذ في برزخ المحبة وتميل النفس طربًا برياح الشوق إلىٰ الرحيم جل وعلا.

❁ ❁ ❁

وفي جل مواضع ذكر الربا -إن لم تكن كلها- تجد اقترانًا بين الربا وبين النفقة في سبيل الله من زكاة أو صدقة ثم تلحظ المقابلة بين محق الربا وعدم تحقق المرجو منه وبين ازدهار الصدقة ومضاعفتها

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾

وفي ذلك الاقتران المتكرر قيمة عظيمة تغيب عن فكر كثير ممن يستعجلون ذلك الربح الحرام

إنها قيمة البركة ومحلها الحقيقي

تلك البركة التي تتناسب طرديًا مع الطاعة فتزيد بزيادة الإنفاق في سبيل الله بينما تتناسب عكسيًّا مع الربا فتمحق البركة كلما حورب الله بتلك الكبيرة

حتىٰ لو كان الظاهر زيادة المال من الربا وحتىٰ إن بلغ قدر مال قارون تظل بركته ممحوقة لأنه غنيمة حرب لكنها حرب مع الله ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فأنىٰ يبارك في مثل تلك الغنيمة

وتلك القيمة ليست في الربا والصدقة وحسب ولكنها ثابتة في كل طاعة وكل معصية

البركة هي مربط الفرس وهي المطلب الصحيح وقليل من يدرك ذلك

❁ ❁ ❁

وثمة فارق بين المودة والمحبة

فالمودة محبة خالصة مقرونة بعمل يظهرها ويجليها بحيث يتودد ذلك المحب بما يظهر محبته فيسمىٰ شخصًا ودودًا

بينما المحبة وحسب قد توجد لكن لا تظهر

قد يكون لك صديق يحبك لكنه ليس ودودا بشكل كاف يجعله يتواصل معك دوريًّا ويتلمس أحوالك

هو بالفعل يحبك لكن طبيعته أنه ليس ودودًا فلا يظهر محبته

والمودة هي اللفظ الذي اختاره الله في كتابه لأن يكون ابتداء بين الزوجين

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً﴾

أن يحرص كل منهما علىٰ إظهار المحبة قدر وسعه

لكن الأمور لن تسلم من خلافات

وقد تحتدم الأزمات لا قدر الله

هنا تأتي الكلمة التالية للمودة

الرحمة

ذلك لأنه حال الأزمات والمشاكل المحتدمة قد تغيب المشاعر أو تجنب أو حتىٰ تنعدم لكن ما لا يغيب ولا ينبغي له أبدًا أن يغيب هو الخلق الحسن

وأحسنه في ذلك المقام الرحمة

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

* * *

وفي آية خلق الأزواج في سورة الروم كلمة وحرف

في تلك الكلمة وذلك الحرف منهاج للرجل وللمرأة يدركان من خلاله طبيعة الزواج في الإسلام

أما الكلمة فللرجل

كلمة أنفسكم

﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾

زوجتك من نفسك

جزء منك

فكيف تعامل نفسك

كيف تتعامل مع جزء من جسدك

هل تهينه أو تمتهنه أو تنتقص منه

هل حين يؤلمك شيء من بدنك تقطعه أو تلقي به بعيدًا عنك

تأمل كيف تعامل بعضك وانظر ما ترتضي لنفسك

وأما الحرف فهو للمرأة

إنه حرف اللام في كلمة (لِّتَسْكُنُوا)

اللام هنا لام تعليل

فالسكن علة لهذا الزواج

هكذا ينبغي أن تنظري إلىٰ هذا البيت وتلك الأسرة الناشئة

إن علته السكن

والسكينة

فكل ما كان مورثًا لتلك السكينة والسكن صار عليك التماسه والحرص عليه

فإن حرص الزوج علىٰ المعاملة كالنفس وحرصت زوجه علىٰ السكن والسكينة الظن بالله أن تأتي منته تزين ذلك البيت وتلك الأسرة الناشئة

أن تأتي المودة والرحمة

❁ ❁ ❁

وبين سطور تتحدث عن آيات كونية عظيمة ومعجزات ربانية باهرة تبرز آية خلق الأزواج

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

لاحظ أن الآية التي تسبقها تتحدث عن معجزة خلق الإنسان من تراب والآيات التي بعدها تتحدث عن معجزة خلق السماوات والأرض واختلاف

الألسنة والألوان وإرسال البرق خوفًا وطمعًا وإحياء الأرض بعد موتها وقيام السماء والأرض بأمره

إنه سياق تعرض فيه آيات عملاقة ومعجزات ضخمة فما علاقة الزواج بذلك السياق؟

هل هي إشارة لعظم ذلك الحدث بما يوازي عظمة تلك المعجزات؟

أم هو توجيه لثقل ذلك الميثاق الغليظ التي وضع في سياق واحد مع معجزة خلق الإنسان ومعجزة خلق الكون بسماواته وأراضينه

أم هو لفت انتباه لحقيقة يغفل عنها كثير من الناس

حقيقة أن الزواج آية

ذلك السكن وتلك المودة التي تنساب برفق لتمتزج بيوتات وأسر وتنشأ روابط جديدة تعززها مشاعر إنسانية رفيعة تنمو تدريجيًّا وتنشأ بها أسرة مسلمة تكون نواة المجتمع المسلم

هل نظرت إلىٰ الزواج من قبل بهذه النظرة

هل تعاملت معه قط علىٰ أنه آية

آية من آيات الله

تلك الآيات التي إن لم تكن تدرك تفاصيل إعجازها فأنت علىٰ الأقل

تحترمها

وتقدرها

سورة لقمان

وبعد نصحه لولده ووصيته له بالصلاح والإصلاح من خلال إقامة الصلاة (صلاح شخصي) والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (إصلاح للواقع) إذا بلقمان يوصي ولده بالصبر علىٰ ما يصيبه

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾

ويكأن طريق الإصلاح قد تشوبه بعض العقبات وقد يصيب المصلح شيء من العنت في هذا الطريق مما يستلزم الصبر

وعلىٰ نفس المنوال كان التواصي بالصبر قرين التواصي بالحق في سورة العصر

المسألة ليست دائمًا مغنمًا ورغدًا

هناك ما يصيب وما يستحق الصبر

فما بال أقوام يظنون أنه طريق معبد لا تشوبه شائبة ولا تعكر صفو مغانمه مغارم

ما بالهم يحسبون سبيل الإصلاح فقط وجاهة ومكانة وتصدرًا حتىٰ إذا جاء وقت تحمل المغارم والصبر علىٰ ما يصيبهم وجدتهم قد تخلو عن صدارتهم ورفضوا تحمل مسئوليتهم؟!

ما بالهم . .

❁ ❁ ❁

ومن أكثر ما يطهر القلب من الحسد وينقي النفس من شوائب الحقد وكراهية الخير للغير هو إدراك الإنسان لمعنىٰ تلك القاعدة القرآنية الجامعة ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾

فإن أدرك العبد أن ربه وحده هو من يخفض ويرفع ويعطي ويمنع وأن مطالبه مهما كانت بعيدة وصعبة المنال فلا يأتي بها إلا هو فعلىٰ ماذا يحسد ولماذا يحقد؟!

حينئذ -وحينئذ فقط- يكون الامر مستويا عنده وتهون الدنيا في نظره ولا يعدل بسلامة صدره شيئًا

اجعل عبارة ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ مبدأ حياتك ثم أتبعها بالبذل والعمل والأخذ بالأسباب دون النظر لما في أيدي الناس وصدقني بإذن الله ستنعم ويسلم صدرك من أسقام الحقد وأدران الغل وأوجاع الحسد وسيستبدل كل ذلك بالطمأنينة والرضا وحب الخير للغير

❁ ❁ ❁

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾

جاهداك!!

الوالدان هنا ليسا مشركين فقط

إنهما مجتهدان ينافحان ويجالدان لكي يشرك ابنهما

إنهما يجاهدان لأجل تلك الغاية الخبيثة

إيجابية في الفساد نقلته إلىٰ الإفساد بل والمجاهدة في ذلك

فما العمل؟!

﴿فَلَا تُطِعْهُمَاۖ﴾

هذا حق الله والثبات علىٰ دينه وملته ابتداء

لا طاعة إلا في معروف أما في معصية وشرك فلا امتثال ولا طاعة

لكن مع عدم الطاعة لم يسقط التكليف

حتىٰ مع والدين مشركين يجاهدان لإفساد الابن لم يزل هناك تكليف

لم يزل هناك برلم تزل هناك صحبة ومعروف

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾

فهذا مع مشركين مفسدين يجاهدان للإفساد

فكيف بأب وأم علىٰ الإيمان والخير؟!

❀ ❀ ❀

ولأن الظلم مبغوض من كل ذي فطرة سليمة مرفوض مكروه من عوام الناس وخواصهم فإن لقمان لما أراد أن يذم الشرك لولده قال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

ربما لا يدرك الغلام معنىٰ الشرك ابتداء وتفاصيله لكن الإنسان يفهم بشاعة الظلم منذ نعومة أظفاره

إنه وضع الشيء في غير موضعه

هذا أصل معنىٰ الظلم

لذلك سمي الشرك ظلمًا بل هو أعظم الظلم

أن يجعل المرء لله ندًّا وهو خلقه

أن يعطي لمخلوق ضعيف عاجز صفات الخالق وما يحق له وحده من عبادة

وهل من وضع للشيء في غير موضعه أعظم من هذا؟!

﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾

لقد بدأ لقمان بالعقيدة وثبت العرش وأقام الأساس

فليكمل البناء بعد ذلك علىٰ بركة الله

بناء التربية

❁ ❁ ❁

﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾

وهو يعظه

إن علاقة الأب وولده ليست علاقة جافة أو قائمة علىٰ الأمر والنهي وحسب

وهو يعظه

إنه يدرك أن الأبناء تربة خصبة والغرس فيهم من أعظم الاستثمارات التي غالبًا ما تكون ناجحة بإذن الله

وهو يعظه

إنه حريص علىٰ هدايته وعلىٰ الأخذ بقلبه إلىٰ الله عن قناعة وفهم وليس عن إملاء وجبر

وهو يعظه

إنه ينفق من وقته ومن تفكيره ومن جهده ليصل بولده إلىٰ شاطئ آمن بدلًا من تركه لتنازع الأهواء ثم يندم حين يمضي أوان الندم

وهو يعظه

توجيه ضمني لكل أب وأم

أين أنت من ولدك؟

أين وعظك له؟

أين إدراكه مبكرًا؟

حرصك علىٰ ولدك يبدأ من الطفولة المبكرة قبل أن تشكو عقوقه وتنكبه عن الطريق

حرصك علىٰ ولدك يبدأ مبكرًا

وأنت تعظه

سورة السجدة

وفي كثير من سجدات القرآن تجد التلازم بين العبودية لله والإيمان به وبين السجود

ولعل أوضح موطن لهذا التلازم هو الموجود في سجدة سورة السجدة حيث أكدت الآية أن المؤمن بآيات الله هو من يدفعه ذكر تلك الآيات والإيمان بها للسجود: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

وكذلك في سجدة الإسراء بدأت آيتها بذكر الإيمان

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾

وأيضا في سورة فصلت جعل السجود نتيجة حتمية لحقيقة العبودية

﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

وغير ذلك من السجدات القرآنية التي بينت تلك الحقيقة وأوضحت ذلك التلازم

حقيقة أن المؤمن لا يستكبر أبدًا أن يحني جبهته لمولاه وينكسر بين يديه

حقيقة أن المؤمن يسجد لربه . .

❁ ❁ ❁

وتكاد جل آيات سورة الإنسان أن تقتصر علىٰ ذكر الأصل والمآل والمنشأ والمصير

فتتحدث عن أصل الخلق وحقيقته منذ أن كان لا شيء إلىٰ أن صار بشرًا سميعًا بصيرًا مرورًا بكونه نطفة أمشاج من ماء مهين

وتتحدث عن مآله المفترض والمطلوب والذي هو في نفس الوقت أصله وأصل والده الذي هبط منه مؤقتًا

الجنة

ومن عجيب لطائف تلك السورة التي سميت باسم هذا المخلوق أن قرنت تلاوتها صبيحة كل جمعة بسورة السجدة وكأن في ذلك إشارة لطيفة وتذكرة في ذكرىٰ اليوم الذي خلق فيه أبوه إشارة وتذكرة بكون هذا المخلوق لا ينبغي أن ينفك أبدًا عن السجود وأنه إنما خلق ليسجد ويعبد

وهو كلما سجد اقترب ليس فقط من تراب أصله ولكن أيضًا من موطن أصله

الجنة

تلك التي يعان المرء علىٰ دخولها وصحبة خير ساكنيها ﷺ بكثرة السجود

❁ ❁ ❁

ومن عرف الله وقدره حق قدره فإن عبادته تخلو من التكلف ويجد نفسه مدفوعًا لها برد فعل داخلي نابع من رغبته ورهبته

تلك الرغبة والرهبة التي هي النتيجة الطبيعية لمن عرف الله وفهم معاني أسمائه وصفاته فخرَّ ساجدًا بتلقائية وبغير تكلف

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

إن جنوبهم لا ترتاح علىٰ فراش الغفلة ولا تركن إلىٰ وثير الأرائك فهم يخافون عاقبة ذنوبهم ويطمعون فيما عند ربهم

وإن خوفهم وطمعهم هو من تمام إيمانهم ومعرفتهم وليس كما يظن بعض المتكلفين أن ذلك مما يعيب العبادة وينتحلون أفكارًا مفادها أن الخوف عبادة العبيد والطمع عبادة التجار إلىٰ آخر تلك المحدثات الخاطئة

إن ربا رغبك فيما عنده من الأجر والمثوبة وخوفك مما عنده من العذاب والعقوبة من حسن تأدبك معه أن تطمع فيما رغبك فيه وأن تخشىٰ ما خوفك منه جنبًا إلىٰ جنب مع دافع الحب النابع أيضًا من المعرفة

معرفة الله وآياته

❁ ❁ ❁

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾

الأدنىٰ!!

كل هذه الابتلاءات والعقوبات والمصائب والويلات الدنيوية

الأمراض والأسقام

الآلام والأحزان

بل حتىٰ الإهلاك للأمم السابقة بخسف أو مسخ أو إغارق أو حاصب من السماء

ريح عاد وصيحة ثمود وأمطار الحجارة علىٰ قوم لوط وعذاب يوم الظلة وإغارق فرعون وإهلاك النمورد

كل ذلك وغيره أدنىٰ

عذاب أدنىٰ

يا لها من كلمة حين توضع في مقابلة الأخرىٰ

﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾

حينئذ ربما تأتي للذهن فكرة ولو مبدئية عن ذلك العذاب الأكبر

إنه شيء لا يكاد يتصور

وهنا تكون النتيجة المفترضة لأي عاقل: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

كل تلك العذابات والبلايات والعقوبات الدنيوية لأجل ذلك المقصد

لعلهم يرجعون

ولعلنا جميعا بتأملها نرجع

❀ ❀ ❀

ولتحرص كل الحرص علىٰ تقدير التذكرة وعدم امتهانها أو الإعراض عنها خصوصًا إن كانت تذكرة بآيات الله جل وعلا

إن الإعراض عن ذلك النوع من التذكرة تحديدًا أعظم الظلم وأفدح الإجرام

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾

ذلك لأن من يعلم وبتذكر ثم يولي ويعرض فإنه يجمع مصيبتين

مصيبة العصيان نفسه

والأهم مصيبة الاستخفاف بآيات الله

إنه بتلك التذكرة قد انتقل من حال الجهل والغفلة إلىٰ حال العلم والتذكر وليس من علم كمن جهل

إن المصر مع التذكر والمعرض حال التنبيه والعلم بآيات الله مستكبر علىٰ تلك الآيات يوشك أن يكون رافضًا لها

لذا عد ذلك من أعظم الظلم والإجرام

فانتبه ولا تستخف بتلك التذكرة

التذكرة بآيات ربك

سورة الأحزاب

تسارعت الأفكار لرءوس مظلمة، حملتها أعناق المتربصين، ولسان حالهم الذي لم يلبث إلا أن صار لسان مقالهم حين خلوا إلىٰ شياطينهم يوم الأحزاب: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾

هذا هو الفارق الجوهري، بين من هم بموعود ربهم مؤمنون، ولبن هؤلاء الضالين المكذبين

أما الأولون فلا يضيرهم رهق الخوف، ولا تنال منهم شدة الجوع، ولا يؤذيهم نقصان أمنهم؛ فإن جنانهم، وبساتينهم في صدورهم، في ظلال يقينها يرفلون، ومن ثمار صدقها يقطفون،

وأما الآخرون فأسرىٰ لخوفهم، يَصلون لهيب جبنهم وخورهم، ويتقلبون في جحيم حقدهم وشكهم، فأنىٰ لقلوبهم أن تدرك الفسحة والحبور، وتنال من فيض السرور؟!

إنه الفارق بين من شعاره حين يرىٰ جحافل الكفر قد احتشدت، وأحزابه قد تمالأت: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسۡلِيمًا﴾

وبين من لا ينقطع عن التشكيك ناعقًا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾،

هذا الزلزال الشديد، الذي تعرضت له المدينة في هذه الغزوة، كان كافيا لتتكشف الفوارق، ويحدث التمايز،

كان كفيلًا ليظهر من يعبد الله بثبات ويصدق موعوده بيقين وبين من يعبده علىٰ حرف، وما إن يأتىٰ البلاء حتىٰ ينكص علىٰ عقبيه، ويظن بالله الظنونًا،

فما إن جاءت الأحزاب، واصطفت قريش وغطفان وفزارة وأشجع ومرة بجنودهم، حتىٰ دارت أعين في محاجرها، كالذىٰ يغشىٰ عليه من الموت،

إنها أعين المنافقين

أولئك الجبناء، الذين لا ينكئون عدوًّا، ولا يصلون صفًّا، ولا يسدون ثغرًا،

قوم لا تجد منهم إلا التخذيل، ولا ينالك من ألسنتهم الحداد إلا التخويف، والتبطيء، ولا يأتون البأس إلا قليلًا،

شتان الفارق بينهم وبين من شعاره: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسۡلِيمًا﴾

وكأنهم يردون علىٰ المنافقين قائلين: هذا الذي ترونه تهاويًا لأمتنا، وتداعيًا لدولتنا، نراه نحن بدايةً لمجدها، وفاتحةً لعزها، وتحقيقًا لموعود نبيها،

نرىٰ في ذلك الزلزال الشديد، والبأس الرهيب، نصرًا من الله، وفتحًا عن قريب،

نرىٰ بعين قلوبنا مدائن كسرىٰ وقصره الأبيض، وأبواب صنعاء، وقصور الشام الحمراء،

نراها بقلوبنا، تصديقًا لوعد نبينا،

وإن كان أحدنا لا يأمن الآن أن يخرج في تلك العاصفة، ولو لقضاء الحاجة، خشية سهم عدو، أو حربة محارب، أو حتىٰ تخطف ريح هادرة، إلا أن كل ذلك لا يؤثر ولو للحظة علي يقيننا،

فقد وعد نبينا، وهو لا ينطق عن الهوي، إنما يبلغ عن مولاه الذي ما ودعه وما قلاه، فهو وعد من الله، ولا يخلف الله وعده،

وعد لم تصدقوا يومًا أنه سيأتىٰ،

وعد تمكين، جاد أقوام بأنفسهم، وسالت دماؤهم، وقضوا نحبهم، مصدقين بأنه آت لا محالة، وإن لم يروه أو يدركوه، وبقىٰ آخرون ينتظرون أن يلحقوا بهم أو ينصروا

عهد رجال صدقوا،

وصدّقوا،

وما بدَّلوا تبديلًا

﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾.

❁ ❁ ❁

﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ﴾،

يثرب؟؟!!

وما يثرب؟

عجيب قولهم يثرب؛

ذلك الاسم الذي له وقع غريب علىٰ الأذن، وصدىٰ عتيق في القلب، يذكر بأيام الشرك والظلام؛

يثرب!

ألم يندثر هذا الاسم ويزل ذكره عن الألسنة؟

ألم يُنس هذا الاسم؛ وقد أبدلهم الله خيرًا منه، لما جاءهم الحبيب، فأنار من مدينتهم كل شيء، وصارت يثرب هي مدينة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه؟

ومن حينها صار اسمها المدينة النبوية وطيبة وطابة وطائب، وغير ذلك من الأسماء الحسنة التي امتن الله بها علىٰ مدينتهم

فلماذا العودة إلي مثل هذا الاسم، الذي ارتبط في أذهان الجميع بعهود الشرك والضلال؟

إنه ترسيخ لمعنىٰ الهزيمة ورجوع الأمور إلىٰ ما كانت عليه بإعادة بعث للاسم والمصطلح القديم ومدلولاته ذات المغزىٰ المعلوم

إنه تلميح إلىٰ أن الأمر قد انتهىٰ وأن الوضع القائم قد تغير وعاد لما كان عليه من قبل

لقد ظنوا أن تكالب الأحزاب واستئسادهم ورمىٰ العرب للمؤمنين عن قوس واحدة، سيجعل الزمن يعود إلىٰ الوراء، فينصرم الأمر، وينتهي الخير، وينفض الخلق

لقد سوَّلت لهم أنفسهم أن يتخيلوا أن فتح الله للمدينة وإكرامها بنور

الوحىٰ، الذي أضاء جنباتها وقلوب أهلها، كان حلمًا جميلًا، سيستيقظ منه المؤمنون علىٰ أصواتهم القبيحة، وهي تؤذىٰ أسماعهم بتلك الكلمات المثبطة؟

توقعوا أن إرجافهم وتشكيكهم سيفُت في عضد المؤمنين، أو يزعزع ثقتهم، أو يقوض عزائمهم؟

فهل استجاب المؤمنون؟

الجواب: لا.

لقد ظل الأمل في نفوسهم ولم تغتادرهم الثقة بوعد الله واليقين فيه وما زادتهم رؤية الأحزاب وتمالؤها إلا إيمانًا وتسليمًا وقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله

ومن هنا ثبتوا

ثم انتصروا

لما لم يفقدوا الأمل وتنهزم نفوسهم ولم يقولوا بلسان الحال أو المقال: يثرب

لم يرضخوا لفكرة أن الأمر انتهىٰ والواقع قد فرض

بل هو ما وعدهم الله ورسوله وإن أرجف المرجفون وبدل المبدلون والمغيرون

ومن هنا يأتي النصر

وبضده يأتي الانكسار وتتحقق الهزيمة

فما الانكسار إلا انكسار الإرادة

وما الهزيمة إلا هزيمة النفس

وما الوهن إلا ضعف قلب امتلأ بحب الدنيا والتعلق بها والفزع من كل صيحة يحسبها المرجف عليه

وكل ذلك لا يتسرب إلا تحت ستار من دخان التحريف والتدليس والتلبيس يتقنه ويحترفه شياطِين إنْس وجِنٍّ يُوحي بعضهم إِلَىٰ بَعضٍ زُخرُفَ الْقَولِ غرورًا

فاحذرهم وانتبه

❁ ❁ ❁

﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾

والعورة لفظ شرعي وحكم إسلامي له وقع مألوف في نفوس المؤمنين

إنها علة أخرىٰ للمنافقين يبررون بها تخاذلهم عن نصرة الدين

لكنها هذه المرة علة مصبوغة بصبغة شرعية ترهب أي رافض لها

إياك أن تتكلم أو تعيب عليهم قعودهم عن دفع المشركين يوم الأحزاب أو تنتقد تخاذلهم عن مقاومة المعتدين

لقد صدروا علة شرعية لتسكت وترضىٰ بما يفعلون

لآ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾

لقد جعلوا لفظ العورة ذريعة للقعود لستر هذه العورة المزعومة

لكن يأتي الرد كاشفا

﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾

دعكم من هذا التلبيس واستعمال الألفاظ الشرعية الملجمة

ما هي بعروة وما هم إلا كاذبون جبناء يبررون خورهم وهم ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾

هذه هي الحقيقة التي كثيرا ما تلبس بثياب الشرع والحكمة أو تدثر بدثار المصطلحات المختلفة

وتلبيس المصطلحات وتسميتها بغير أسمائها ثم تكرارها حتىٰ تتأصل وتهون مدلولاتها في القلوب منهج متكرر مطرد في كل زمان ومكان وبشكل يكاد يكون مطابقًا

ولقد حدثنا المولىٰ جل وعلا عن أمثلة لذلك في غير موضع بكتابه العزيز

فتجد مثلًا تسمية الشيطان للشجرة المحرمة بشجرة الخلد والملك الذي لا يبلىٰ

وكذلك تسمية ما بُعث به النبي ﷺ من الرسالة والوحي بالشعر والسحر والكهانة والأساطير

ولقد فعلوها يوم تبوك حين قال بعضهم: ﴿ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ فجعلوا الفتنة وهي هاهنا فتنة النساء حجة لترك الجهاد

وفعلها كبيرهم حين سمىٰ النبي بالأذل وسمىٰ نفسه بالأعز

فىٰ عصرنا سميت المشروبات المسكرة والخمور التي تخمر العقل وتغطيه باسم جميل «المشروبات الروحية»

وسمىٰ الابتذال والتعري فنًّا واعتبرت مقاومة المحتل الغاصب إرهابًا مرفوضًا

وما تسمية الأشياء بغير اسمها إلا مسوغًا يجعل المتلقِّي يقبلها، مستحسنًا إياها، غير معظمٍ لجرمها، لما تضفيه عليها تلك المسمياتُ «اللطيفة» من طابعٍ لين يهون من فظاعتها وشدة حرمتِها

أو يرفضها مستبشعًا إياها إن كانت من نوعية المسميات التشويهية

المهم أن ينساق إلىٰ اللفظ الذي استعمل لتغطية الحقيقة

سواءً كان لفظًا شرعيًّا أو غير شرعي

يظل التلبيس واحدًا في الحالتين

❀ ❀ ❀

وليس معنىٰ تذكيرك بتقوىٰ الله أن ذلك يحمل اتهامًا لك بنقص تقواك

ولقد قيل لمن هو خير مني ومنك ومن ملأ الأرض منا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾

فهل كان هذا معناه أنه لم يتق؟

معاذ الله وحاشا وكلا

بل هو إمام المتقين ﷺ

إنها إذا التذكرة والنصيحة وحمل الأمور علىٰ أحسن محاملها

فما بال أقوام إذا قيل لهم اتقوا الله وتراهم تأخذهم العزة بالإثم إذا ما سمعوا تلك النصيحة الجليلة

اتق الله . .

من قالها لك فاشكر له واحملها علىٰ أحسن محاملها وقل بقلبك: اللهم اجعلني من المتقين

❁ ❁ ❁

﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

والمعوِّق هو نمط عجيب غريب حقًّا

إنه ليس معوَّق (بفتح الواو المشددة) وحسب ولو كانت إعاقته في نفسه لما عابه ذلك بين الناس لكنه هاهنا معوَّق في نفسه معوِّق لغيره

إنه نموذج للتراخىٰ والتثاقل في نفسه، والتعويق والإثقال لغيره، خطورته علىٰ الأمة تكون أحيانًا أشد من خطورة أعدائها!

لذا قال الله عن أمثاله: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾.

ويا ليت هذا الصنف العاجز المتخاذل اكتفىٰ بعجزه وتكاسله وتخذيل غيره وتعويقهم وغرُب عن عاملي الأمة بوجهه المتراخىٰ ونفسه المثبطة الجبانة الشحيحة

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾

فليستحيي بجبنه وبخله إذا وليكف لسانه السليط عمن لم يجبنوا مثله لكنه للأسف لم يفعل

بمجرد أن يزول الخوف وتهدأ الأمور نسبيا تجده يسارع إلىٰ هوايته المحببة

إصلاء المؤمنين العاملين بنيران لسانه

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾

إنها نفسية عجيبة ووقاحة منقطعة النظير من قوم بخلوا بكل خير وجبنوا عن كل بأس ثم ينالون ممن لم يفعلوا

فما أجمع قول الله فيهم

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾

❁ ❁ ❁

والدعوة إلىٰ الله فعلا تحتاج إلىٰ إذن وتصريح

لكنه إذن لا يصدر هنا

إذن لا يملكه بشر ولا يتسلط عليه مخلوق

إنه إذنه هو

إذن من يُدعىٰ إليه

إذن الله

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾

فاللهم إذنك أنت نبتغي

إذنك أنت

وحدك

فائذن لنا . .

سورة سبأ

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

دائما المترفون

في كل مرة تكون البداية من هناك

من تلك الأفواه المنعمة والعقول الكسولة والبطون الممتلئة

﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾

هم لم يتعودوا علىٰ العدالة ولم يألفوا فكرة المنع من أي شيء اشتهوه أو رغبوا فيه وهم دائمًا السادة في الدنيا بأموالهم ومكانتهم فكيف يتصوروا أن هذا كله من الممكن أن يزول

بالطبع مستحيل

هكذا ظنوا فقالوا:

﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾

يستحيل في تصورهم بعد كل هذا النعيم أن يمسهم شيء من العذاب مهما فعلوا

لذلك فهم دائمًا أول من يرفض

وأول من يكذب ويجحد

لذلك الدافع النفسي الخفي الذي لم يتعود ورود هذا الاحتمال ووجود مظنة العذاب في مقابل التقصير

وهذه من أسوأ عوارض الترف

الغفلة عن تلك البديهية الدينية

﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾

لكن العدل والإنصاف القرآني يفتح لهم وللجميع الباب ويبين المعيار الحقيقي للنجاة والذي ليس هو المال ولا البنون ولا القوة ولا المنصب والترف

من هنا يأتي الاستثناء

﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾

فاللهم اجعلنا منهم

❁ ❁ ❁

جهد مذهل هو . . . في الحقيقة

مكر بالليل ومكر بالنهار

حصار مكتمل الأركان

لا تعطله انشغالات ولا تقطعه تبريرات

إنه مكر أهل الباطل

إنه استغلالهم لكل فرصة ووقت للدعوة إلىٰ باطلهم وأمر الضعفاء

بالكفر: ﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾

إنها أوامر واضحة

تفان كامل وإتقان تام وجهد مبذول لأجل تلك الغاية

غاية الإضلال

المحزن حقًّا أنك لا تجد في كثير من أهل الحق معشار تلك الهمة الموجودة لدىٰ أهل الباطل ولا تلمس ذلك الثبات الرهيب حتىٰ علىٰ باطلهم

لا تجد في كثير منهم تلك التضحية بالوقت والجهد لإعلاء ذلك الحق الذي يفترض أنهم يحملوه

هذا هو المحزن فعلًا

* * *

أن يكون المرء عند ظن عدوه به

أن تقر بأفعاله عين خصمه الأزلي

ياله من خزي وعار

يكفي بالعصيان خزيًا والفجور عارًا والظلم شنارًا أن كانوا سببًا في ذلك التقرير القرآني بأن ظن إبليس قد صدق في مقترفهم

﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾

اتبعوه

أطاعوه

وافقوه

أهو هو؟

نعم هو

الشيطان الذي توعد جنسهم وظن أنه قادر علىٰ غوايتهم وإضلالهم

ولقد صدق

هناك من قد أثبت ظنه فيه

هناك من اتبعه

وأطاعه

فيالفرحته

ويالخزي من أسعده وأقر عينه

أما أذلوه ودحروه في تلك المعركة السرمدية التي أبدوا فيها صفات بطولية جعلتهم استثناء لذلك الظن

﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

هؤلاء هم قرة العين

وهؤلاء هم سبب الأمل

فريق لم تقر بهم عين عدوهم ولم يصدق فيهم وعيده

فأنعم بذاك الفريق وأكرم بخصاله ومروءته ويااليتنا نكون منهم ومعهم

❊ ❊ ❊

وفارق بين الشكر والحمد وفي كل خير

الحمد هو ثناء علىٰ الله بحب وامتنان نابع من قلب مستشعر للنعم

فهو عبادة قلبية وقولية

أما الشكر فهو امتنان أيضًا ولكنه امتنان بطريقة مختلفة

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾

هذا الاقتران بين العمل والشكر في تلك الآية من سورة سبأ يشير بوضوح إلىٰ المعنىٰ الأدق من معاني الشكر

معنىٰ الشكر العملي

معنىٰ أن تترجم مشاعر الامتنان إلىٰ عمل وبذل وعطاء

أن يجتهد العبد أكثر فأكثر لا لشيْء إلا ليكون حاله كحال سيد الشاكرين حين تعجبوا من كثرة عبادته وهو المغفور له كل ذنبه

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾

هكذا رد علىٰ من سأله

وهكذا بين سبب بذله وبالغ عمله وجهده

إنه ذلك الشكر العملي الذي ينبثق عن قلب سيطر عليه شعور الامتنان وملأت جنباته الرغبة في الوفاء ومقابلة الإحسان بالإحسان والفضل بالشكران

وكذلك العبد الشكور

يترجم شكره إلىٰ طاعة أو عبادة أو نفقة أو تضحية وبذل أو أي من سائر تلك الأعمال والقربات التي يستحق بها لقب العبد الشكور

﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾

❁ ❁ ❁

ربنا باعد بين أسفارنا

لو كان جَنْيُ ثمارِنا أبعدَ، لكانَ أشهىٰ وأعلىٰ قيمةً!

يالها من مقولة خبيثة أثيمة!

لقد سرت هذه المقولة وانتشرت بين أهل سبأ انتشار النار في الهشيم،

ترىٰ من كان أول من أطلقها؛

من صاحب هذا العقل المعوج الذي يبطر تلك النعم، التي يحسدهم عليها كل من يسمع بها؛

رغد وخصوبة وبركة وتيسير،

و أمن . . . . .

أمن يجعل الراكب يسير، وينتقل بين قراهم العامرة، في أىٰ وقت، بليل أو نهار، لا يخاف إلا الله، ولا يحمل هم مخلوق، ولا ينشغل حتىٰ بزاد لرحلته، فهاهىٰ القرية التي يقصدها، تبدو في الأفق بارزة أمام ناظريه، لن تمر ساعة حتىٰ يكون مستقرًا فيها، فأىٰ هم يحمله بعد ذلك؟

و ما الداعي لأن تخرج مثل تلك الدعاوىٰ الآن؟!

باعد بين أسفارنا؟!

لماذا ولأي شيء هذا؟

أهو حب المغامرة؛

أم هو بطر، واستبدال الذي هو أدنىٰ بالذىٰ هو خير؛ كما فعلت أقوام غيركم؛ فاستبدلوا منا وسلوىٰ بعدس وبصل!

أهذا هو شكركم للنعمة؟

أهذا هو التكليف الميسور الذي به أكرمتم ولطف بكم؟!

قد طلبتموه بطرًا، فصار اضطرارًا

قد طلبتم المباعدة بين أسفاركم، وبطرتم أمن قراكم، وهويتم البعاد!

سوف تخرجون منها رغمًا عنكم، فما عاد يطاق البقاء،

سوف ترحلون، ولسوف يطول في قطع فيافيها الكباد،

إنه آخر العهد، إنه حديث لسان الحال،

قبل الرحيل،

وبدء السفر،

سفر الفراق؛ سفر التفرق والتقطع والتشرذم والضلال،

إنه التمزق في الأرض كل ممزق

ليسيروا في الأرض هائمين، ولينقلب أمنهم فزعا، ولتتحول وحدتهم إلىٰ فرقة، وليصيروا أحاديث، ولتصبح قصصهم عبرة للمعتبرين

إنه جزاء الجاحدين، وإنها لعقوبة الكافرين بنعمة ربهم المنعم الكريم،

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

وما بين طغيان الماء وطغيان الأمل سبحان من جعل الجزاء من جنس العمل

* * *

لو أن في الدنيا مثالًا، يقرب إلي أذهاننا جنة الفردوس؛ لكانت تلك القرية وأخواتها، لولا أن في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت،

ولا خطر علىٰ قلب بشر!

لكن ما لا شك فيه أن هذه الحدائق الغناء، والجو الصحو النقىٰ، والنسيم العليل الذي تتمايل له أغصان الأشجار المثمرة؛ التي تستقر في تناسق بديع ملقية بظلالها علىٰ ضفتىٰ النهر العظيم، والجداول التي تتفرع عنه وتنساب مياهها العذبة، بلطف لتسقىٰ تلك الزروع الممتدة علىٰ اليمين والشمال سقاء لا يكاد ينفد، هي أقرب ما يقدح التصور الإنساني البسيط، إذا ما قرر أن يغلق عينيه، ويشرد بذهنه متخيلًا جنة الخلد، مشوقًا قلبه إلىٰ لقياها.

﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾

فقط عليكم الشكر

هذا هو التكليف وذاك هو المطلب

ووالله ما أيسره، وما أبعده عن التكلف،

وهل يملك من يتقلب في تلك الخيرات، وينهل من هذا النعيم، ألا يشكر من أنعم ويحمد من منَّ،

إن الشكر هاهنا فطرة، والحمد سجية، لا يملك القلب النقىٰ إلا أن يصدع بها، فتقفز إلىٰ لسانه، وتسرىٰ في جوارحه وتعتمل في أركانه؛ فيعمل شكرًا، وينطق حمدًا، ويسجد امتنانًا،

وهذا فقط ما قد طُلب منهم،

كلوا كما تشاءون، وانهلوا كما ترغبون، واستمتعوا ببلدتكم الطيبة كما تحبون،

ولكن فقط: اشكروا له، واحمدوه،

لا تنتقل سدودكم من بين جبالكم إلىٰ قلوبكم، فتحجب ذلكم الامتنان المسارع إليها، كما يُحجب الماء ويُزم

لحظة . .

ما هذ الدوىٰ الرهيب؟!

لكأني بصوت ألف صاعقة مدوية، نزلت علىٰ قريتنا الآمنة،

إنه السد العظيم العجيب الفريد؛ سد مأرب؛ انهار؛

لقد انهار مأرب!

صار ما بين طرفة عين وانتباهتها، أثرًا بعد عين،

هذا الغبار الذي يبدو من بعيد متعاليًا في الأفق، هو ما قد تبقىٰ من السد العتيد!

ها هو الماء يندفع، بسرعة جنونية، من أعلىٰ الجبل، مسابقًا الرياح، إلىٰ سفح الجبل،

يا له من مشهد، ما أشد هوله،

الماء قادم، وما هي إلا دقائق حتىٰ يغرق الوادىٰ، وحدائقه الغناء وارفة الظلال وافرة الثمار . .

ثمار؟؟

أىٰ ثمار؟

هيهات هيهات،

أوبعد نزول الخراب وحلول الدمار؟!

وهل بعد الإعراض عن الشكر وكفور نعمة المنعم من ثمار؟

هيهات أهل سبأ؛ لقد انقطعت العادة واستقر الخراب!

ما أبقىٰ السيل إلا علىٰ شجر الأراك؛ شجر الخمط، وما عاد بعد اليوم من حلو الثمار،

إنه الأثل، والسدر؛ النبق مر المذاق، شائك، لا يفي بحاجات أهل القري، ولا لتحصيل الزاد،

من بعد السيل، لم يعد ينبت من أرضهم إلا تلك الزروع المرة التي يحوطها الشوك لبئس العذاب،

أين الظلال الوارفة؟

أين النسيم العليل؟

أين الخضرة التي لم تكن تلتفت يمنة أو يسرة إلا وجدتها من حولك، علىٰ مرمىٰ البصر؟

أين النقاء والطهر الذي كان سمة البلاد؟

كل ذلك زال

وكان من الممكن ألا يزول

فقط إن شكروا وآمنوا

لكنهم أبوا

وها هي النتيجة ماثلة

﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾

* * *

ولقد كان نبي الله داود يأكل من عمل يده

وما كان عمل يده؟

ستنبهر إذا ما تأملت حال يد هذا الذكَّار الشكَّار . .

ستفاجأ بيد خشنة، تبدو عليها آثار الكد، وتظهر عليها خدوش العناء!

إنها ليست بآثار حمل السيف الذي استعمله منذ سنين، لقتل رأس الكفر وقائد العماليق جالوت . .

إنها آثار صنعته التي يأكل من عائدها . .

ما الذي يدفعه لمثل ذاك المسلك العجيب؟!

وما الذي يضطره للتعفف عن الأكل من ملكه العتيد؟!!

وأي مهنة تلك التي خلبته، يأكل من ريعها؟!

حداد!!

تلكم المهنة التي يتعالىٰ البعض عن مثيلاتها . .

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾

كان هذا أمر الله لداوود عليه السلام بعد أن علمه صنعة

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾

إنها صنعة الدروع التي يرتديها الجنود أثناء الجهاد وتحصنهم يوم البأس

يصنع لجيشه الدروع، ثم يلبسها معهم حين يحمر البأس!

دروع مختلفة عما جرت به العادة من تلك الصفائح الضخمة الثقيلة التي اعتادها الناس

إنها دروع سابغة سردها مقدر وحلقها متداخلة من حديد ألانه الله لداوود عليه السلام

لكن ما شأنه هو وتلك الصنعة

الحدادة

إنه نبي مكلم

وملك وحاكم يحكم بين الناس ويفصل بينهم

ومن قبلها هو مجاهد بطل استطاع قتل كبير الجبارين جالوت

وهو مع ذلك عابد لا يشق له غبار في مضمار العبادة

هو عابد ليس كأي عابد

إنه صاحب أفضل قيام وأفضل صيام في تاريخ البشرية، بشهادة معلم البشرية، الذي سيأتىٰ بعده بقرون،عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات . .

ما له والصناعة والحدادة

وكيف يجمع بين تكاليف الحكم، وأعباء القضاء، وهموم الدعوة، وبين تلك اللحظات التي يقتنصها، يخلو فيها بربه، ويتعالىٰ صوته العذب بتلك التسابيح الخلابة، التي لم تتحمل الصخور الراسيات أن تسكت عنها، فسارعت لترديدها معه، منافسة بذلك الطيور، التي ما انفكت عن التأويب والتغنىٰ معه بذكر الإله الحبيب . .

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾

وهل يعقل أن تجتمع فروسية النهار، وبطولة الميدان، وقسوة الصوارم، وحدة الرماح، مع عبودية الليل، ورقة التسبيح، وعذوبة الصوت، ووجل

الخشية، ودمع الإنابة ونشيج الإخبات؟!

ما علىٰ هذا تعودنا، وما هكذا عرفنا المقاتلين، ولا كذلك قد ألفنا الحكام!

ومع كل هذا صانع حداد

إن هذا لشيء عجاب!

عجبت لحاكم متطوع، وملك متوج، لا يمتلك قوت يومه، إلا من عمل يديه

ألهذا الحد يمكن أن يصل التعفف بعبد؟!

لله درك يا داوود: لا تسأل الناس أجرا علىٰ دعوتك وجهادك، ولا تستحب إلا أن تأكل بعزة نفس، وكد ساعدٍ، وعرق جبين . .

كيف وجد وقتًا لكل ذلك؟!!

إنه نموذج القصد، والتوازن بين النجاح الباهر في تكاليف الدنيا، وبين قربات الدين . .

أنعم به من عابد عالم عامل مهيب . .

ويكأنه مثال يُضرب لكل متنطع خوار، يلتمس لنفسه معاذير التخاذل، ويسوِّل لنفسه القعود عن العمل والبذل والفداء والعبادة، بحجة ضيق الوقت وقلة بركته . .

كأنىٰ به لو عاش بيننا لصاح بالمعذرين القاعدين، أو بأضدادهم من العاملين الذين هم عن العبادة منصرفين قائلًا: اتقوا الله، ولا تعلقوا فشلكم وتنطعكم علىٰ شماعة الوقت، فالوقت يكفي لكل شيء، إن صدق العزم،

وصلحت النية، والبركة إنما هي محض فضل من الله خالق الزمان . .

ربما هي جملة لم يقلها بلسان مقاله، لكنها تعلو بوضوح في ظاهر حاله . .

وها هو ذا نموذج حي أمام الجميع . .

ألا فلينظر المتنطعون القاعدون إلىٰ جهاده وعمله وحكمه وحكمته، رغم زهده وعبوديته

ويتأمل الغافلون المتشاغلون بأعمالهم وهمومهم، في عبادته وقيامه وصيامه وتأويبه رغم مشاغل وهموم تنوء بحملها تلك الجبال التي تردد تسبيحه كأنها المزامير تعزف أجمل الأنغام . .

ولتقم عليهم الحجة، وتثبت البينة . .

فلو كان لأحد أن ينشغل عن عبادة، بسبب هموم وشغل لكان داوود

لكن ها هو يسبح، ويذكر، كأحسن وأندىٰ ما يكون الذكر

ويصوم ويقوم، كأحسن ما يكون الصيام والقيام

ويعبد علي أكمل ما يكون الجهد البشري في العبادة من التمام . .

ويصنع ويعمل وينتج

ويأكل من عمل يده

سورة فاطر

ورحمته نافذة لا يمسكها شيء ولا يمنعها مانع إن أراد لها أن تصل

نفذت إلىٰ النار فكانت بردًا وسلامًا ورحمة علىٰ إبراهيم

ونفذت تحت نصل السكين وقد تُل إسماعيل للجبين فكان البلاء المبين ثم الفداء العظيم

نفذت إلىٰ السجن والأسر والظلم فخرج يوسف منه عزيزًا لمصر وعلىٰ خزائنها أمين

ونفذت في ظلمة الليل والبحر وظلمة بطن الحوت فنجىٰ الله بها يونس من الغم وكذلك ينجي المؤمنين

ونفذت إلىٰ موسىٰ في مواجهة فرعون اللئيم

وإلىٰ أهل الكهف في كهفهم المظلم الموحش فجعل الله لهم فيه مرتفقًا والشمس تقرضهم عن الشمال واليمين

وإلىٰ أصحاب الصخرة خلف أثقال صخرتهم العتيدة.

نفذت رحمة الله إلىٰ كل هؤلاء وإلىٰ غيرهم ممن احتاجها وقضىٰ الله أن تصل إليه فلم يمسكها أحد

وما كان لأحد أن يفعل.

﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾

إن رجلًا تألىٰ علىٰ الله مضيقًا تلك الرحمة وزاعمًا أنها لن تصيب آخر يعصي مولاه

فلم تنفعه طاعته وطرد من تلك الرحمة رغم سعتها وشملت ذلك الذي احتقره وحجر رحمة الله عنه

لماذا؟!

لأنه تألىٰ علىٰ الله وضيقها

ضيق الرحمة التي وسعت كل شيء .

والتي إن قضىٰ الرحيم أن تفتح فلن يغلقها أو يمسكها أحد

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

❀ ❀ ❀

وهناك تجارة أخرىٰ

تجارة من نوع مختلف

إنها تجارة رابحة دائمة

الربح فيها مضاعف

والسوق فيها منصوبة دائما والمعاملة مباركة باستمرار

تجارة لا يمكن أبدًا أن تخسر أو تبور

إنها تجارة من الدين

تجارة مع رب العالمين

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾

من أدركوا حقيقة هذه التجارة صاروا رجال أعمال (أخروية)

صاروا من المستبقين إلىٰ أسواقها الرائجة وأرباحها المضمونة

بذلك الفهم أصبح الصديق صائمًا متصدقًا للمريض عائدًا وللجنازة متبعًا مواسيًا

وبذلك الفهم أمسىٰ عبد الله بن عمر ولديه آلاف الدراهم فأصبح وقد أنفقها جميعًا في تلك التجارة

وبذلك الفهم تصدق والده الفاروق بنصف ماله منافسًا ذلك التاجر الآخر فوجده قد سبقه وأنفق ماله كله

وبذلك الفهم كانوا يسارعون في الخيرات ويتسابقون إلىٰ القربات وينهلون من نبع الطاعات يرجون أرباح تلك الصفقات والمعاملات

يرجون ريع هذه التجارة التي لا تبور

ولن تبور

❁ ❁ ❁

وغالبًا ما تجد معنىٰ الشكر في القرآن مصحوبًا بالزيادة والمضاعفة: ﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾

وهذا معنىٰ جليل نفيس ينبغي للعبد أن يعرفه ويتأمله وأن يعامل به ربه

معنىٰ شكر الله لعباده الطائعين وكثرة خيره وفيض ثوابه

الله يشكر علي العمل القليل بالجزاء الجزيل

الله لا يعاملنا في الطاعات فقط بعدله ولكن بفضله وكرمه ومنه وفيض عطائه

وشكره

وهذا هو معني الشكر لغةً وشرعًا

في اللغة الشكر هو الزيادة

وإن المرء ليذهل حين يتأمل قدر الشكر في مقابل العمل

إنها زيادة ليس كمثلها شيء ومقابل لا يعد ولا يحصىٰ

فالشكور جل وعلا من معانيه السامية أنه هو الذي يغدق علىٰ عباده الطائعين بالجزاء الجزيل علىٰ العمل القليل ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾

إن أقل الأعمال وأهون القربات تورث ما لا يسعنا وصفه من الخيرات والحسنات

وتلك الأيام والليالي التي نحن فيها عليها أنموذج واضح لذلك القدر العظيم

ليلة واحدة العمل فيها ببضع وثمانين عام

ليلة بألف شهر

لا تعجب فهو الشكور سبحانه

الشكور الذي لا يشكرك علىٰ قدر عملك ولكنه يشكرك علىٰ قدر كرمه

وهو ما لا تدركه العقول ولا الأبصار ولا يحيطون به علمًا وليس كمثله شيء

إن تذكر هذا المعني لا بد أن يملأ القلب بالحماس والرغبة في المتاجرة مع الشكور جل وعلا

الشكور الذي يربحك أعلي الأرباح علىٰ أقل الأعمال وأيسرها

كم عمل بسيط وذكر يسير يكفر أعتىٰ الذنوب ويمحو الله به أعظم الخطايا

فها هي مئة تسبيحة بحمد الله تكفر ذنوبك ولو كانت كثل زبد البحر

وها هو استغفارك للمؤمنين والمؤمنات تنال به أكثر من «مليار» حسنة بكل مؤمن حسنه

وذكرك في السوق موطن الغفلات ومرتع الشهوات تنال به «مليون» حسنة ويحط عنك «مليون» خطيئة وترفع به مليون درجة ويبني لك بيتًا في الجنة نعم والله مليون كما صرح بذلك النبي بلفظ ألف ألف.

وصلاتك ووضوءك وعيادتك للمريض وغير ذلك من الأعمال اليسيرة التي لها من الفضائل ما لا نستطيع حصره في هذه السطور ومكانها كتب الفضائل

الشكور لا يشكرك علىٰ مجرد العمل وإنما علىٰ تفاصيل العمل أيضًا فالأجر ليس فقط علىٰ الصلاة ولكن من بداية الوضوء والثواب مستمر حتىٰ آخر قطرة

ويستمر الأجر بإذنه علىٰ كل خطوة وتسبيحة ودعوة بل وعلىٰ كل حرف تتلوه من آياته فسبحان من يشكر علىٰ تفاصيل العمل

بل إنه يكافئك علىٰ ما لم تفعل بعد وإنما فقط هممت أن تفعل ويثيبك علىٰ الترك إن كان لأجله وابتغاء مرضاته فتبارك الشكور

والأعجب أنه يشكرك إن صدقت وأخلصت علىٰ ما قد يأنف منه البشر ألم تر إلىٰ خلوف فم الصائم كيف أنها أطيب عند الشكور من المسك

إن شئت فانهل ولاتبخل علىٰ نفسك بالعشرات بل المئات من أسباب المضاعفة التي لاتقل إن لم تزد عن فضائل تلك الأيام الحاسمة التي نحن فيها

❊ ❊ ❊

والجنة ثمرة الشكر وفيها ﴿يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور﴾

وفيها تتجلىٰ تلك الصفة العظيمة من صفات الله

صفة الشكر

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾

والتقاء صفة المغفرة مع صفة الشكر في أولىٰ كلمات أهل الجنة بعد دخولها له دلالات وإشارات

فذنوب مانعة ومعاص وخطايا موجبة للعذاب يحتاج المرء لمغفرتها ابتداء ليزحزح عن النار ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾

هنا تأتي مناجاتهم وثناؤهم علىٰ الله أولًا باسمه الغفور الذي لولا أن عوملوا بمقتضاه لكانوا الآن يتفحمون في النار

ثم يعاينون جنة مبهرة مذهلة عرضها كعرض السماء والأرض وسقفها

عرش الرحمن وملاط قصورها المسك وأنهارها العسل واللبن والماء غير الآسن

يعاينون كل هذا الإبهار ثم يقارنوه بضعفهم وتقصيرهم وقلة زادهم فيعلمون أنهم إنما يعاملون بهذا الاسم الذي تتجلىٰ به تلك المضاعفة المبهرة التي يعاينوها ويقبلون علىٰ التقلب في نعيمها

هنا تخرج المناجاة تلقائة من أفواههم يثنون فيها عليه

علىٰ الشكور جل وعلا

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾

❁ ❁ ❁

ولقد اقترن اسمه الحليم بإمساك السموات والأرض وحفظهما من الزوال: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

فلولا حلم الله جل وعلا وعدم مؤاخذته الآنية للظالمين بظلمهم والعاصين بمعصيتهم ما ترك علىٰ ظهرها من دابة

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾

ولكنه يؤخرهم

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾

وكثير من الناس بدلًا من أن يتعاملوا مع حلم الله علىٰ أنه فرصة تجدهم علىٰ النقيض يغترون به ويظنون أنهم قد مروا فلا مانع من مزيد غي وامتداد في ظلم النفس والغير وما ذلك إلا من قلة معرفتهم بالله جل وعلا وبمعاني

حلمه ومقاصد إمهاله وحكمة إملائه

وإن هذا التأخير والإمهال ليس مطلقًا إلىٰ الأبد ولكن المحكم من كلامه أنه يكون لأجل مسمىٰ يعلمه هو سبحانه فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون

فيا من غرك حلمه وتواكلت علىٰ إمهاله وتغافلت عن إملائه فظلمت وطغيت وفسدت وأفسدت وعلوت في الأرض واستعليت . . انتبه

انتبه فإن أجل الله إذا جاء لا يؤخر

وإن ظننت أنه تأخر

تعامل مع كل دقيقة بل كل لحظة يمهلك فيها علىٰ ما كان منك علىٰ أنها فرصة جديدة أعطاك الحليم جل وعلا إياها لا لتغتر بها ولكن لتغتنمها وترجع إليه

سورة يس

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾

صفتان جعلهما مؤمن سورة يس علة الاتباع الذي ينصح به قومه وحجة وصيته لهم

عدم سؤال الأجر

والهداية

وهاتان الصفتان من أهم مناطات الاتباع علىٰ الإطلاق

أن يكون الاتباع للمخلصين الذين لا يطلبون شيئًا لأنفسهم

أي شيء

لا يسعون لجاه ولا يطمعون في مال ولا يبتغوة شهرة ولا ثناء بدعوتهم

وإن من أبرز موانع القبول ومن أشد أسباب النفور من الدعاة ضد تلك الصفة

أن يشعر المدعو أن الداعي يريد شيئًا منه

يريد ماله أو ثناءه أو حتىٰ انقياده وتهليله لكل خطواته

أن يشعر أنه يريد دنيا أو شيئًا من عرضها الزائل ووجاهتها الفانية

وهم مهتدون

ومحل الهداية الوحي المنزل ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

فالمستحق للاتباع هو ذلك المهتدي بنور الوحي والمسترشد بتوجيهات التنزيل

إذن فهم المخلصون المتجردون المهتدون

هم الهادون المهتدون المستغنون عن الناس والمفتقرون لرب الناس

و هؤلاء هم الأحق بالاتباع

❀ ❀ ❀

ولم تكن دعوته لنفسه ولم يكن مطلبه لذاته ولم يجعل مسعاه لمصلحته بل أعلن تجرده في مفتتح كلامه قائلًا: اتبعوا المرسلين

لقد كانت دعوة متجردة نقية

كانت صدعًا بحق خالص لا تشوبه من شوائب حظ النفس شائبة

فهؤلاء المرسلون الذين لا يسألونكم أجرًا ولا يطلبون شيئًا لأنفسهم هم الأولىٰ بالاتباع،

كان هذا لسان حال حبيب النجار وما لخصه لسان مقاله في كلماته التي خلد ذكرها المولىٰ في كتابه قائلًا:

﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾

لقد كان تجردهم قدوة لتجرده وإخلاصهم أسوة لتفانيه ولذا لم يطلب هو الآخر أجرًا ولا طمع في مقابل وهو يضع نفسه كجزء من منظومة الصدق المتكاملة التي كان هدفها الأوحد إعلاء كلمة الله وتوحيده بالعبادة

والقصد وبذل الوسع لإبلاغ الرسالة

بلا أجر

ولا مقابل

❀ ❀ ❀

لم تكن الحاجة إليه ماسَّة ولم يكن الأمر عليه متعينًا

إن في مدينته أنبياء

ليس نبيًّا واحدًا ولا اثنين بل كان هنالك ثلاثة أنبياء

وهو رجل عادي من عوام الناس فماذا عساه أن يزيد عليهم أو أن يضيف؟

ما الفارق الذي يمكن أن يصنعه في وجود كل هذا العدد من أفاضل الخلق وأحسنهم بيانا وأبلغهم حجة ومنطقًا؟

وهل بعد تكذيب مدينته لأولئك المعصومين يُنتظر له استجابة أو يُظن به قدرة علىٰ التأثير؟!

ربما دارت كل تلك الأسئلة والخواطر في ذهن حبيب النجار بينما هو في طريقه من أقصىٰ المدينة ساعيًا مُجِدًّا في سيره ليبلغ مكان اجتماع الناس ومنتداهم

ولربما استرجع في تلك اللحظات ما لقيه المرسلون من عنت وصدود وتكذيب

ولعله قد دارت بخلده مشاهد الإهانة والتوبيخ التي قوبل بها أولئك الأخيار والتي تجعل غالب الظن بعد كل ذلك أن يلقىٰ ما لقيه أئمة الحق أو

أشد لكنه مع ذلك ما انفك عن السعي وما تباطأ به المسير أو قعد عن البذل!

إنه رجل يعرف هدفه جيدا ويدرك أبعاد قضيته بشكل واضح ويعلم أن مناط تلك القضية ليس مطلق ترتب الثمرة ولا حصول الاستجابة فتلك أمور بيد مولاه، لكن الصدع بالحق كان هو مبتغاه والبلاغ عن الله كان هو غاية مسعاه والدلالة علىٰ الخير وأهله هي مطلبه ومبعث رضاه

لذلك جاء ..

ومن أقصىٰ المدينة سعىٰ ..

ومن أعمق أعماق نفسه صدع: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ ..

❁ ❁ ❁

قيل ادخل الجنة

ها قد جاء الإذن وتم الفضل واكتملت النعمة

أدخل الجنة؟!

الحلم الذي طالما راوده والأمل الذي لم يغادر فؤاده والغاية الذي لأجلها عاش وعليها مات

قد صارت الآن رأي العين

قد كلل مسعاه بالنجاح وتوج جهده بالراحة والفلاح

أوحقًّا يا أذنيه ما تسمعان

يدخل الجنة؟!

الآن؟!

يا لفرحة قلبه ورضا نفسه

ياليت قومي يعلمون . . .

يا ليتهم يعلمون

يا ليتهم يدركون

يا ليتهم يفقهون

بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين

قومك؟!

أوتسأل حقًّا عن قومك؟

أوتأبه بهم صدقًا؟

أتلتمس حالهم وتبتغي علمهم؟

أولئك الذين استضعفوك وآذوك

بل قتلوك

أم تراك قد نسيت؟

لماذا تسأل عنهم؟!

ليس عليك هنا تكليف ولا ثواب أو عقاب فما دافعك للسؤال؟

ما محرك رغبتك في الدعوة والبلاغ وحرصك علىٰ هداية الناس؟!

أهو دأب الصالحين الذين هم كالنحل لا يضعون إلا طيبًا؟!

أم هو حرص المؤمنين الذين يحبون للناس ما يحبونه لأنفسهم؟

أم تراها المعرفة؟!

معرفة الله ﷻ التي متىٰ خالطت القلب بشاشتها نضحت علىٰ الجوارح وتهللت بها الأسارير وانعقد عليها العزم واجتمعت عليها النية صار لصاحبها هذا السمت

سمت العارفين الذين ذاقوا فعرفوا وعرفوا فاغترفوا ففاضت معرفتهم وخرجت لتظهر علىٰ أقوالهم وأفعالهم

وبدون تكلف أو افتعال

هكذا كان في الدنيا حين جاء من أقصىٰ المدينة يصيح داعيًا قومه

دون تكلف

ولا افتعال

فقط ذلك الحرص والرغبة في الهداية للجميع

❁ ❁ ❁

﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾

كثيرًا ما يستعمل لفظ المجيء في كتاب الله عند وصف حركة الداعين إلىٰ الله وأصحاب الرسالات

إنهم قوم لا ينتظرون في بيوتهم أو علىٰ أرائكهم الوثيرة

إنهم قوم لا يكتفون بتلك الدعوة الوجيهة التي تتصدر بها المجالس

وتحتشد بالمريدين والمحبين ويشار إلىٰ صاحبها الوجيه المهيب بالبنان

للأسف البعض ظن أن هذا المشهد الأنيق الوجيه للمحاضر الذي يلتف حوله المريدون هو المشهد الوحيد والمبتغىٰ لمن سلك سبيل الدعوة إلىٰ الله

وهذا وإن كان مقبولًا في مواطن التعلم الأكاديمي فإنه لا يصح أن تقتصر عليه النظرة والتصور

إن حملة الرسالة الصادقين يتحركون لبلاغ رسالتهم ويأتون أقوامهم ويبحثون هم عن المدعو حيث كان ولا ينتظرونه حتىٰ يأتيهم راغبًا وحده

تلك الحركة والإتيان والمجيء هي الأقرب لهدي الأنبياء والمرسلين

وهي سلوك من تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين من أولئك الغيورين الباذلين المضحين

❀ ❀ ❀

ولا تظن أن عملك ينتهي بمجرد انتهائه

عملك له آثار ونتائج خصوصًا إن كان عملًا متعديًا وليس قاصرًا علىٰ خاصة نفسك

وهذه الآثار تكتب

﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾

وإن أناسًا قد حطوا رحالهم في الآخرة منذ سنوات وربما قرون ولم تزل آثارهم إلىٰ اليوم شاهدة عليهم محسنين كانوا أو مسيئين

لم تزل معاصيهم الجارية وبدعهم المستمرة وإضلالهم للخلق تثقل موازين سيئاتهم حتىٰ بعد موتهم لتنافس موازين المصلحين الذين تركوا خيرًا

جاريًا يستجلب لهم الدعوات والترحمات التي تضيء تلك الصحائف وتبيض محل الإحصاءات المستمرة

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

ترىٰ . . . كيف ستكون آثارك؟!

❀ ❀ ❀

وإن من الناس من يظن أن صدعه بما يراه حقًّا وجهره بما يعتقده صوابًا وصدقًا إنما هو مرتهن بمظنة استجابة الناس له وطلبهم لسماعه وقبولهم لقوله، فإن غلب علىٰ ذلك الظن أنهم سيستجيبون نطق وإن آنس منهم رغبة في سماعه صدع، وإن كانت الأخرىٰ سكت وكتم وأعرض؛ قد طابت نفسه وارتاح ضميره بمسكنات «لا فائدة» ومهدئات «هلك الناس» ونسي هؤلاء أو تناسوا أن المرء إنما يصدع لينجو، وإنما ينصح لِيُرضي ربًا لم يتعبده بالنتائج ولم يكلفه بالثمار، وأنه أحوج إلىٰ النطق بالحق والجهر به ممن يسمعونه سواء أستجابوا له أم لم يستجيبوا،

ولئن كان من متعذر عن قول الحق والنطق به والصدع بكلماته بدعوىٰ مظنة التكذيب وتوقع عدم الاستجابة لكان مؤمن سورة يس أولىٰ الناس بذلك السكوت

لقد كان في قوم لم يكذبوا نبيًّا واحدًا ولا نبيين بل كذبوا ثلاثة أنبياء فلم يقبلوا منهم حقًّا ولم يصدقوا منهم حرفًا وما استجابوا لهم

لكنه لم يفعل . .

بل جاء من أقصىٰ المدينة يسعىٰ قائلًا: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

أي همة تلك

وأي إصرار لدىٰ رجل كان من الممكن أن يتعذر بحجة وجود الأنبياء وقيامهم بواجب الصدع والبلاغ

كان من الممكن أن يقول لا فائدة وهؤلاء قوم لم يستجيبوا لثلاثة أنبياء فهل يستجيبون لي أو يستمعون لقولي

لكنه لم يفعل . .

لم يحقر نفسه أو يتعذر بعدم أهمية قوله أو يحتج بقلة قيمة صدعه

بل جهر ونطق ونصح ووعظ وصدع وأعذر

حتىٰ بعد موته ظلت رغبته في هداية الناس يقظة وحرصه علىٰ نصحهم وإرشادهم متأججًا فقال حين عاين النعيم وأبصر الجنة ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾

وقد كان من الممكن في هذا المقام أن ينشغل عن كل ذلك بالطيبات التي أكرم بها وينسىٰ واجب البلاغ

لكنه أيضًا

لم يفعل . .

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ . .

كلمات نورانية رقراقة تخاطب العقل والروح معا في آنٍ واحد، نطق بها الرجل في هذه الظروف العصيبة ورغم كل ذلك التكذيب وتلك العوائق والعقبات التي واجهت من هم أعلىٰ منه منزلة وأجل قدرًا

ولقد أعذر

فأي همة تلك؟!

وأي إصرار هذا الذي استقر في نفس رجل كان من الممكن أن يتعذر بحجة وجود الأنبياء وقيامهم بواجب الصدع والبلاغ

وأي حرص هذا الذي بدا علىٰ كلماته وأفعاله؟!

إنه الحرص علىٰ أن يعلم الناس عن ربهم مهما كان الثمن

ولئن كان الثمن حياته نفسه فسيدفعها عن طيب خاطر

ولقد دفعها

قتله قومه

ومع كل ذلك لم ينقطع أمله في هدايتهم ولم يتكاسل عن نصحهم وبذل الوسع في الأخذ بأيديهم طالما كان فيه عرق ينبض بل استمر علىٰ شأنه هذا حتىٰ بعد أن لم يعد ذاك العرق ينبض وانتقل إلىٰ دار القرار!

نموذج عجيب ونمط فريد لكنه ليس نموذجًا وحيدًا

فلطالما كان هناك رجال لم يحقروا أنفسهم بل قاموا وقالوا الحق كما قاله ولطالما وُجد الفتيان الذين لم يخافوا في الله لوم اللائمين ولا قمع الطاغين أو بطش المفسدين،

ولكم تكرر هذا المعنىٰ في كتاب رب العالمين

ولكم ترسخ هذا المفهوم في كلام سيد المرسلين

ولتستقر تلك العقيدة ولتضرب تلك القيمة بجذورها في قلوب المؤمنين.

قيمة البلاغ والصدع بالحق والرغبة في هداية الخلق بغض النظر عن الظروف والمعاملات والمؤثرات المحيطة وبدون تعليق الأمر علىٰ مظان الاستجابة من عدمها

إنها قيمة غرس الفسيلة حتىٰ لو كان ذلك بين يدي الساعة وتيقن استحالة إدراك الثمرة

فما بال أقوام يتعذرون ويتلكؤون، وعن قول الحق والصدع بالنصح هم معرضون، ورغم الحاجة إليهم هم مبتعدون، وعن قومهم هم محتجبون، ولقضايا أمتهم هم مهملون، فمتىٰ يظهرون، وإلىٰ ربهم يعذرون، ولأمتهم ينصحون، وللواء قضيتهم يرفعون، متىٰ عساهم يشعرون ويحيون بقيمة: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾

❁ ❁ ❁

والتمايز بين المسلمين والمجرمين مقصد شرعي أصيل لكنه ربما لا يحدث في الدنيا بتمامه وكماله فيظل البعض يتقنع بأقنعة المتقين ويتخفىٰ في دثار المؤمنين ويختلط الحابل بالنابل

لكن يأتي يوم القيامة ويتم التمايز ويظهر كل بوجهه الحقيقي فلقد حان الوقت وصدر الأمر

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾

❁ ❁ ❁

﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾

فعززنا

إنها ليست كلمة وحسب

إنها رؤية وتصور وسلوك

هكذا ينبغي أن تكون نظرة العاملين للدين لبعضهم البعض

إنهم تعزيزات وعون وسند لبعضهم البعض

لا ينبغي أن تحملهم المنافسة علىٰ الخيرات إلىٰ أحقاد الأقران وضغائن الأشباه فتتحول إلىٰ منافسة علىٰ دنيا أو شهرة

أخوك تعزيز لك

وأنت تعزيز له

ولو فتح علىٰ يديه فهذا شيء يسعدك

فمرادكما واحد وغايتكما واحدة

أو يفترض أنها واحدة . .

سورة الصافات

﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾

وهل رأىٰ أحد من قبل شيطانًا؟!

هل يعرف أحدا شكل رأس الشيطان؟!

كيف إذًا يتم التشبيه بشىٰء غير معلوم لنا والأصل أن يكون التشبيه لتقريب صورة معينة للأذهان

الحقيقة أن الصورة وصلت

فرغم غموض التشبيه إلا أن ذلك الغموض ألقىٰ بظلال مرعبة أسمهت في غرس فائدة مزدوجة لمن يقرأ هذه الآية بتدبر

فمنها استبشاع شديد لشجرة الزقوم طعام الأثيم

ومنبع الاستبشاع ناتج إلىٰ أن مقام الشيطان في القلب هو مقام كراهية وبغض أو علىٰ الأقل تربص ومعاداة فطرية وبالتالي فإن تصور شكل رأسه غالبًا سيكون فرعًا عن تلك الكراهية والتربص

ومنها مزيد من التبغيض في الشياطين الذين تذكر رؤوسهم في تلك السياقات النارية المخيفة

نعوذ بالله من ذلك الطعام ومن تلك الشجرة ومحلها

نعوذ بالله من النار

❁ ❁ ❁

هبَّ نبىٰ الله إبراهيم عليه السلام من نومته

لقد ثبتت الرؤيا واستقر الوحي ورؤىٰ الأنبياء حق

لقد صدر الأمر بالتضحية وجاء موعد البلاء المبين

بعد كل تلك البلاءات المتتابعات من جفوة الأهل وإلقائهم إياك في برد الجحيم وارتحال في البلدان أليم ومراودة لزوجك من أفاك أثيم وتركك لذريتك في واد غير ذىٰ زرع عن الماء عقيم

بعد كل ذلك يأتىٰ البلاء المبين وتكون وولدك عند حسن الظن يا إبراهيم

لقد أقدم الخليل علىٰ تلك التضحية التي لا توصف وقال الكلمات لولده الذي طالما انتظره وها هو قد بلغ معه السعىٰ واشتد عوده وآن الوقت ليكون له سندًا وعونًا فإذا به يؤمر بذبحه

ترىٰ كيف كانت مشاعره في تلك اللحظات وهو يتفرس في وجهه

كيف كان حال قلبه المتدفق بمشاعر الأبوة الحانية وهو يردد علىٰ مسامعه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾، فقال الولد الصالح الذي ورث عن أبيه الخليل أدبه مع الرب الجليل ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

فلما أسلما وخضعا واستسلما ورقد الغلام علىٰ وجهه وصار للأرض الجبين ولامس العنق السكين رفع البلاء المبين وحدث الفداء من الكريم

وقال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

هذا المشهد الذي يحمل أسرارًا عميقة ومشاعر يعجز القلم عن وصفها تلخصه كلمة واحدة

إنها التضحية

التضحية التي ربما لم يعرف العالم مثلها

قد يجوع المرء ليشبع ولده ويتحمل البرد ليدفئ ولده وقد يحرم نفسه من اللذة والمتاع ليهنأ فلذة كبده

أما والد يقدم علىٰ ذبح ولده امتثالًا لأمر مولاه ودون لحظة تردد!!

إن هذا لشيء عجاب

وبيده هو وليس بيد غيره

ورغم ذلك يقبل

ويقبل الولد وكأنما يقولان للعالم بلسان الحال: لا نقدم شيئًا علىٰ تعظيمنا لله

لا شيء يقف بيننا وبين مراد الله

لن يعطلنا عن إرضائه وامتثال أمره شيء ولو كان أقرب الناس إلىٰ قلوبنا وفلذات أكبادنا

هذا في تقديري أهم معنىٰ ينبغي أن يستقر في قلوبنا بينما نتأمل تلك القصة القرآنية

معنىٰ التضحية

المعنىٰ الذي لا يستقر إلا في قلب المعظم

ولهذا كان يوم النحر هو اليوم الأعظم

يوم التعظيم

يوم الإعلان والصدع بهذه القيمة

أنه لا شيء ولا شخص ولا محبوب ولا مرغوب ولا مرجو أعظم في قلبىٰ من الله وأننىٰ علىٰ استعداد لأن أضحي بكل شيء في سبيل رضاه

لهذا استحق أن يكون الأعظم

❁ ❁ ❁

والتضحية في الحقيقة هي نتيجة التكبير والتعظيم وليس العكس

فالأصل هو التعظيم وحينما يأتىٰ التعظيم وتكبير الله بصدق تأتىٰ التضحيات والمجاهدات وتظهر البطولات وتتحدد الاختيارات

فالتضحية قرينة التعظيم ونتيجته

وما من مضحٍ يضحي إلا إن كان معظمًا لما يضحي لأجله فتهون بالمقارنة قيمة أي شيء يضحي به

أو أحب ماله إليه كما في فعل سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ حين شغلته الصافنات الجياد عن ذكر ربه فطفق مسحًا بالسوق والأعناق وذبحها قربانًا إلىٰ الله معلنًا أنه لن يقف شيء بينه وبين طاعة مولاه

وحتىٰ لو كان ولده!

﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾

بل حتىٰ لو كانت نفسه

لذا كان للشهادة تلك المنزلة العظيمة التي ما نالها صاحبها إلا لأنه اختار أن يضحىٰ بنفسه في سبيل الله عن طيب خاطر وذلك من تمام التعظيم والتكبير المستقر في قلبه فهو بلسان الحال قال:

الله أكبر من كل مخاوفي ومرجواتي ومقامه في قلبي أكبر من كل شيء حتىٰ من حرصي علىٰ حياتي ونفسي

ولقد كان حال المضحين دومًا مثار استعجاب ودهشة لمن لم يدرك هذه القيمة

قيمة التعظيم

فما أقدم إبراهيم علىٰ تضحيته بولده إلا لأن مقام الله كان في قلبه أعظم

وما ضحىٰ يوسف بحريته ومكانته وأعلن أن السجن أحب إليه إلا لأن خشية الله في قلبه أكبر

وما جاد صهيب الرومىٰ بماله كله أثناء هجرته إلا لأنه حبه لله ورغبته في رضاه كانت أظهر

وما كان خبيب يبالي حين يقتل مسلمًا علىٰ أي جنب كان في الله مصرعه إلا لأنه معظم

وما قال سعد لأمه حين حاولت فتنته عن دبه بقتل نفسها : لو أن لك مائة نفس خرجت كلها نفسًا نفسًا ما تركت ديني فكلي إن شئت أو لا تأكلي. إلا لأن حبه لله أكبر

وما أقدم عبد الله بن عبد الله بن سلول علىٰ قتل أبيه حين سب نبيه ﷺ إلا لأن إرضاء الله كان في نفسه أهم

وما قام حنظلة غسيل الملائكة ملبيًا نداء المنادي يا خيل الله اركبىٰ ومضحيًا بليلة عرسه ثم بعد قليل نفسه إلا لأنه أحب الله أكثر وعظمه أكثر

وكذلك كان حال كل شهيد صادق وكل منفق مخلص وكل مضح محتسب

التعظيم

والتكبير

❁ ❁ ❁

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

ذلك هو السؤال الذي ينبغي أن يسأل لكل بعيد عن الله

ينبغي أن يسأل لكل من يأس أو قنط من روح الله

ينبغي أن يسأل لكل من ابتغىٰ فضلًا عند غيره أو عزًّا ممن سواه

إن هذا هو مربط الفرس ومناط التكليف

ما الظن برب العالمين

هل هو ظن القوم البور عياذا بالله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾

هل هو ظن الجاهلية: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾

هل هو ظن المنافقين والمشركين: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾

أم هو ظن أعداء الله ممن قيل لهم: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

كل هذه وغيرها إجابات مريعة لذلك السؤال الحاسم

فما ظنكم برب العالمين؟!

سل نفسك وقبل أن تجيب تذكر قوله:

(أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء)

(إنْ ظَنَّ خيرًا فَلهُ)

(وإنْ ظَنَّ شَرًّا فَلهُ).

❁ ❁ ❁

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾

أبق!!

يالها من كلمة

العبد الآبق هو العبد الهارب من سيده

إنها كلمة تحمل معاني العبودية وتظللها ظلال المعتبة الربانية

لكن ما مقامها هنا؟

وهل تفلت يونس من عبوديته لله كما يفعل العبد الهارب من سيده؟

الجواب: لا

حاشا وكلا

لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن متَّىٰ

هكذا علمنا رسولنا ﷺ وهكذا الظن بيونس عليه السلام

لم يزل علىٰ أصل الإيمان والعبودية وهو من المرسلين

إذن فلماذا هذا اللفظ - أبق

لفظ شديد الوطأة ومعتبة ثقيلة

لأنه لم يستأذن . .

العبودية الكاملة المنتظرة من مثله ألا يتحرك مثل هذه الحركة وألا يتخذ مثل هذه الخطوة الجذرية من دون أمر

ويونس قرر أن يرحل عن أمة كذبته قبل أن يأتيه الأمر بذلك

فسمي فعله أبْقًا أو إِباقًا

ما كان لمثله أن يتعجل الثمرة وما كان ينبغي له أن يغادر قبل أن يؤذن له

لذلك كان البلاء

وتراكبت الظلمات منبهة إياه أن ثمة مشكلة

وتلك من حكمة نزول البلاءات

التنبيه والتذكير

ولقد انتبه يونس

وآب وأناب

ونادىٰ في الظلمات معترفًا وسبح نادمًا مستغفرًا تائبًا

ولقد اخترق صوته حجب الظلمات ونفذ عبر طبقات الأمواج وسحائب الليل البهيم

وسمع صوته في الملأ الأعلىٰ

وهو صوت مألوف

ومحبب إلىٰ النفوس

صوت طالما سمع هنالك مسبحًا متبتلًا خاشعًا

إنه كان دومًا من المسبحين

ولولا سابق طاعته وسالف ذكره للبث حتىٰ تقوم الساعة وهو في تلك الظلمات

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾

﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

لكنه لم يلبث

وخرج

ونجا

فإن له مقامًا وقدرًا

مقامًا لم يكتسبه بمحاباة وقدرًا لم يبلغه بمجاملة

بل هو فقط سالف الذكر وسابق العبادة والقربىٰ

﴿كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾

ترىٰ . .

ما صفتك وسالف عهدك الذي لولاه تلبث

❁ ❁ ❁

سورة ص

غريب مس ضر الأنبياء والأولياء ممن طهرت نفوسهم من الآثام، وصحائفهم من الخطايا،

أني مسني الشيطان بنصب وعذاب، تستمر المناجاة وتتصاعد الشكاية،

ليس منك يا رب، وإنما إليك، فالخير بيديك، والشر ليس إليك،

لم يقل أيوب: ابتليتني، أو: اختبرتني،

بل نسب الفعل للشيطان،

و هكذا حال المحبين،

لا ينسبون الشر أبدًا لمحبوبهم،

لكأني بك يا أيوب، تتشبه بأخيك يوسف سلام الله عليه، حين قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾،

وكذا من بعدك قال الكليم موسىٰ عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ﴾،

وكذا قال فتاه عليه السلام وما أنسانيه إلا الشيطان،

سلام علىٰ من علموا الدنيا الأدب مع الله،

وسلام عليك يا أيوب،

* * *

لكن ما هذان الظلان اللذان يتسوران المحراب؟؟!!

ما قصدهما بذلك الاقتحام الذي لا شك أنه سيفزع الناسك المتعبد في محرابه، والذي لا يتوقع تعكيرًا لصفو خلوته، ولا قطعًا لطريق عزلته . .

﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾

لا تُشطط!

وهل يقال هذا لمثله؟!

إنه نبي مرسل، بخلاف كونه ملكًا حاكمًا، فليس تناسبه حتمًا تلك اللهجة

وهل مثل هذا النبي العابد، يتوقع منه إلا كل عدل واعتدال، ومجافاة لكل شطط وزيغ وضلال؟!

لو أنه ملك غير هذا المتواضع، خافض الجناح، لكان له معهما بخصوص أسلوبهما واقتحامهما شأن آخر . .

لكنه تغاضىٰ عن ذلك وتعامل معه كنصح وتذكير

هيا أخرجا ما عندكما، واعرضا مشكلتكما، فها هو العابد قد تأهب لأداء واجبه، والقيام بأمانته . .

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾

الأمر يسير

والحكم جلي غير خفي ولا عسير:

﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ﴾

هذا هو خالص الحكم علي التمام ..

بالطبع رجل لديه مائة نعجة إلا واحدة، يطمع فيما عند أخيه الذي لا يملك إلا واحدة، ليتم المائة، ظلم واضح، وجور فادح ..

أي ظلم هذا الذي أوقعه بك أخوك الغني؟!

للأسف هذا حال كثير من الشركاء، إلا من من الله عليهم بالإيمان والصلاح، وما أقلهم ..

ثم خرّ النبي داود راكعًا ساجدًا

هي سجدة ندم وتوبة،

واستغفار

فيا لورعك أيها الناسك!

أنعم بك من رجاع أواب!

ياليت كل الحكام والقضاة مثلك يا داود ..

لا يعنينا كثيرًا تفاصيل لماذا سجد وعن ماذا استغفر وما طبيعة الفتنة التي ظن أنه فيها قد وقع، وفىٰ ذلك وفي ذلك اختلف المفسرون

ما يعنينا أنه قد سجد

أنه قد رجع ..

وأنه استغفر.

رغم سعة ملكه، وقوة بأسه استغفر فما استكبر ..

ألا هكذا فليكن الحاكم والقاضي

لا يستكبر عن مراجعة ولا يستنكف عن توبة وأوبة وندم واستغفار

❁ ❁ ❁

والبغي كثير في الدنيا

تلك قاعدة قرآنية

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾

تعاملات الخلق وأفعالهم وسلوكياتهم تمتلىٰء بالظلم

وكذلك الخلطة بالناس

لذا قرن الحبيب ﷺ بين مخالطة الناس والصبر علىٰ أذاهم فهذان قرينان لا ينفكا عن بعضهما البعض تقريبًا: (والذي يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم أفضل)

لكن قلة قليلة تبرز من بين غثاء البغي وسحائب ظلم الخلطاء

قلة لا تنطبق عليها تلك القاعدة الغالبة

إنهم خلطاء أيضًا يتعاملون مع الناس ويتعايشون معهم لكنهم مستثنون من البغي المنتشر

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾

إنهم الخلطاء الحريصون علىٰ الإيمان وصلاح العمل

﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡۗ﴾

هذه هي الحقيقة

هم قليل

لكنهم موجودون

فاحرص أن تكون منهم

من القليل

❀ ❀ ❀

والمحب المعظم لا يرضىٰ أن يحول شيء بينه وبين ذكر حبيبه والأنس به

حتىٰ لو كان الذي يحول بينه وبين ذلك الأنس والتقرب هو أحب ماله إليه

شعاره لن يقف شيء في طريقي إلىٰ الله

لن يحول شيء بينه وبين رضاه

لن يعطله مخلوق عن ذكره والأنس بمولاه

هكذا فعل سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ

ما إن شغله مشهد الخيل المطهمة والجياد المبهرة وعرضها البديع المتناسق، ما إن شغله عن ورده اليومي من الذكر وقيل عن صلاة العصر إذا به يعاتب نفسه

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾

فهل رضي بذلك

هل تعايش مع تلك الشواغل

لا

فبل نادىٰ بحسم وحزم: رُدُّوهَا عَلَيَّ

فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ

لقد ذبحها قربىٰ لله

فليطعم الناس من لحمها وليتصدق بوافر خيرها

والأهم فليُرِي الله منه خيرًا

وليثبت عمليًّا أنه لن يعطله شيء عن الله

وأنه لا شيء في هذه الدنيا أحب إليه من ذكر الله والأنس بمولاه

❁ ❁ ❁

ولقد خص الله عباده إبراهيم وإسحاق ويعقوب بخاصيتين متكاملتين لا ينبغي أن يحقر من شأن أحدهما والجمع بينهما أولىٰ من إهمال شيء منهما

إنه العمل والنظر

القوة والبصيرة

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾

لم يقل فقط أنهما أصحاب قوة وبأس منصرفين إلىٰ العمل من دون بصيرة ولا فهم أو نظر

ولم يقل ضد ذلك أيضًا

بل هو التوازن المعتاد في سائر مواضع هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

التوازن بين العلم والعلم

بين الفهم والقوة

بين العقل والجوارح

وبين التنظير والتطبيق

فلا إسراف في جانب أو تقصير في الآخر

أولي الأيدي والأبصار

أصحاب القوة والفهم والحركة والعلم

ربما لا يتوافر ذلك التوازن في واقع شخص أو فئة غير معصومة كما توفر في الأنبياء لكن عليهم أن يبذلوا الوسع ليصلوا إليه أو علىٰ الأقل ينبغي أن يفهم عدم التحقير من شأن جانب منهما وينبغي أن يفقه احتياج الأمة للتكامل بين أصحابهما

بين أولي الأيدي

وأولي الأبصار

❁ ❁ ❁

لا تستهن أبدًا بذكر الآخرة ولا تزهد فيه مقللًا من شأنه

إن أقوامًا سبقوا بذاك الذكر وكان تفكرهم في الدار الآخرة وحملهم لهمها سببًا في استخلاص الله لهم وتفضيلهم

﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾

ذكرىٰ الدار

دار القرار

إنها الخالصة

والمخلِّصة

فتأمل . .

❁ ❁ ❁

﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾

هكذا قال ربنا عن أيوب عليه السلام

وعلىٰ ذلك وجده

صابرًا محتسبًا

ورغم عظم البلاء راضيًا متعبدًا أوابًا منيبًا

فلما وجده علىٰ هذا الحال وذاك الجهد قال: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾

علىٰ ذلك الحال وجده

ترىٰ كيف سيجدني ويجدك؟!

❁ ❁ ❁

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾

هاهنا قياس فاسد قاسه إبليس

ومحل فساد القياس ليس في كون الطين خير من النار فإن ذلك قابل

للاحتمال والأخذ والرد والجدال في كون الطين أنفع أم النار

إن محل فساد القياس في أصله وحقيقته

لقد صدر الأمر الإلهي وقضىٰ الله أن يسجد

إنه أمر صريح محكم واضح قاطع لا مراء في ظهور مدلوله ومآله

ففيما القياس إذًا

هنا يكمن الإشكال

ومن هنا كان الخلل الذي نتج عنه رفض الامتثال ثم بعد ذلك الكفر واللعن والطرد

الكبر موجود بلا شك وهو عنصر مهم في المشهد الإبليسي

لكن البداية كانت في قياس مع ورود الأمر

وإن الجرأة علىٰ ذلك هي عين الكبر

أن يرفض المخلوق أمر خالقه الثابت المحكم لمجرد أنه سمح لنفسه أن يقيس غيره

إن مساحات القياس وإعمال العقل موجودة ومتاحة لكننا هنا نتحدث عن مناطات التسليم والانقياد للمحكمات القطعية

نتحدث عن قبول فكرة الطاعة عند ثبوت الأمر من عدمها

نتحدث عن العبودية

وتلك هي مربط الفرس

وتلك التي لم يطقها إبليس

ومن سار علىٰ نهجه

سورة الزمر

ومن أكثر المعاني التي تكررت في سورة الزمر لفظًا ومعنىٰ الإخلاص والخلوص

﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾

إن أصل الخلوص هو النقاء التام من الشوائب والمعكرات

وإن سورة الزمر تضع ذلك المطلب في أولويات المسلم

أن يحقق الدين الخالص الذي أشير إليه في هذه السورة بهذا اللفظ المهيب

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾

هذا هو المطلب وهذا هو ما ينبغي توجيهه لله رب العالمين

دين خالص

دين بلا شوائب ولا منغصات

دين لا تعكر صفوه السبهات والشهوات

دين لا محبة خالصة فيه إلا لله ولا رغبة إلا إليه ولا رهبة ولا خشية إلا منه

هذا هو الدين الخالص

وهذا هو ما ينبغي لعبادتنا أن تكونه

وهذا ما ارتضاه الله لنفسه

ألا يكون مقامه في القلب أدنىٰ من دنياك أو خالص متاعك الذي لا ترضىٰ أن يشاركك فيه مخلوق

أفنرضىٰ لربنا ما لا نرضاه لأنفسنا

❁ ❁ ❁

وتلك الأيدي الآثمة التي طالما استحلت الحرام ومنعت حق المحرومين

تلك الأيدي الظالمة التي طالما بطشت بالمظلومين وزادت قهر المقهورين

تلك الأيدي الجائرة التي طالما أشارت أو وقعت علىٰ أمر بعذاب واعتداء علىٰ المساكين

تلك الأيدي الباغية التي طالما اجترأت علىٰ صفع المطحونين وقمع المستضعفين

تلك الأيدي القوية الضخمة التي لم تكن تأبه باتقاء أيدي المظلومين ولا دفعهم عن أنفسهم تحت وطأة غلظتها وقسوتها

تلك الأيدي في ذلك اليوم لن تنفعهم

ولن يستعملوها حتىٰ في الدفع عن وجههم واتقاء ألسنة النار الحارقة

إنها أيدٍ مغلولة هناك

وإن وسيلة الاتقاء هي تلك الوجوه التي طالما كانت مصعرة للناس في الدنيا

نعم كما قرأتها

إنهم يتقون النار بوجوههم

تخيل المشهد

إنه عذاب مزدوج يحمل إلىٰ جوار ألم الحرق ذل المهانة ومرارة العجز

أويتقىٰ بالوجه ويدفع به أم يدفع عنه

إنه الجزاء الوفاق للظالمين ممن ليس لهم خلاق

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

❁ ❁ ❁

ولو لم يكن في الشكر من فضل إلا أن مولاك يرضاه لك لكفىٰ

﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ﴾

فسبحان من جعل رضاه في شربة ماء يتجرعها العبد فيحمده عليها أو لقمة تلذذ وهو يلوكها بمعنىٰ الرزق فحمده عليه

سبحان من جعل رضاه في شكر وحمد

وعجبا لمن أبىٰ أن يرضيه

❁ ❁ ❁

وليخش أولئك الذين تستبشر نفوسهم وتتهلل أساريرهم وتفرح قلوبهم بعوارض الدنيا الزائلة ومتاعها القليل حين يذكر أمامهم فتطرب لذكره أفئدتهم وتحلو به مجالسهم وتطول بينما لا يطيقون سماع بضعة آيات من القرآن أو موعظة وتذكير بالله ولئن تكلفوا سماعها وجدتهم يتململون ويتأففون وفي ساعاتهم ينظرون يستعجلون الانتهاء ويودون الفراغ من ذلك السماع ومواصلة ما تستبشر له قلوبهم من أحاديث

فليخش هؤلاء أن يكونوا قد تلبسوا بصفة من صفات أهل هذه الآية

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾

❁ ❁ ❁

سألني وما الذنب الذي لا يغفر أبدًا؟

ما الذنب الذي لا تسعه مغفرة الله

فلم أجد إلا قول ربي أجيبه به

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

إن المخاطبين بهذه الآية ليسوا معصومين وعن الخطأ منزهين

إنهم عصاة خطائين

لكن ربهم ناداهم

ناداهم يا عبادي وهم عصاة

ليسوا فقط عصاة بل مسرفين

لكن حتىٰ مع إسرافهم لم يزل باب العودة مفتوحا فكل ذنب يغفر بالتوبة

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾

مهما كنت مسرفًا عاصيًا إياك أن تقنط

إياك أن تفقد الأمل أو تيأس وتنساها

تنسىٰ الرحمة

بل اطلبها واستمطرها بالتوبة والأوبة والعودة

الآن

من قبل أن يمضي الوقت وتنتهي المهلة

﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

* * *

عبد مشتت بين أكثر من سيد يتشاركون في امتلاكه

إنهم شركاء متشاكسون يرزح تحت أغلال عبوديته لهم

هذا يأمره يمنة والآخر يأمره يسرة وثالث ينهاه عن الاتجاهين ورابع يجذبه إلىٰ الوراء وخامس وسادس وعاشر

تخيل حاله

يكاد يتمزق

إنه بؤس حقيقي ليست العبودية هي أصله ولكنه التمزق بين السادة

إنه عبد الدينار والدرهم

عبد الخميصة والقطيفة

إنه عبد الهوىٰ والشهوة

عبد المنصب والسلطة

عبد الشهرة والجاه

قارن بين حاله وحال ذلك المتجرد الذي تجرد من كل تلك الآصار والأغلال الأرضية ليسمو بروحه عن كل تلك المطامع ولا يبقىٰ في نفسه إلا شعارا واحدا ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾

ذلك الذي وجه طاقته وجمع قلبه وجوارحه علىٰ الإخلاص لسيد واحد لا يتبع سواه ولا يأتمر إلا بأمره

شتان الفارق بين الأول والثاني

والثاني بلا شك . . . يليق بك

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

سورة غافر

الولاء الإيماني والحب في الله لا يعرفان حدود الزمان ولا المكان ولا نوع الخلق

ألم تر إلىٰ الملائكة حملة العرش كم بينهم وبين البشر من فروق هائلة واختلافات في الخلق والخصائص وكم لديهم من عظيم التكليف وشُغُل التسبيح والتحميد والتقديس

ورغم هذا لم يشغلهم كل ذلك ولم تثنهم تلك المسافات ولم تغفلهم تلك الاختلافات عن الدعاء للمؤمنين والاستغفار للتائبين

تأمل قولهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾

تأمل حبهم الخير لك ورجاءهم الجنة لك: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

تأمل حرصهم عليك وخوفهم عليك من طريق المعاصي الذي يتجلىٰ في دعائهم: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

وكذلك الحب في الله حين تخالط بشاشته القلوب لا بد أن يثمر محبة

الخير والصلاح لمحبوبه حتىٰ مهما باعدت بينهما المسافات وفرقت بينهما الاختلافات

بل حتىٰ لو كان خلقًا آخر!

❁ ❁ ❁

ذروني أقتل موسىٰ

دعوني أتخلص منه . .

اتركوني أخلص البلاد والعباد من شر هذا الذي سيغير عقائدكم، ويضيع دينكم ودين آبائكم، ويظهر في أرضكم الفساد

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾

ما أطرفها من كلمات حين تخرج من هذا الفم البغيض . .

ذروني!!

وهل تستأذن أيها الطاغية؟!

منذ متىٰ؟!

وهل مثلك من الطغاة يحتاج من أمثال تلك الحاشية من المطبلين والمنافقين أن يذروه ويتركوه؟

لكنها الصورة التي يحرص الفراعين علىٰ إحكام تزييفها،

بينما الحقيقة أنه لا يحتاج إلىٰ رأيهم، ولا ينتظر إذنهم . .

لا تقلق يا سيادة الطاغية، فلن تجد منهم إلا كل تطبيل وتصفيق . .

فهم يفهمون جيدًا مطلبك ويعرفون أنهم جزء من زينتك

لن تسمع يومًا معارضة من ألسنتهم، التي استمرأت النفاق، وألفت الكذب، ولم تعرف إلا التزلف والتملق والمداهنة، ولم تتعود إلا علىٰ قصائد المديح، ومطولات الثناء المنافق الصريح . .

نعم الرأي رأيك يا صاحب القصر . .

وما بعد قولك من قول . .

ما أعظم توجيهات فخامتك أيها المفدىٰ بالأرواح . .

هكذا تتعالىٰ صيحات مطبلي كل عصر وأوان وترتفع تهليلاتهم الداعمة للقرار

ولكل قرار . .

وهؤلاء من يجمعهم الفرعون دومًا حوله أو يسمح لهم بالبزوغ في دولته والظهور في فلك نظامه وزمرته

تجدهم في غالب الأمر من حمائم الناس سهلي المعشر والانقياد

قد تسبق أسماءهم الألقاب العريضة، وتملأ سيرهم الذاتية الشهادات الضخمة والدرجات الفخمة؛ لكنهم يشتركون جميعًا في صفات الذلة والانقياد والانبهار الدائم بسيدهم المستبد.

أما صقور الخلق عزيزو النفس مستقلو الرأي، فلا يطيقهم الفرعون ولا يستريح في وجودهم، ولا يتعايش مع إيجابيتهم وتأثيرهم، حتىٰ لو كانوا علىٰ الفكر والنهج نفسه

فلا يبقىٰ حوله إلا دنيء نفس من أراذل الخلق، يرضىٰ بالهوان ويقبل

بالذلة، ويتعايش مع كونه مجرد صدىٰ لأفكار ورغبات سيدهم

تتعدد الأقنعة ويظل التزلف والنفاق والمداهنة والتهليل هو شعار تلك الفئة مهما اختلفت أشكالها وتنوعت ألقابها

يكفي أن يلمح صاحب القصر وولي نعمتهم المزعوم إلىٰ أنه يريد هذا الرأي، فتلميحات سيادته أوامر بلا شك، بل إن أحلام فخامته لا مفر من تحقيقها بكل السبل . .

هكذا تربوا . .

وعلىٰ هذا حرصوا . .

وكذلك وصلوا

ومهما ادعوا غير ذلك فهم يعلمون أن حقيقة الأمر في النهاية يلخصها فرعون وكل فرعون بكلمات واضحة محكمة

﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

❁ ❁ ❁

كيف استطاع موسىٰ أن يخترق بدعوته قصر فرعون لهذه الدرجة؟

كيف تسللت كلماته ورسالته إلىٰ عقر دار الطاغية؟

كيف عبرت الأسوار، وكيف تجاوزت الأوتاد؟

كيف لم يوقفها الحراس، ولم يحجبها البصاصون، فوصلت إلىٰ أقرب الناس إليه

بالأمس امرأته مرقت عن طوعه وكفرت بربوبيته وآمنت برب العالمين

ومعها ماشطة ابنتها

ومن قبلها سحرته وسلاح تخويفه واسترهابه للناس

واليوم رحمه وقريبه . .

رجل من آل بيته

من الأسرة الحاكمة

من ذوي الدماء الزرقاء كما يحلو للبعض أن يتعالىٰ

إن أقواما يحجرون الهداية علىٰ الخلق ويستسهلون الجزم بطردهم من رحاب الرحمات ويقطعون الأمل في بلغ الهدىٰ إلىٰ نفوسهم لن يفهموا ما حدث

لن يفهموا أن تلك الحركة الدعوية المستمرة لم تعرف حدودا ولم تحجبها أستار ولا أسوار

ولقد وصلت

حتىٰ داخل بيت فرعون وصلت

وكذلك الهداية تصل لأي مكان إن أراد الله

وما علينا إلا البلاغ

❀ ❀ ❀

ولقد كتم مؤمن آل فرعون إيمانه مترخصًا وكان له ذلك

لكن لحظة فاصلة جعلته لا يستطيع الكتم أكثر من ذلك

تلك اللحظة التي قرر فيها فرعون قتل موسىٰ عليه السلام

هنا قرر أن يقوم لله قومة

قرر أن يصدع بما في صدره وقد كتمه طويلًا ..

آن أوان الجهر، فقد عظم الكيد، وبلغ الظلم مبلغه وصارت هلكة حبيبه ومعلمه وسبب هدايته وشيكة ..

الرجل سيُقتل، والملأ يهللون لقرار الظالم الكفور ..

وما طيب العيش بعد ذلك؟!

رغم أن كلماته غالبًا لن تحدث فارقًا مع أمثال فرعون

ورغم أنه سيواجه جبارًا طاغيًا، ربما لم تعرف البشرية يوما مثله ..

ورغم أن ما فعله بامرأته نفسها عبرة حين لم يرع ودها، ولم يذكر عشرتها بل أطاح بها، وبماشطة ابنته وأطفالها، فور علمه أنهما قد اتبعتا من يتبعه هذا المؤمن

فهل سيرعىٰ له قربىٰ، أو يتذكر رحمًا وصلت بينهما؟

لو تكلم سيصيبك ما سيصيب موسىٰ من مصير ..

فما أغناه اليوم عن هذا، وهو علىٰ ما هو عليه من الجاه والسلطان ..

إنه رجل من الأسرة الحاكمة، وكفىٰ بها مكانة ..

هل سيضيع كل ذلك بكلمة؟!

لكن من قال أنها مجرد كلمة؟

إنها كلمة حق وموقف صدق تعين الاحتياج إليه

إنه الحق وكفىٰ به قيمة ..

لا يعدل به منصب، ولا تساوىٰ به مكانة، ولن يثنيه عنه أذىٰ يلحق به..

لسوف يصدع الرجل بكلمة الحق، وليكن بعدها ما يكون وليقضي الله أمرًا كان مفعولًا

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾

❁ ❁ ❁

ولقد وجد دومًا بين الناس رجال من عمومهم صدعوا بالحق وشهدوا بالصدق ونصحوا للخلق

وجد هؤلاء في كل زمان ومكان

هم ليسوا بأنبياء ولا مرسلين بل هم بشر عاديون غير معصومين، جمع بينهم قول الحق والصدع بالأمر وعدم كتمان الإيمان الذي خالطت بشاشته قلوبهم وامتزج ضياؤه بقناعة عقولهم، لم يشترطوا علىٰ ربهم أن تنجح دعوتهم، ولا أن تثمر مسيرتهم ولكنهم ما تلكأوا وما ضعفوا وما استكانوا حينما حانت اللحظة

ومنهم مؤمن آل فرعون

حين جاءت لحظته أيضًا لم يتأخر ولم يتلكأ أو يتعذر

تلك اللحظة التي برزت فيها قيمة الصدع والحرص علىٰ الأخذ بيد الخلق إلىٰ الحق كانت قد آنت وحان موعدها ومن ثم تكلم الرجل

وفاض ما في قلبه إلىٰ لسانه وجوارحه التي ظهر عليها مدىٰ خوفه علىٰ قومه ورغبته في هدايتهم خصوصًا في نداءاته التي كان يتلوها خوفه عليهم

وتتبدىٰ من خلال حروفها تلك القيمة التي نتحدث عنها:

﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾

﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾..

إنها دعوة الفطرة، والحق، والخيرالعظيم، والنصيحة، والحرص الأمين علي استنقاذ الخلق من العذاب المهين

دعوة نصوح نافعة بهيجة، يجللها الحرص علىٰ الإفادة وتفوح منها الرغبة في الخير للمدعو

ألا هكذا فلتكن الدعوة وعلىٰ ذلك فليكن الداعية.

ويالها من قلوب قاسية تلك التي لا تستجيب لمثل هذا الحرص، ولا تتجاوب مع كل هذا اللين والحكمة والموعظة الحسنة

❋ ❋ ❋

وأحيانًا تبلغ الشبهة درجة من السماجة والتكلف لا تستحق معها ردًّا أصلًا

تأمل تلك الكلمات التي قالها فرعون في سماجة:

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾

﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾

إنها نبرة مألوفة من نبرات سخرية وربما حماقة الفراعين ..

هل تمزح يا فرعون؟

أي صرح من الطين ذلك الذي سيبلغ أسباب السماء؟!

أوبعد كل تلك الحجج والبينات التي أتاك بها موسىٰ، وردها مؤمن آل فرعون علىٰ

مسامعك لازلت تكابر، وتتحدىٰ، وتمارىٰ؟!

ما أثقل ظل الفراعين وما أشد سماجة الطاغين

الحقيقة أنها ليست شبهة أصلًا فقد ختمها بقوله: وَ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ﴾

لكنه التشغيب والسخرية والتسفيه وتزيين سوء العمل والصد عن السبيل

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾

ومثل هذا لا يلتفت إليه

لذا لم يلتفت إليه الرجل المؤمن من آله وأكمل دعوته الهادئة الوضيئة واستمر في أشرف وأحسن قول يمكن أن يوفق إنسان لقوله . .

إنه البلاغ عن الله . .

وإنها الدعوة إلىٰ الله . .

أكمل موعظته دون التفات لسماجة أو سخرية وتشغيب عساها أن تجد قلبًا ينشرح لها، بدلًا من قلب هذا الطاغية القاسي المظلم العتيد . .

أكمل كأن لم يسمع تلك الشبهة التافهة

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾

❀ ❀ ❀

ولقد كانت كلمات مؤمن آل فرعون بمثابة نصيحة نموذجية شاملة جامعة جمعت بين الترغيب والترهيب والتذكير وضرب الأمثال وحوت المنطق العقلي والمعالجة الإيمانية

وهي كذلك مناج دعوي متكامل لم يخل من البعد التاريخي، وزينه تواضع الداعية وأدبه واحترامه للمخاطب

فتجد فيها الترغيب:

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾

﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾

وتجد الترهيب من العقوبة الدنيوية:

﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾

﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾

وأيضا الترهيب من العقوبة الأخروية:

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾

﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾

وتجد فيها المنطق العقلي البسيط والواضح:

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي

يَعِدُكُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾

وتجد التواضع والأدب في الخطاب:

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾

وكذلك تلحظ الحرص الشديد وتأليف القلب من خلال تكرار لفظ الخوف علىٰ قومه

وأيضًا تجد العمق التاريخي وثقافة الداعية الذي يستحضر تاريخ الأمة والأحداث التي أثرت في مسارها

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾

ثم يختم الرجل المؤمن بلاغه، وأتم دعوته، وقال بتسليم مطلق وتفويض تام لملك الأنام: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾

فلم يشترط إجابة ولم يربط دعوته بامتثال أو قبول من مدعويه بل فوض أمره إلىٰ من إليه يرجع الأمر كله

ياله من خطاب شامل متكامل يحتاج إلىٰ إدراك تكامل أبعاده أولئك الذين تصدروا منابر الدعوة وتعليم الناس ونصحهم

❁ ❁ ❁

ولقد كان الصدع في البداية لإنقاذ موسىٰ عليه السلام من القتل الذي قرره فرعون

لكنه استمر

ولم يعد الأمر قاصرًا علىٰ الدفاع عن موسىٰ، أو الذب عنه، والتخذيل عن قتله وتلك مقاصد عظيمة . .

لكن الأمر تطور إلىٰ دعوة وموعظة وتذكرة عامة، تقصد القلوب وتغمر الأفهام والألباب . .

وذلك بعد أن هان الطاغوت في نظره، وانتهىٰ الأمر . .

لم يعد غضبه يخيفه، ولم يعد يخشىٰ أوتاده ولا جنده العتيد . .

لقد صدع وجهر، واختار العزيمة، ولسوف يستكمل الطريق، ويسلك السبيل، وليكن ما يكون . .

لم يعد الأمر فارقًا، ولم يبق للخوف في قلبه من أثر وما تبقىٰ من الخوف استحال إلي لون جديد . .

إنه الآن فقط يخاف علىٰ قومه . .

﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾

﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾

﴿۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ . .

إنه خوف الحريص علىٰ أن يذوق كل الخلق ما ذاقه، وأن يغترفوا مما اغترف . .

وخوف المشفق الذي يعلم ما ينتظر من لم يغترف . .

وذلك أصل الدعوة بعد ابتغاء مرضاة الله

الحرص علىٰ الخلق والخوف عليهم من مصير مجانبة الحق

سورة فصلت

والتشغيب والتزهيد في محل الحق هو منهاج أهل الباطل وسلوكهم المطرد في مواجهة دعاوي الإصلاح والتغيير

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾

البداية في النهي عن سماعه

مجرد السماع

فإن لم يتمكنوا من تزهيد الناس في سماع الحق يأتي دور التشغيب والتشويش

﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾

أثيروا الضوضاء حوله وشغبوا علىٰ دعاته بكل وسيلة

الفتوا انتباه الناس عنه باللغو واللعب والملهيات المختلفة حتىٰ إذا ما سمعوه لم يفقهوا شيئًا ولم يكد يصل إلىٰ قلوبهم بعد تلك الحواجز المشوشة عليه

هذا هو منهجهم وتلك وسيلتهم

﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾

وهذا يحمل شهادة للقرآن واعتراف من أعدىٰ أعدائه وإقرار له بالقوة التأثيرية الكاسحة

فسبيل الغلبة والنصر في نظرهم هو منع سماع القرآن والحيلولة بينه وبين الناس

إنهم يدركون في أعماق أنفسهم أنهم ضعفاء وأن حجتهم داحضة ويدركون كذلك أن للقرآن حلاوة وعليه طلاوة وأنه يعلو ولا يعلىٰ عليه

لذلك لجأوا صاغرين إلىٰ وسيلة الضعفاء والخائفين

المنع والتشغيب

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

❁ ❁ ❁

ولعل أخطر ما في معصية السر أنها تجعل من وقع فيها عرضة لأن ينطبق عليه وصف من الأوصاف التي لا يقبل مسلم أن يتصف بها

فما بين سوء ظن بالله أو نقص في الحياء

تأمل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

بمقتضىٰ ظاهر لفظ هذه الأية فإننا حين نقع في معصية سر ونغلق الأبواب ونحرص علىٰ الانفراد بتلك المعصية ونستتر من كل عين ونحتجب عن كل بصر إلا بصر الله وسمعه فإن ذلك فيه دلالة ضمنية علىٰ سوء ظن بالله ونقص في المعرفة بأسمائه وصفاته وقصور في تعبده بمقتضاها

فظن العبد أن ربه يعلم خائنة الأعين وما تخفىٰ الصدور ومعرفته ويقينه باسمه العليم والسميع والبصير من المفترض أن يدفعه ذلك لمراقبة مولاه في السر والعلن

فلما لم يفعل دل ذلك علىٰ قصور في هذا الظن وخلل في تلك المعرفة

أو أنه يعرف ولكنه لا يهتم ولا يستحيي من ذلك السمع والبصر والعلم

ورغم أن الآية علىٰ قول جمهور المفسرين نزلت في وصف حال الكفار الذين سيرديهم ظنهم الذي ظنوه بربهم إلا أن ذلك لا يمنع وجود صفة مشتركة بينهم وبين هاتكي محارم الله إذا خلوا بها

وأن من يفعل ذلك يحتاج إلىٰ مراجعة ظنه بالله خوفًا أن يقال له يوم القيامة

﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾

أسأل الله أن يتوب علينا من معاصي السر والعلم وأن يحسن ظننا فيه ومعرفتنا به

❁ ❁ ❁

والدعوة والعمل الصالح قرينان لا ينبغي أن يفترقا أبدًا

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾

الدعوة بالقول والعمل تلك هي أسمىٰ معاني الدعوة إلىٰ الله

بهذا يقول الإنسان إنني من المسلمين بشكل عملي وليس بإطلاق الدعاوىٰ النظرية التي لا تحمل حقيقة واقعية تصدق ذلك القول فيظل مجرد كلمات خاوية من الروح خالية من التأثير وليست النائحة الثكلىٰ كالنائحة المستأجرة

❁ ❁ ❁

وهل يُستحب العمىٰ؟

هل تُفضل الظلمة؟

هل تُختار العتمة؟

الجواب: نعم

هناك من يستحب ذلك ويفضله

إن من الناس من يأنف من النور ويفر من ضياء الهداية ويبغض سطوع الصواب ويتعبه وهج الحق

إنه نمط يهوىٰ الظلام ويعشق العتمة التي تخفي حقيقته وتستر بشاعته

إنهم لا يطيقون الهدىٰ لأن ضياءه يكشفهم ونوره يظهر عورات نفوسهم ووضوح طريقه يفضح روغانهم وزيغهم

لذلك يفضلون الظلام

ويستحبون العمىٰ والعتمة

ويرفضون الضياء والنور

فما أشبههم بثمود

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

❀ ❀ ❀

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾

البداية كانت في المعتقد

في التوجه الإيماني والمعرفة الراسخة

ربنا الله

إنها جملة قصيرة لكنها تلخص معانٍ عظيمة ينبغي أن تتجذر أصولها في القلوب لتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها

وأول أكلها الاستقامة

﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾

يا لها من كلمة تحمل مدلولات عميقة ووقعًا خاصًّا

الاستقامة

إنها كلمة تساوي حياة كاملة

حياة لا زيغ فيها ولا اعوجاج ولا تعرجات أو روغان كروغان الثعالب

إنها ثمرة المعرفة الصحيحة ونتيجتها المفترضة

إنها ما يحلو للبعض تسميته بالالتزام أو التنسك أو التسنن

تتعدد الأسماء والمسمىٰ واحد والفكرة واحدة ومهمة

ثم استقاموا

لم يقل فاستقاموا بالفاء التي تقتضي الترتيب والتعقيب ولم يقل واستقاموا بالواو التي توحي بالاتباع القريب

ولكن (ثم)

تلك اللفظة التي تعطي إيحاء بالترتيب مع بعض التراخي اليسير

ذلك لأن الاستقامة الحقيقية عمل حياة وطريق معايشة لا يأتي فجأة كماله ولكنه يتراكب ويتراكم تدريجيًّا ويوغل فيه السالك برفق حتىٰ يصل إلىٰ

مقام ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾

لكن تظل البداية صحة المعتقد والعلم بالله علمًا يورث عملًا وحركة علىٰ الجوارح

حركة مستقيمة تشابه استقامة الصراط : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾

فالصراط مستقيم وسالكه مستقيم وأقرب مسافة بين نقطتين الخط المستقيم فإذا ما سلك ذلك المستقيم ذاك الصراط المستقيم باستقامة واعتدال كان الوصول

وكانت الطمأنة وعدم الخوف مما هو آت وعدم الحزن علىٰ ما فات

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾

﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾

سورة الشورىٰ

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾

قطرات رحمة تحدوها نسمات أمل تمس قلب المبتلىٰ الغارق في ظلمات الحزن فتذيب جدر اليأس والقنوط وتسمح بمرور بصيص من ضياء الثقة ونور اليقين

اليقين في الولي الحميد

* * *

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾

حقيقة

ربما تكون مرَّة ولكنها حقيقة

حقيقة نحب أن نتغافل عنها إلا من رحم الله

حقيقة: (شاء من شاء وأبي من أبي)

حقيقة: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى﴾

حقيقة: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾

حقيقة: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾

تلك الحقيقة أو الحقائق ليس المراد منها ترك العمل والبكاء علىٰ اللبن المسكوب أو كما يفعل بعض المتنطعين من تبرأة المتسبب المباشر في المصائب والفساد الذي يظهر فالله لا يحب الفساد ولا يهدي كيد الخائنين ولا يحب الظالمين

هكذا قال عن نفسه

وهكذا نبهنا إلىٰ تلك الحقيقة السالف ذكرها

حقيقة الخلل الداخلي الذي ينبغي أن ننتبه إليه ونراجعه ونصلحه

نصلحه بينما لم نزل نستظل بسحائب عفوه وحلمه

نعم

فرغم كل المصائب والبلاءات تظل بقية الآية مبشرة ومرهبة في الوقت نفسه

﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾

كل ما نراه من بلاءات أو مصائب إنما هو من شيء قليل عجلت عقوبته

بينما هو يعفو

ويعفو

عن كثير

فاحمد لله الذي لم يأخذنا بالكثير الذي عندنا وعاملنا بعظيم العفو الذي عنده

وسله دوام العفو والعافية

❀ ❀ ❀

وحين فصل الله جل وعلا ما شرعه لعباده من الدين والذي هو ذلك الموصىٰ به نوحا وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ اختار أن يكون التفصيل لتلك الشرعة وإجمالها في أمرين رئيسين جامعين

إقامة الدين

وعدم التفرق فيه

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾

فإقامة الدين هي أصل كل دعوة مباركة وأي منهج أو فكرة أو أيديولوجيا لا تجعل ذلك الأصل في أولوياتها القصوىٰ فهي إلىٰ جفاء مع سائر الباطل بمختلف صوره وأسمائه

وإقامة الدين تشمل ترسيخ كل ما أمر به الله وإظهاره بمختلف أنواعه سواء كانت شعائر تعبدية أو أحكام تكليفية وإجرائية وأوامر ونواهي عملية وأخلاقية وسلوكية وعلاقات اجتماعية

لكن إقامة الدين بكل شموله تحتاج إلىٰ أمة قوية تستطيع إقامة تلك الأمانة وإن أعظم ما يقوي الأمم الاجتماع والألفة وضد ذلك يضعفها ولذا جاء النهي عن التفرق مقترنا بإقامة الدين لأن التفرق أول طريق الفشل وبداية الانهيار

فتأمل

❁ ❁ ❁

وسورة الشورىٰ من السور التي ركزت الحديث عن أسماء الله الحسنىٰ

وصفاته العلىٰ ورسخت قيم التنزيه والتقديس وفيها الآية الأهم في هذا الباب: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾

وتمام الكمال الإلهي في أسمائه وصفاته وشرعه ووحيه ووصاياه أمر مطرد في السورة التي سميت بقيمة أخرىٰ لها علاقة بضد هذا الكمال

إنها الشورىٰ

تلك التي لا يحتاجها من لا تعتريه الحاجة ولا يضطر إليها من هو بكل شيء محيط وعلىٰ كل شيء قدير

بينما الإنسان لأنه غير كامل ولا محيط بكل الأمور ولأنه ناقص العلم مهما بلغ علمه قاصر التصور مهما بلغ إدراكه فهو بحاجة إلىٰ الشورىٰ ليعوض ذلك النقص وليحاول إكمال جوانب القصور عنده وبالتالي يسأل غيره ويستشير فيما لم يأت فيه توجيه رباني

أما إن أتىٰ التوجيه الرباني ونزل الشرع من الله الولي فإنها الاستجابة

ذلك المعنىٰ الذي تكرر أيضًا في السورة

معنىٰ الاستجابة

﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾

﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾

فالعبد بين أمرين عليه بلزومهما إن أراد الفلاح في الدنيا

استجابة للأمر المنزل والوحي المعصوم الكامل غير القاصر ولا المنقوص

ومشورة لغيره إن لم يكن ثمة وحي أو نص صريح فيعوض بالمشورة قصوره البشري ويكمل نقصه الإنساني

وبالاستجابة والشورىٰ يصل للمراد بإذن الله

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾

✿ ✿ ✿

والقرآن هو الروح

لقد وُصِفَ القرآن بأوصافٍ كثيرة ونعوت بليغة .. فهو النور المبين، وهو البيان والتبيان، وهو الشفاء والرحمة للمؤمنين، وهو الهدىٰ والفرقان بين الحق والباطل، وهو أحسن الحديث والموعظة والبلاغ ... وغيرها من الأسماء والأوصاف التي وصف الله بها كتابه العزيز وسمَّاه بها، لكن تسميته بالروح لها قيمة مختلفة بلا شك

لها دلالة تحتاج إلىٰ وقفات ووقفات ..

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾

الروح هي أصل وسِر تلك الحياة التي تنبض في العروق، والبريق الذي يلتمع في العيون، والحركة التي يختلج بها القلب، والحرارة والحيوية التي تسري في جسد الحي، ومتىٰ ما نُزِعت خبا كل ذلك وصار جسدًا يابسًا باردًا لا حياة فيه .. ولا روح ..

لقد اختار الله لوحيه المنزل أن يُطلق عليه نفس الاسم الذي يُطلق علىٰ سِرِّ الحياة

وكأن القلوب من دون القرآن ميتة، والنفوس من دون القرآن يابسة متجمدة، والفكر من دون القرآن بارد ساكن.

باختصار مؤمن من دون قرآن عبارة عن جسد خاوٍ من الروح.

جسد ميت

وفارق كبير جدًّا بين الحي والميت

تضاد رهيب وبون شاسع بينهما

الحال يتبدل والوصف ينقلب رأسًا علىٰ عقب بالانتقال من الأول إلىٰ الثانىٰ

فيخبو بريق الحياة في عينيه حتىٰ يختفىٰ تماما، وتتيبس الأطراف، وتسرىٰ في البدن تلك البرودة الصامتة، ويتحول في لحظات إلىٰ جثة هامدة ..

وبعد أن كان مفعما بالحركة والحيوية، تسرىٰ في بدنه حرارة الحياة، وله تأثير فيما حوله وفيمن حوله،

صار جثمان يابس متحجر، تجمدت في أوصاله برودة الموت الساكنة التي تتلفع بالصمت والجمود.

فارق كبير جدًّا يعرفه كل من تعامل مع الموت وشهد منظر الجثة التي تقلب يمنة ويسرة فلايتحرك فيها ساكن، وهىٰ التي كانت منذ لحظات تملأ الدنيا صخبًا ونشاطًا!

كيف انتقل من هذه الحالة إلىٰ تلك؟!

بشيء واحد نزع منه فصار إلىٰ ما صار إليه،

لقد نزع السر الذي جعله الله من أمره وفىٰ علمه،

لقد نزعت الروح!

فلما نزعت حدث كل هذا التحول في حال من نزعت منه .

الروح هي أصل وسر تلك الحياة التي تنبض في العروق، والبريق الذي يلتمع في العيون، والحركة التي يختلج بها القلب، والحرارة والحيوية التي تسرىٰ في جسد الحىٰ ومتىٰ ما نزعت خبا كل ذلك.

الله جل وعلا سمىٰ الوحىٰ المنزل بتلك الروح التي هي سر الحياة

الله جل وعلا ذكر أن الوحىٰ المنزل هو روح من أمره

ما أعظم الاسم وما أعجب الوصف

كم من قلوب كانت متشحة بالسواد ونفوس كانت ميتة قد أحياها الله بهذا الكتاب

كم من بعيد عن الله مسرفٌ علىٰ نفسه مُتبعٌ لهواه هداه الله بتلك الروح من أمره

فهل تعاملت مع كتاب الله علي أنه روح تحتاج أنت إلىٰ أن تبث في قلبك وتسمو بها نفسك وتسرىٰ حيويتها في أوصالك فتمشىٰ بها بين الناس لتكون ممن قال الله فيهم: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾،

وليس كمن قال فيه: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾

هل نظرت من قبل للقرآن هذه النظرة؟

هل تفاعلت معه من هذا المنطلق؟؟

هل فعلت

وهل أنت فاعل؟

سورة الزخرف

﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾

إنه التقليد المقيت الذي هو ضد الإدراك الصحيح المسؤول للحق والقناعة به والثبات في سبيله

تقليد الأباء والأجداد،

تقليد المجتمع والبيئة المحيطة، دون فهم ولا وعي ولا إدراك، لما عليه هذا المجتمع وتلك البيئة، من جهل وضلال

هذا التقليد والاتباع الأعمىٰ كان دومًا من أكبر الأسباب في صد جموع غفيرة من الناس عن طريق الحق

جموع لا تتصور طروق جديد عليهم، ولو كان ذاك الجديد هو الحق الذي لا مرية فيه

لا يتصورون فوات الحق علي ما يتوهمونه نبوغًا لآبائهم وسادتهم وكبرائهم!

﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

إنه لسان حال كثير من الإمعات اليوم، حين يتحججون علىٰ اتباعهم الأعمىٰ بقولهم العامي الشهير: (اللي زي الناس ما يتعبش).

إنها العقول المستريحة، التي لا تستطيع أن تقوم بحمل أمانة الحق إن لم تجد غيرها ممن يعضدها ويؤازرها.

رحم الله زيد بن عمرو بن النفيل، الذي يأتىٰ يوم القيامة أمة وحده، بين النبي ﷺ وبين المسيح عليه السلام.

زيد الذي كان يعبد الله وحده في مكة قبل بعثة النبي صلي الله عليه وسلم، وكان علىٰ الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام، في وقت كان كل من حوله في جزيرة العرب وآباؤهم وأجدادهم يسجدون لما صنعته أيديهم من أوثان، اللهم إلا رجلًا أو رجلين،

لم يضر زيد أن كان وحيدًا في أمة مشركة ولا دفعه تفرده لأن يترك الحق الذي يدين به، فاستحق أن يكون أمة وحده يوم القيامة.

القضية ليست بالعدد، ولا بالصخب، ولا بمطلق ما عليه الناس من حال أو ما توارثوه عن الآباء والأجداد

القضية قضية صواب وخطأ وحق وباطل

هذا ما ينبغي أن يبحث عنه الإنسان وإن خالف الآباء والأجداد

❁ ❁ ❁

الزخرفيون ..

نمط من الخلق لا يلتفت انتباهه إلا للزخارف المبهرة ولا ينجذب بصره إلا لزينة براقة أو زخرف لامع

إنهم قوم يقيسون الحق والباطل من خلال مقياس العظمة الدنيوية والمكانة المادية والمنصب الفخم والثراء الفاحش والنعيم الزائل

سورة الزخرف تعرض نماذج صارخة لتلك العقليات السطحية والأنماط المادية التي تحكم علىٰ الأمور دائمًا من خلال المظهر الخارجي أو عرض الدنيا الحقير وحسب

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾

وهل هذه هي المشكلة؟

هل قضيتكم أنه ليس من زعماء مجتمعكم أو من عظماء ماديتكم السطحية؟

وهل أنتم من تقررون وتقسمون رحمة الله

﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾

نفس المنطق المريض في كل زمان ومكان

منطق الحكم من خلال الظاهر

وحتىٰ هذا المنطق فمنقوص فاسد

من قال أن المستكبرين المختالين في الأرض بمشيتهم المغرورة وزخرفهم الزائل هم الأعظم والأفضل؟

من قال أن معيار القوة والثراء هو المعيار الوحيد للحكم علىٰ الأشخاص؟

إنه كذلك لدىٰ هذا النمط السطحي المستخف

النمط الذي تبهره زينة قارون وقوة عاد وعلو النمرود

النمط الذي يستخفه فرعون ومنطقه المعروض في نفس السورة إذ ينادي ويقول: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾

هذا هو ما أرادهم أن ينتبهوا إليه ثم سألهم

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

ترسيخ للحكم البصري المظهري والتقييم القائم علىٰ أساس الرؤية الخارجية وحسب

ولذلك كان القياس الذي ظنه منطقيًّا

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾

لقد قاس علىٰ نفس المعيار الذي ينبهر به خفيفو العقول في كل زمان

معيار المظهر الخارجي وزخرف الفعل والقول

ومن يقيس علىٰ هذا الأساس يستحق بجدارة أن يتسلط عليه فرعون وأمثاله فهم ممن قال الله فيهم في السورة نفسها:

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

قوم فاسقون بمعيارهم الفاسد وحكمهم المنقوص وتصورهم المريض الذي هيأ لهم ولأمثالهم أنهم يقسمون رحمة ربك يعطونها لمن أعجبهم ويمنعونها من حقروه ولم تبهرهم زينته وتخطف أبصارهم لمعة مكانته

ولقد نسوا أو تناسوا أن الله هو من قسم بين الناس معيشتهم ورفع بعضهم فوق بعض درجات

وأن . .

﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾

❁ ❁ ❁

وسواء رأيت أم لم تر فالثبات هو تكليفك واليقين هو سلاحك والتمسك بالحق فيه نجاتك

تلك هي القاعدة التي تتكرر في كتاب الله حتىٰ تتقرر في نفوس قارئيه

﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾

فلا ترىٰ ما يحل بهم من عذاب أو ما يتحقق من وعد ووعيد

﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾

أو تعيش لترىٰ

في الحالتين عليك التمسك بما عندك

وعليك اليقين بأنك علىٰ صراط مستقيم

﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

إن فهم تلك القاعدة المطردة يحل كثيرًا من إشكالات الواقع الإسلامي خصوصًا في أيام المحن حيث يهتز ذلك اليقين بفعل دعاوىٰ استعجال الثمار واشتراط رؤية الوعود والمآلات الأمر الذي يؤدي أحيانًا عند تأخره إلىٰ إحباط قد يورث تفريطًا في الاستمساك بالحق الذي محله وأصله في الوحي المنزل

لذا لا بد من وضوح التكليف والغاية في كل الأحوال

﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

سواء رأيت أو لم تر

استمسك

في كل حال . . استمسك

❁ ❁ ❁

وكل طاغية أو مستبد ينقصه شيء واحد ليكتمل طغيانه ويتم استبداده ويصل إلىٰ منتهىٰ علوه

ينقصه شعب لديه القابلية للاستعباد ويمتلك الاستعداد لقبول الاستبداد

ينقصه العبيد الذين يُستخفُّون ويرضون كل ما يفعله ويرضخون له ليعلن نفسه في الوقت المناسب إلهًا فوقهم لا يريهم إلا ما يرىٰ ولا يهديهم إلىٰ رشاده المزعوم

ومن الخلل تحميل المسئولية للفرعون وحده وتجاهل التوصيف القرآني لمن استخفهم بإرادتهم وامتطىٰ حياتهم برضاهم بل وربما بمباركتهم

القرآن لم يحمل فرعون تلك المسئولية وحده بل شاركه فيها من رضي وتابع وبارك

وقبل أن يستخف فكان وصفه القرآني أنه من الفاسقين

﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾

❁ ❁ ❁

ولقد طلب نبي الله موسىٰ من ربه أن يحلل عقدة من لسانه

ولقد بين أن صدره يضيق ولا ينطلق لسانه

ولقد أقر موسىٰ عليه السلام بأن أخاه هارون هو أفصح منه لسانًا

ولقد وصف فرعون موسىٰ بأنه لا يكاد يبين

فقال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾

ومع كل ذلك فقد بلغ موسىٰ

بلغ رسالته

وأدىٰ أمانته

ونصح لأمته

ولقد وصلت دعوته

وصلت وبلغت قلوب أعدىٰ أعدائه فآمن السحرة وآمنت امرأة الطاغية وآمن مؤمن من آل بيت الطاغية

آمنوا برب موسىٰ واتبعوا دعوة من لا يكاد يبين

إن من البيان لسحرا والفصاحة وجذالة اللفظ شيء مستحسن لذا كانت علة مطلب موسىٰ بإشراك أخيه الأفصح

البيان مهم بلا شك

لكنه ليس الأهم

وليس وحده مناط التكليف ولا سبب القبول الأوحد

العبرة بلسان الصدق وتشرب القلب لمعاني الحق

سورة الدخان

وعلىٰ العكس من النموذج السابق الذي فيه امتهان المستكبرين المستعلين يأتي نموذج المتقين

(أولئك الذين ينعمون في مقام أمين)

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾

﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾

والمقام الأمين هو المآل الآمن الذي لا تشوبه شائبة خوف ولا قلق

إنهم آمنون من كل ما يبعث مكامن الهلع في نفس بطبعها هلوعة

وكما أمنوا من الفزع الأكبر فإنهم في المقام الأمين يأمنون من كل فزع ومنغص

حتىٰ منغص هاجس الموت قد زال عنهم

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾

وهم في اطمئنانهم وأمنهم يعاملون معاملة الملوك وليس ذلك الامتهان الذي عومل به الصنف السابق

فملابسهم ملابس الملوك المنعمين

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾

وينعمون بحياة اجتماعية فاخرة

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾

ويأتيهم الخدم بكل ما يشتهون حتىٰ الفاكهة التي يتناولونها تفكهًا واستمتاعًا تأتيهم في الحال

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾

ويتكرر الوصف مرة أخرىٰ فإنهم

﴿آمنين﴾

وتكرار معنىٰ الأمن يلقي بإشارات حول ما تحملوه في الدنيا من تفزيع وترهيب وما ذاقوه من ويلات المستكبرين فهاهم ينالون بعد تحملهم نعيم الأمن والأمان فاللهم اجعلنا منهم

﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾

❁ ❁ ❁

ومن أبشع العذاب في جهنم عذاب الإهانة عياذًا بالله

ذلك العذاب الذي يجازىٰ به المستكبرون الذي تعززوا بالباطل وتعالوا علىٰ عباد الله وأهانوهم وأذاقوهم ويلات الإذلال في الدنيا

تأمل قوله تعالىٰ

﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾

خذوه

لطالما قيلت تلك الكلمة في الدنيا حين ظن أهلها أنهم قادرون عليها وعلىٰ ضعفائها

خذوه

لطالما كان لتلك الكلمة وقعًا مخيفًا في قلوب المستضعفين حيث لا يدرون ما ينتظرهم بعد الأخذ ولا ما سيؤخذون إليه

فاعتلوه

والعتل هو الأخذ بالتلابيب والدفع بشدة وعنف والعتلة هي الرافعة التي ترفع الجمادات الثقيلة

وهي أيضًا في اللغة الهَرَاوَةُ الغَلِيظَة وعمود قصير من الحديد له رأْس عريض يُهدَمُ به الحائط، ويُقلَعُ به الشجرُ والحجر

والعُتُلّ هو الغليظ، الجاف

وكل معاني الكلمة تصل بنا إلىٰ تصور تلك الأخذة والدفعة التي يعامل بها ذلك العُتُلّ

إنه دفع مهين شديد ومعاملة قاسية جزاء من جنس عمله الذي عمله في الدنيا وقد كان فيها عتلًا فها هو يعتل كجلمود صخر يحط في النار

ثم تزداد المهانة حين يصب العذاب من فوق رأسه

﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾

فتغلي الرأس كما غلىٰ الجوف أثناء تناول الزقوم

﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾

هكذا كنت تسخر في الدنيا فها هنا يسخر منك كما كنت تفعل

هكذا كنت تستهزئ بعباد الله واليوم تذوق ما أذقتهم

كنت تظن نفسك عزيزا في الدنيا لا يمكن مس جنابك فدونك العذاب

وليس أي عذاب

إنه العذاب المهين لمن تعالىٰ بأنه العزيز الكريم

لعمري إنها لآيات ترجف لها القلوب وتتعوذ من مآلها النفوس فياليت شعري ما بال المستكبرين لا يرعوون وعن امتهان الخلق لا يكفون

أو مثل هذا المصير لا يخشون؟!

❁ ❁ ❁

وربما يصل الإمهال والمد الدنيوي وتعاظم الملك والسلطان إلىٰ درجات تجعل الغافل في حالة من الاتصال والتآلف مع ذلك المتاع الزائل تؤدي به إلىٰ نسيان حقيقة أنه زائل عنه وأن ذلك المتاع نفسه زائل يومًا ما وأنه لا بد تاركه ومفارقه مهما تعاظم وتجمل

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾

﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ﴾

﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾

ذلك الترك لم يكن في حسبانهم وتلك المفارقة لما تعودوا عليه وألفوه كانت مفاجأة بالنسبة لهم وهم الذين بلغت بهم غفلتهم أن ظنوا الدنيا تحبهم ونعيمها يعشقهم

فكانت الحقيقة بخلاف ذلك تمامًا

إن قيمتهم ليست لهذه الدرجة ومقامهم في الأرض عادي وإن تعاظمت في نظرهم أنفسهم

في النهاية هم مجرد بشر يأتوا إلىٰ الدنيا ثم يرحلوا عنها مهما طال بهم الأمد مهما علا شأنهم

وسيظلوا بشرًا حين يرحلوا لن يتغير شيء كثير في الكون ولن تبكي السماء أو تنتحب الأرض

فعلام الكبر؟!

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾

سورة الجاثية

وتأمل لفظ اجترحوا في قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾

إنه اصطلاح غير مألوف في التعامل مع السيئات والمعاصي ولم يأت إلا في هذا الموضع

اجترحوا ...

الاجتراح ..

المعنىٰ معلوم واضح وهو اكتساب السيئات لكن اللفظ له وقع خاص

إن الاجتراح أصل مادته جرح والجرح هو شق الجلد أو قطعه واللحم

فاللفظ هنا يلقي بظلال دامية يكاد المرء يرىٰ فيها محارم الله كجسد يتمزق ويمتلئ بالجراحات بفعل تلك السيئات التي اجترحوها

أو تنتقل الرؤية إلىٰ مشهد قلب تدميه جروح غائرة بفعل الذنوب والسيئات التي اجترحها

ويقال اجترح الكلب اللحم أي نهشها ومزقها بأنيابه أثناء التهامها

وكأن العاصي بلغ درجة من الشبق والشهوة ما يدفعه لنهش المعصية بهذه اللهفة

وكأن المعصية والسيئة مهما تزينت وتجملت تظل علىٰ طبيعتها

الشهوانية التي تتجلىٰ حقيقتها في ذلكم المشهد الحيواني المحموم الذي يلقي في الروع صورة ذهنية لحقيقة السيئة

وحقيقة اجتراحها

عافانا الله وأعاذنا

❁ ❁ ❁

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾

معاذ الله أن يكونوا سواء

معاذ الله أن يستوي الفجرة والبررة

معاذ الله أن يتفق مآل المجترئين علىٰ الحرمات والغيورين عليها

معاذ الله أن يذوب الفارق بين مؤمن مجتهد وبين مجترح للمعاصي مقترف للسيئات

حاشا وكلا

إن الله حكم عدل لا يضيع أجر المحسنين الصالحين

لذا كانت الإجابة الربانية علىٰ مزاعم التساوي وذوبان الفوارق

كانت الإجابة الربانية في كلمات قليلة لخصت الحقيقة بشكل واضح وحاسم

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

❁ ❁ ❁

ونموذج الأفاك الأثيم من أهم النماذج التي تعرضها سورة الجاثية

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾

إنه نمط لا عذر له ذلك أنه يسمع الحق ويعلمه ثم يرفضه لا لشيء إلا الكبر

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

إنه ليس مجرد عاص

إنه عاص مستكبر يتغافل وليس يغفل ويتناسىٰ وليس ينسىٰ ويزعم الجهل ويتكلفه وهو ليس بجاهل بل هو يعلم ويلقي بما يعلمه خلف ظهره

بل وربما استهزأ بذلك العلم

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ﴾

ولقد ضربت في السورة عدة أمثال لذلك النمط البئيس لعل من أهمها مثال اليهود المغضوب عليهم إذ علموا ولم يعملوا بل اختلفوا وتنازعوا رغم معرفتهم بالحق

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ﴾

لقد جاءتهم البينات والحجج ورغم ذلك جحدوا واختلفوا حتىٰ بعد أن جاءهم العلم

إنه البغي والهوىٰ

أصل الشرور ومفتتح باب الضلال حتىٰ مع وجود العلم

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾

تأمل . .

علىٰ علم

لقد ضل رغم وجود العلم ذلك لأن العلم وحده لا يكفي

لا بد من تواضع وصدق معه

لذا حين خلت القلوب من التواضع وحل الكبر حدث الضلال

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾

إنه الكبر عياذًا بالله

العلو في الأرض الذي يحول بين المرء وبين الحق وإن كان بين يديه أو ملاصقًا له

لذلك ناسب هؤلاء الأفاكين المتكبربن الذين احتشدت السورة بذكرهم أن ينالوا عذابًا من نوع مختلف يعاملوا فيه بنقيض كبرهم وعلوهم

عذابًا مهينًا

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

سورة الأحقاف

إن حجب الغفلات وحواجز الغرور لا تحول بين المرء وبين إدراك حقائق الأشياء وحسب ولكنها قد تعكس تلك الحقائق وتقلبها

وإن أقوامًا قد جاءتهم النذر وتتابعت عليهم التحذيرات لكن الحجب والحواجز كانت أغلظ من أن تعبرها التذكرات وتتجاوزها المواعظ والتنبيهات

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾

﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾

لقد غرتهم قوتهم وأسكرتهم مكانتهم حتىٰ رأوا الأمور علىٰ عكس حقيقتها وليس فقط عموا عن رؤيتها

العذاب القادم في الأفق تحول بفضل غرورهم إلىٰ خير يقترب والكارثة المحدقة بهم صارت بفعل غفلتهم وطول أملهم مزيدا من البركات والخيرات

﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾

كلمة لخصت دركات الحماقة التي تدنوا إليها وجعلتهم يثقوا تمام الثقة أن زوال ما هم فيه من التجبر والعلو ضرب من المستحيل

لذا قالتها عاد بهذا الاطمئنان المجافي للحقيقة

حقيقة أن هذا الذي في الأفق هو ما استعجلوا به

﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

❁ ❁ ❁

الافتراض المسبق بأنه من المستحيل أن يغيب الحق عن المرء وما يتضمنه ذلك من تزكية لنفسه ولما هو عليه يعد من أبرز موانع الهداية وقبول الخير

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾

لسان حالهم: هل يعقل أن يسبقنا أحد؟!

هل يتصور أن يفضلنا مخلوق؟!

هل يتخيل أن يعرف أحد ما لا نعرفه ويصل لما لم نصل إليه؟

إنها خلطة مركبة معقدة تجمع بين الكبر والغرور واحتقار الآخرين وامتهانهم والتألي علىٰ الله والتقول عليه

وتلك الخلطة هي أصل جل الشرور في الدنيا والله المستعان

❁ ❁ ❁

﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾

العبرة ليست فقط بتقييمك أن العمل صالح

العبرة أن يكون العمل صالحًا ومرضيًا لله جل وعلا

أن يكون العمل قائمًا علىٰ الصواب وليس مبنيًا فقط علىٰ استحسانك له

ومن أين نعرف أن العمل يرضي الله جل وعلا؟

الجواب أن يكون العمل علىٰ الهدي الصحيح

تلك هي العبادة بمفهومها الصائب وهذا هو ما يرتجىٰ قبوله من عمل

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾

❁ ❁ ❁

﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾

إذًا فقضية التعبد ليست فقط فيما يرضي المرء

ليست فيما تتلذذ به نفسه، وتميل إليه جوارحه، ويستمتع به فؤاده،

القضية قضية استرضاء،

العبادة إنما هي استرضاء لله جل وعلا، وعمل بما يحب، وليست بتقديم ما تحب نفسي، علىٰ ما يحب ربي، حتىٰ لو كان ما أحبه عبادة أيضًا

إنما يعبد الله بالذىٰ يرتضيه في الحال الذي يكون عليه الإنسان، والمقام الذي أقيم فيه

فإذا كان الوقت وقت جهاد وفداء، كان الأحب والأرضىٰ لله أن يجاهد وليه

وإذا كان الوقت وقت بر وإحسان، لم يقدم علىٰ ذلك تنفل وانقطاع للتنسك

وإن كان الوقت وقت أداء أمانة وعمل لم يدر ظهره لذلك ولم يضيع أمانته بمستحبات أو مفضولات

وإن كانت أيام فضل، وأوقات ذكر، ولحظات مضاعفة، عني بتحصيل الأجر وتبييض الصحائف،

وهكذا حال العابد يستغرق في عبادة الوقت مؤثرًا مرضاة ومحبة مولاه

وإن التلذذ بالطاعة، والاستمتاع بالعبادة، والبكاء من خشية الله، ومشاعر السمو الروحي، وأحاسيس العلو في سماوات التذلل والتقلب في درجات الخشوع والإخبات، هي بلا شك من فتوحات العبودية، وبركات القنوت، وفيوضات الركوع والسجود،

لكن النية الأعظم، والمقصد الأسمىٰ للعبادة والعمل الصالح إرضاؤه إرضاء الله

أن يرضىٰ وأن يغفر، هذه هي حقيقة الفوز، سواء أجاء الاستمتاع وحضرت اللذة في ذلك العمل، أو كان عملًا لم يجد فيه العبد ذلك؛ ولكن صح الدليل أنه أفضل أو أولىٰ في هذا الوقت وذاك المقام،

وهذا معيار صدق نفيس

يتجلىٰ ظاهرًا في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾

إذًا فالعبرة في رضاه هو

المهم أن يرضىٰ،

حتىٰ لو لم تستمتع،

حتىٰ لو لم تجد قلبك،

الرجل الذي كان يحمل أمه قديما، ويطوف بها، ربما لم يكن مستمتعا بهذا الجهد المضنىٰ، لكنه فعله لأنه الأرضىٰ لله جل وعلا،

ولو نظرت فيما روىٰ من حال عابد آخر، وهو أويس القرني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لوجدت نموذجًا بديعًا، لتفضيل رضا الله علىٰ ميل النفس،

فالرجل أسلم وعاصر النبي ﷺ وكان يستطيع اللحاق بالحبيب والتنعم بصحبته، وقد يكون هذا أمتع للمحب من المكث بجوار أمه يخدمها ولو وضعت أيها المحب نفسك مكانه، لوجدت رغبة عارمة في اللحاق بحبيبك في مدينته

لكن المعيار لدىٰ أويس، كان رضا الله، والتقديم كان لمراد مولاه، والتفضيل كان للأحب لسيده والأجلب لرضاه، وقد كان هاهنا بره بأم ليس لها غيره، فاختار ذلك

فهل ضره هذا؟!

أبدًا، لقد زكاه الحبيب، ولقبه بخير التابعين، وإن لم ينل شرف الصحبة، فإن النبي ﷺ قد أمر من نال ذلك الشرف -الصحبة أعني- أن يسأل هذا الذي لم ينلها أن يستغفر له،

تخيل تابعي يستغفر لصحابي، وأي صحابي؛ إنه الفاروق عمر!!

ولقد حفظها الفاروق وانتظرها وطلبها،

دعوة بالمغفرة، يطلبها فاروق الأمة، وخليفة خليفة رسولها، من رجل بسيط، لم ير النبي ﷺ، فأي شرف هذا وأي فضل؟!

إنه فضل الاسترضاء وأنعم به من فضل، ذلك الذي ناله هذا المسترضي

اختار رضا الله، وآثر مراده علىٰ مراد نفسه،

وهذا ما تشد له الرحال، وتنفق فيه الأعمار قبل الأموال

إرضاء الله حيث أراد، وكيف أراد

❁ ❁ ❁

وإن هذا القرآن كتاب باعث علىٰ الحركة

إنه كتاب يبث في قلب من يستمع إليه ويعيه طاقة هائلة سرعان ما تترجم إلىٰ قول وعمل وحركة دؤوب

كان هذا ما حدث للجن حين استمعوا القرآن

لقد لفتت روعته انتباههم وسيطرت عظمة معانيه علىٰ كيانهم فقالوا: أَنصِتُوا ثم كان أول رد فعل لهم حين قُضِيَ أن تحركوا

لقد سارعوا إلىٰ قومهم منذرين

﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾

لقد شعروا أن عليهم واجبًا تجاه الحق ومسئولية تجاه قومهم فهرعوا إلىٰ البلاغ

ولقد خرجت منهم كلمات دعوية بديعة تحمل حرصًا علىٰ قومهم ورغبة صادقة في هدايتهم

خرجت منهم كلمات حوت ترغيبًا وترهيبًا وإقناعًا وتذكيرًا

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

من أين أتوا بكل تلك المعاني؟

من أين جاءوا بكل هذه الحماسة؟

من أين حل عليهم ذاك الإصرار؟

إنه القرآن وإنها تلك الطاقة الروحية الهائلة التي يبثها والتي ينبغي أن تتحول لرغبة صادقة وحرص حقيقي

رغبة في هداية الخلق وحرص علىٰ بلاغ الحق

وذلك من أعظم آثار القرآن فتأمل . .

سورة محمد

والموضع الوحيد الذي ذكرت فيه التعاسة بين دفتي المصحف كان في شأن من كرهوا التنزيل وأبغضوا الوحي

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾

والتعاسة هي حزن

وهي شقاء

وهي معيشة الضنك

وهي خيبة وانحطاط وامتهان

وهي بعد وقبح وشر

وهي هلاك وكب علىٰ الوجه ورغوم للأنف

كل ذلك ورد في معنىٰ التعاسة

إنها كلمة تشمل وتلخص ضد كل ما هو جميل وسعيد وميسر ذلك لأنهم زهدوا في مصدر ذلك الجمال والسعادة والسعة واليسر

بل وكرهوه

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾

كرهوه رغم أنه ما نزل ليشقوا ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾

كرهوه رغم أنه هدي من اتبعه ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾

كرهوه رغم أنهم قد نبهوا أن من أعرض عنه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾

إذا فهم من اختاروا

اختاروا التعاسة والشقاء والضنك

فتعسا لهم ..

* * *

وبعض الأمر يكفي أحيانًا

بعضه وليس كله

بعض الأمر يطاع فيه كارهو الوحي وأعداء التنزيل

بعض الأمر يكون أول الهوان ومفتتح الذلة وبعده قد ينفرط العقد

بعض الأمر هو البداية

نعم .. الشيطان كان ينتظر ليسول لهم ويملي لهم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾

لكن البداية كانت بعضه

بعض الأمر

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾

❁ ❁ ❁

قلوب لا تتدبر القرآن ولا تتأمل معانيه ولا تسعىٰ لفهم مقاصده وتوجيهاته هي قلوب مؤصدة عليها أقفال غليظة

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾

وتتباين طبيعة الأقفال ومادتها فلربما تكون قد صكت من فولاذ الشهوات أو سبكت بصلب الغفلات أو دعمت بمتاريس الفتن والأهواء وختمت بمعادن الشبهات والمخاوف والمرجوات

ولئن كانت مهمة تلك الأقفال منع أبواب القلب من أن تفتح علىٰ مصراعيها ليلجها الوحي ومعانيها فإن المفاتيح في ثنايا ذلك الوحي نفسه

لكن لاحظ أنها قد تكون أقفالًا يعلوها الصدأ فلا تفتح بسهولة أو يحتاج بعضها لطرقات شديدة لينكسر

فقط تعامل معها علىٰ أنها أقفال تحاول فتحها أو تحطيمها

واصبر

❁ ❁ ❁

وأول جزاء خيار الهداية هو مزيد من الهداية وتوفيق للتقوىٰ

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾

إنه جزاء عاجل ومثوبة سريعة وثمرة دنيوية طيبة المذاق فلا تحرم نفسك

❁ ❁ ❁

ولا يدرك مدىٰ صعوبة الإحساس بنزع الولاية إلا من فهم معناها

أن يكون الله مولاك ووليك

أن يكون ناصرك ومعينك

أن يتولىٰ أمرك ويصلح شأنك

أن يحبك

ويقربك

كل ذلك شيء من موالاة الله وولايته

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

تدرك هذا فيهفو قلبك وتسمو روحك لذاك المقام الذي لا يناله إلا المؤمنون الصالحون ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

وتشفق أيما إشفاق حين تتأمل خيار العراء والبرودة والخوف لمن قيل فيهم:

﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾

❀ ❀ ❀

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾

﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾

لعل من أكثر ما يمنع الإنسان من الإقدام والتضحية هو حمل هم ما بعده وانشغال البال بمن وراءه لذا قيل الولد مجبنة مبخلة ذلك لأن انشغال البال

بمصير الأبناء يعد حائلًا ضخمًا يقف بينه وبين البذل

وصلاح البال قد تكرر في موضعين في كتاب الله والموضعان في نفس السورة؛ سورة القتال فتأمل . .

لقد قيل أن البال هو الحال والشأن الدنيوي في المقام الأول ويعبر به أيضًا الخاطر الذي يخطر في العقل تقول: هذا الشيء في بالي أي في خاطري وذهني لا يفارقني، والإنسان عادة ينشغل خاطره بالهموم المحيطة به ولا شك أن المقدم علىٰ التضحيات التي تتحدث عنها السورة قد ينشغل بتلك الهموم

هنا تجد الطمأنة في سورة محمد مباشرة بعد الوعد بالهداية وحتىٰ قبل ذكر دخول الجنة

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾

﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾

﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾

سورة الفتح

الدعوة إلىٰ الله فتح

ولقد قيل أن الفتح الذي هو مقصود في السورة التي سميت بهذا الاسم هو فتح دعوي ابتداء

ذلك بأن صلح الحديبية الذي كان هو مناسبة السورة لم يك فتحًا عسكريًا أو سياسيًا بل في الظاهر كان معاهدة تحوي شروطًا تبدو في ظاهرها جائرة علىٰ المسلمين

لن يدخلوا مكة ليعتمروا هذا العام واشترط عليهم المشركون أن يردوا إليهم من يسلم بينما لا يفعل المشركون العكس مع من يرتد من المسلمين وغير ذلك من الشروط التي تبدو جائرة

ورغم ذلك سماه الله فتحًا

فكيف كان صلح الحديبية بهذه الشروط القاسية فتحًا؟

جزء من مهم من الإجابة تتمثل في هذا الفتح الدعوي الذي حدث بالتزامن مع ذلك الصلح حيث وجد المسلمون في تلك الهدنة فرصة سانحة لنشر دينهم في أرجاء الجزيرة العربية بغير منغصات القتال المتواصل مع قريش وأحلافها

وكان ذلك فتحًا

دخل في الإسلام في تلك الفتح -الهدنة بعد الحديبية- أضعاف من دخلوا فيه قبل ذلك الصلح وأرسل النبي ﷺ الرسائل والوفود إلىٰ ملوك وسلاطين العالم يدعوهم من خلالها إلىٰ الإسلام ودخلت الدعوة في طور العالمية ولم تمض سنوات بعد هذا الصلح حتىٰ وقف أمام النبي في خطبة الوداع ما يزيد عن مائة ألف مسلم

أوليس ذلك بفتح؟

❀ ❀ ❀

وذكر المغفرة وتمام نعمة الدين وفتوحات الهداية إلىٰ صراط الله المستقيم ورد جنبًا إلىٰ جنبٍ مع فتح النصرة والتمكين بل وسبقه وورد قبله وذلك في السورة التي تتحدث عن الفتح وسميت باسمه

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾

﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾

وفي ذلك الورود المشترك إشارة واضحة إلىٰ أن قضية الفتح وثماره لا تختزل في النصر الدنيوي والتمكين العاجل وحسب ولكن ينبغي أن ينظر مع ذلك وإلىٰ جواره لذلك الفتح الآخر

فتح الدين

❀ ❀ ❀

ولفتح الله خصائص لعل من أهمها أنه فتح ليس كأي فتح

إنه فتح مبين

ولقد تصدر هذا المعنىٰ في السورة التي سميت باسم الفتح

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾

تأمل ما تلىٰ تلك الكلمة من فتوحات ظاهرة وتفريجات باهرة في الدين والدنيا

❊ فهاهو فتح المغفرة وتمام النعمة والهداية

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾

❊ ثم فتح الانتصار والتمكين والعزة بالدين

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾

❊ ثم فتح القلوب بالسكينة والإيمان وما أعظمه من فتح

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾

❊ ثم فتح الإمداد بجنود السماوات والأرض

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

❊ ثم الفوز العظيم بفتح الآخرة وهو الأهم والأعظم كما سبق وبينا

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

❊ ثم فتح القصاص العادل من المنافقين والمشركين الذين طالما آذوا المؤمنين في الدنيا

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾

ياله من فتح متكامل متآزر تجمله تلك الكلمة الجامعة علىٰ قصرها كلمة: ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾

❁ ❁ ❁

ونسب الفعل للجاهلية دلالة قاطعة علىٰ بشاعته ورفضه ولطالما حذر النبي ﷺ من أفعال وأقوال منسوبة للجاهلية وجعل أمر الجاهلية كله موضوع تحت قدميه فربا الجاهلية ودم الجاهلية ورقىٰ الجاهلية وعنصرية الجاهلية كل ذلك نبذه في أقواله ونطقت به سنته

وأفعال عديدة نسبت للجاهلية في القرآن

فهناك ظن الجاهلية: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ﴾

وكذلك حكم الجاهلية: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

وللجاهلية تبرج وزينة: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ﴾

ولعل من أخطر ما نسب للجاهلية تلك الحمية والعصبية

حَمية الجاهلية؟؟!!

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾

والحمية هي الغرور والغطرسة والكبر ولقد تبدىٰ ذلك يوم الحديبية حين رفضوا البدء ببسم الله الرحمن الرحيم في صدر المعاهدة

وقيل أن أصل الحمية من مادة (حمي) وهي السخونة والحرارة الشديدة وهذه حقيقة حال ما ابتلي بتلك الحمية والعصبية

إنها نيران تتقد في جنبات نفس المتعصب كلما ظن أن أوثان قلبه الهشة علىٰ شفا جرف هار توشك علىٰ الانهيار

إنه لهيب يشتعل في صدره كلما وجد من يخالف جاهليته وجهله فيحيل حياته إلىٰ جحيم يستعر وتتقلب روحه في حممه وإن لم يبد ذلك للناظرين

حياة بائسة هي شتان الفارق بينها وبين تلك السكينة التي يبدل الله عباده المؤمنين بها

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

سكينة غرسها الإيمان ورسختها الكلمة

كلمة التقوىٰ

كلمة لا إله إلا الله والله أكبر

تلك الكلمة التي تهدم كل أوثان النفس وأصنام جاهليتها وتطهر محلها بضياء السكينة وبرد الإيمان

﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾

❀ ❀ ❀

وحين تكلم ربنا جل وعلا في سورة الفتح عن عذاب المنافقين ومعه عذاب إخوانهم المشركين جعل مناط ذلك علىٰ خصلة من أهم خصالهم

ظن السوء

الظن الفاسد بالله جل وعلا

تلك الصفة التي يشترك فيها أهل النفاق مع أهل الشرك

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾

الظانين بالله ظن السوء

وأيضا ورد ذكر ظن السوء مع ذكر المخلفين من الأعراب ممن رفضوا الخروج مع النبي ﷺ وتعللوا بعلل واهية بينما كانت حقيقة تخاذلهم تدور حول نفس المصيبة

مصيبة ظن السوء

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾

تأمل ذلك الحديث عن ظن السوء في سياق الكلام عن الفتح في سورة الفتح

إن ذلك الظن الباطل والمعتقد الفاسد هو أحد أهم أصول الإغلاق وموانع الفتح الرباني والنصر الإلهي

إن اليقين في فتح الفتاح وحسن الظن الباعث علىٰ حسن العمل من أعظم عوامل تنزل فتح الله القائل عن نفسه: «**أنا عند ظن عبدي بي فليظن عبدي بي ما شاء**».